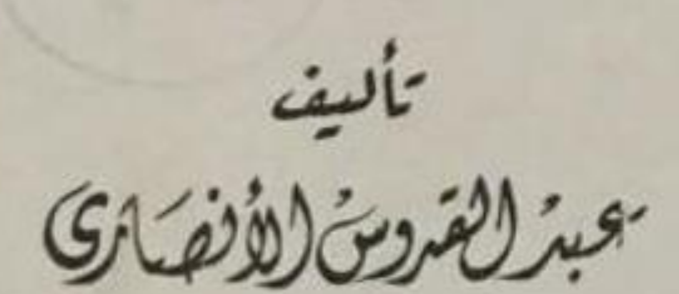
مع ابن جبير في رحلته



تأليف

عبد القدوس الأنصاري

الطبعة الأولى

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٧ م

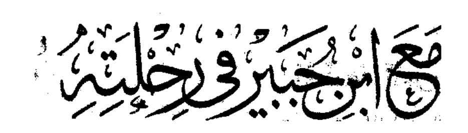
مع ابن جبير في رحلته

تأليف

عبد القدوس الأنصاري

الطبعة الأولى

١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م


مع ابن جبير في رحلته

المطبعة العربية الحديثة
٨ ش ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
ت : ٨٢٦٢٨٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

بين يدى الكتاب

لقد كان ابن جبير أحد أعلام الحضارة الإسلامية العربية الزاهرة فى ميدان الرحلات . ولقد ترك كتابُ رحلته المشهور بصماتِه واضحة مشرقة على الأَوضاع السائدة فى العالم الإسلامى من يوم قام برحلته وسجل مضامينها فى كتاب جغرافى أدبى لامع .

فلكى يتفتح مغلق ذخائر ذلك الكتاب الجامع المفيد من جديد على أذهان قرائنا اليوم بما يُمَكِّنُنَا من بناء حاضر نهضتنا ومستقبلها على نمط قويم سليم مرتبط بماضينا الحميد ـ أَلَّفنا هذا الكتاب مؤملين أن يُؤَدِّى مهمته التثقيفية والتوجيهية والتوثيقية على خير منوال يرام إن شاء الله .

عبد القدوس الأنصارى

مقدّمة

على كثرة ما قرأتُ من كتب الرحلات المؤلفة باللغة العربية ، لم ترتفع درجة حرارة إعجابى إلا بخمس منها .

ثنتان منهن قديمتان متفاوتتان فى القدم ، وثلاث حديثة متفاوتة فى الحداثة ، وإحدى الرحلتين القديمتين هى (رحلة ابن فضلان) مبعوثِ الخليفة المقتدر بالله العباسىّ ، سنة ٣٠٩ هـ ـ ٩٢١ م إلى بلاد الشمال القصية .... وإعجابى برحلة ابن فضلان ناشئ من :

ـ بساطةِ العَرْض وجمال الأَسلوب وسهولة التعبير ووضوحه .

ـ الالتزامِ بصدق الكلمة وَتَقَصِّى الحقائق وعرضها بدون تزويق أَو إفراط أَو تفريط .

ـ دقةِ الملاحظة لطبائع البشر وطبائع الأَشياءِ التى شاهدها الرَّحَّالة .

ـ شمولِ البحث وبساطتِه ودقتِه فيما يتعلق ببلاد الروس حينذاك وما إليها وما يُصَاليها فى ذلك العصر .

وثانيةُ الرحلتين القديمتين اللتين أَعْجَبَتَانِى هى : (رحلة ابن جُبير) ، وإعجابى بهذه الرحلة نابع من حيوية أُسلوبها ، وامتلاء أَبعادها وأَوصافها بروح الأَدب العربىّ العالى ، مع حسن استيعاب المعلومات ، إلى براعة التصوير والتمثيل والتشبيه ، وجودة الوصف وصدقه ، والتحرى بقدر طاقة الرحالة عن حقائق الأُمور المتحدث عنها فلا يؤثر عليه (غالباً) فى هذا الجانب السرعةُ التى تلازمُ كُتَّابَ الرحلات .

ويضاف إلى ذلك تحقيقُ ابن جبير للظروف والتواريخ المتعلقة بالحوادث التى يذكرها أو يسردها ، وإمعانُه للنظر فى السياسات المتعارضة فى ذلك العصر الذى كتب فيه رحلته بحيث جَلَّى لنا كثيراً من الأحوال الخفية والغامضة على شاشة كتابه ، ثم إتاحتُه الفرصةَ للمسلمين المعاصرين لرفع الأستارِ الكثيفةِ والخفيفةِ عن الأحداث وأسبابها الخفية التى تحرك مجتمعاتِهم ذاتَ اليمين وذاتَ الشِّمال ، وتعريفُ بعضهم ببعض ، لتزولَ عنهم غشاوةُ الخوفِ والحذرِ بالنسبة لبعضهم .

هذا إلى اتصالاته الخاصة بذوى الرأى والنفوذ من المسلمين وغيرهم ، تَقَصِّياً منه للحقائق على طبيعتها ، وبخاصة فى ديار الشام المحتلة بالصليبيين آنَذاك ، وفى صِقِلِّيَةَ المحكومةِ يومئذٍ بحكامٍ من الإفرنج لهم صلةٌ وثيقة بالاستعمار الصليبىّ المعاصر .....

وثالثةُ الرحلَات التى تُعْجِبنى هى رحلةُ (فى صحراءِ ليبيا) لأحمد محمد حَسَنَيْن ، فهذه الرحلة تُعَدُّ بحق رائدةً بين الرحلَاتِ العربية الحديثةِ ، فقد ارتفع كاتبها بمستواها الأدبىّ والفنىّ والعلمىّ إلى مستوى الرحلاتِ العالميةِ الكشافةِ للمجهول ، وأُسلوبُها رائعٌ وجذاب ورشيق وإخراجها شَيِّقٌ وجميل ، وحينما يبدأُ القارئُ فى مطالعتها تستهويه حتى يصل إلى آخرها .

ورابعةُ الرحلات هى رحلة (فى منزل الْوَحْى) للدكتور محمد حسين هيكل ، كتبها عقب قدومه إلى هذه البلاد المقدسة سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م .

وبلاغةُ رحلة « فى منزل الوحى » هى فى القمةِ ، خاصةً بالنسبة للرحلات التى كُتبت بعدها ، وكاتب هذه الرحلة عَلَمٌ من أعلام البيان

العربى المعاصر ، فلا غَرْوَ أن تكون له جَوَلَاتٌ صادقة فى تحقيق آثار هذه البلاد ومَشاهدها ومعالمها .

وخامسةُ الرحلات هى رحلة (ما رأيتُ وما سمعتُ) لخير الدين الزركلىّ ، فأُسلوب هذه الرحلة يمتاز بالخفة والمرح والظَّرْف واللطف ودقة البحث اللغوىّ والأدبىّ « الفصيحِ والعامى » . وقد كتبها فى مبدإ صحوة البلاد ، فأَدت مهمتها الأَدبية والعلمية على خير ما يرام .

* * *

هذا وليس بوسع دارسِ كُتُبِ الرحلات العربية أَن يغض الطرف عن غير الرحلات السابقة . وليس بوسعه أن يتحدث عنها كلِّها ، لأَنها أَكثر من أن تحصى أَو تحصر ، وكثير منها ذوات ميزات خاصة أَو عامة . وسأَذكر لك فيما يلى ما تسنى لى جمع أسمائه ، منها :

رحلة الإمام الشافعىِّ من مكة إلى المدينة – للربيع . رحلة ابن فضلان . رحلة أَبى دُلَف . رحلة مسعر بن مهلهل الينبعىّ . رحلة ابن رشيد الفهرىّ الأَندلسىّ . رحلة محمد بن أَحمد القيسىّ . رحلة الرداعىّ اليمنىّ . سفر نامه – لناصر خسرو . رحلة أَبى حامد الغرناطىّ . رحلة ابن جبير . رحلة العبدرىّ . مستفاد الرحلة والاغتراب – للقاسم بن يوسف التُّجِيبىِّ السَّبْتِىِّ . . (ظهر القسم الأَكبر من الجزء الثانى منها فى عالم النشر بتونس وليبيا سنة ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥م) . رحلة ابن جابر إلى مكة . رحلة إلى بيت الله الحرام – لإدريس بن عبد الله الشاكرى . رحلة ابن بطوطة . التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً – لابن خلدون . دُرَرُ الفرائد المنظمة – لعبد القادر الجزيرىِّ الأَنصارىّ . تاريخ المستبصر – لابن

المجاور . رحلة ابن عثمان الحجازية . الرحلة التجانية - لعبد الله التجانى التونسى . حلية الذهب الإبريز فى رحلة بعلبك والبقاع العزيز - للنابلسى . الحقيقة والمجاز فى رحلة الشام ومصر والحجاز - لعبد الغنى النابلسىّ . التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية - له . الرحلة الذهبية إلى الأقطار الحجازية - لأحمد بن علىّ الشاذلىّ . رحلة العَيَّاشىّ . الحلية الحقيقية فى الرحلة الحجازية - لمصطفى كمال الدين الصديقىّ . النفحة المسكية - لعبد الله السُّوَيْدِى . تخليص الإبريز فى تلخيص باريز - لرفاعة الطهطاوىّ . الواسطة فى معرفة أحوال مالطة - لأحمد فارس الشدياق . كشف المخبا عن فنون أوروبا - له أيضاً . الفوائد السنية فى الرحلة المدنية - لمحمد بن أحمد القطبىّ المكىّ . التحفة اليمنية فى الأخبار الحجازية - لمحمد بن علىّ عَرْعَار اليمنىّ العُنَّابىّ . رحلة عثمان عبد الرحمن بن الصلاح الشَّهْرَزُورى . وصف رحلة إلى الحبشة - لشرف الدين الْحِيمىّ الشَّبَامى . رحلة ابن عبد السلام الناصرىّ . رحلة أبى الطيب الشرقىّ . رحلة نزهة الأنظار - للوريثلانى . رحلة الصديقىّ إلى البيت العتيق - لمحمد بن صديق خان . تشحيذ الأذهان فى سيرة بلاد العرب والسودان - لمحمد بن عمر التونسىّ . الرحلة المكية - لعلى ابن يحيى الكيلانى . رحلة الوزير فى افتكاك الأسير - للوزير محمد بن عبد الوهاب المغربى[1] . نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد - لأحمد ابن المهدى الغَزَّال المغربىّ[2] (وهما الرحلتان اللتان قام بهما هذان السفيران

---

(١) أورد الدكتور حسين مؤنس ذكر محمد بن عبد الوهاب سفير سلطان المغرب للتفاهم مع الأسبان بشأن تبادل الأسرى وتحدث فى رحلته عن طليطلة وجامعها الذى حوله النصارى إلى كنيسة . وكانت زيارته هذه سنة ١٦٩١ م . راجع ص ٣٣٠ ط مصر .

(٢) ذكر الدكتور حسين مؤنس فى كتابه « رحلة الأندلس » هذه الرحلة ، وقال : إنها كانت فى سنة ١٧٦٥ م حيث زار الغزال قرطبة ولكنه لم يسم رحلته ، وقال إن زيارة هذا الرحالة لقرطبة ، كانت « ليتحدث فى تنظيم تبادل الأسرى بين المغرب وأسبانيا » راجع ص ٧١ طبعة القاهرة . كما ذكر أن هذا الرحالة زار أيضاً طليطلة فى نفس السنة ووصف كنيستها بأنها كانت جامعاً . راجع ص ٣٣٠ من نفس المصدر والطبعة .

المغربيان رسمياً من المغرب إلى الأندلس بعد أُفول شمس الحضارة الإسلامية عن أجواءِ تلك البلاد). التحفة السنية للحضرة الحَسَنِيَّة بالمملكة الأَصْبَنْيُولِيَّة ـ لأحمد الكردوديّ المغربيّ. رحلة الشتاء والصيف ـ لمحمد بن عبد الله الحسينيّ المُوسَوِيّ . رحلة الخياري المدني . دليل الوارد إلى مكة والمدينة من كل فج ـ لِلِّواء محمد صادق أمير الحج المصريّ . مشعل الحج فى سفر المحمل بحراً وسيره بَرًّا ـ له أيضاً . نبذة سياحية إلى الآستانة العلية ـ له أيضاً . نشوة الشَّمُول فى الذهاب إلى إسلامبول ـ لمحمود الآلوسى . دعوة المُدَام فى العود إلى مدينة السلام ـ له أيضاً . فوائد الاغتراب ونزهة الألباب فى الذهاب والإقامة والإياب ـ له أيضاً . الرحلة اليمانية ـ للشريف البركاتى المكيّ . الرحلة الأَنْوَرِيَّة إلى الأصقاع الحجازية والشامية ـ لمحمد كُرْد على . مرآة الحرمين ـ لإبراهيم رفعت أمير الحج المصرى . الرحلة الحجازية ـ للبتنونى. رحلة الأندلس ـ له. الرحلة إلى أمريكا ـ له أيضاً. الارتسامات اللِّطَاف فى خاطر الحاجّ إلى أقدس مَطَاف ـ لشكيب أرسلان . ما رأيت وما سمعت ـ لخير الدين الزركليّ . رحلات محمد رشيد رضا . صور ومشاهدات فى الحجاز لمحي الدين رضا . رحلات ـ لعبد الوهاب عزام . فى صحراء ليبيا ـ لأحمد محمد حسنين . فى منزل الوحى ـ لمحمد حسين هيكل . مع عاهل الجزيرة العربية ـ لعباس محمود العقاد . رحلة الحجاز ـ لإبراهيم عبد القادر المازنىّ . رحلة فى البلاد العربية السعيدة ـ لنزيه مؤيد العظم . رحلة الربيع والصيف ـ لطه حسين . فى ربوع عسير ذكريات وتاريخ ـ لعمر رفيع . رحلات فى عسير ـ ليحي إبراهيم الألْمَعِيّ . على خط النار ـ لعبد الله السعد . مذكرات سائح فى الشرق العربى ـ لأبى الحسن على الحسنىّ النَّدوى . الطريق إلى مكة ـ لمحمد أسد

(ليوبولدوايس) . رحلة محمد شفيق مصطفى . قلب نجد والحجاز . تذكار الحجاز - لعبد العزيز صبرى . يوميات عربىٍّ فى أمريكا - لسامى الْكَبَّالِىّ . غربيون فى بلاد العرب - لسليمان موسى . شهر فى دمشق - لعبد الله بن خميس . المجازُ بَيْنَ اليمامة والحجاز - له أيضاً . رحلة ينبع لحمد الجاسر . فى شمال غرب الجزيرة - له أيضاً . رحلة الأندلس - لحسين مؤنس . رحلة إلى الشرق - لشكيب الأُموىِّ . رحلة إلى الرّبْع الخالى - لتوفيق شاكر النّتْشَة . أنا عائد من إسرائيل - لإبراهيم عِزَّة . رحلة الربيع - لفؤاد شاكر . رحلة إفريقية الخضراء - لمحمد العبودىّ . رحلاتى إلى الديار الإسلامية - لمحمد محمود الصواف . رحلات صَفْوَت السقا أمينى إلى الربوع الإسلامية . رحلة يوسف عثمان المهندس مع الخديوى إسماعيل إلى فرنسا سنة ١٨٦٧ م . حول العالم فى ٢٠٠ يوم - لأنيس منصور . أعجب الرحلات فى التاريخ - له أيضاً . رحلةٌ إلى دولة تَرَانْزَسْتُور : قبرص (قبرس) لحسين قَدْرِى . رحلتى إلى إفريقيا الغربية - لناجى جواد . رحلة الرياض - للمؤلف . رحلتى إلى بنى سُلَيْمٍ - له أيضاً . رحلة الباحة - له أيضاً . رحلة الْجَار - له أيضاً . على هامش الرحلة إلى مصر - له أيضاً . سندباد دبلوماسىّ - لأحمد عبد المجيد . رحلة إلى آسيا - لشريف شحاتة . رحلة الصيف إلى بلاد البوسنة والهرسك - للأمير محمد على شقيق الخديوى عباس الثانى . رحلة الأمير محمد على إلى الجهة الشمالية لأمريكا . السَّفَرُ إلى المؤتمر - لأحمد زكى مترجم مجلس النظار . كتاب منظر أُوربا العجيب - لنجيب حسين الجُندى . رحلة الأندلس - لمحمد لبيب البتنونى . الرحلة إلى أمريكا - له أيضاً . لندن - لأحمد عطية الله . رسائل سائر من بلاد العرب إلى بلاد اليونان - للشيخ محمد سليمان . رحلة كلية الآداب إلى ساحل

البحر الأحمر وبعض مناطق الآثار بالوجه القِبْلِيّ ـ لجملة أساتذة أولهم (مقالًا فى الكتاب) : توفيق الطويل ، وآخرهم (مقالا فى الكتاب) : إبراهيم أحمد رزقانة . جولة فى ربوع العالم الإسلامىّ ـ لمحمد ثابت . جولة فى ربوع إفريقية ـ له أيضاً . رحلاتٌ فى الإسلام ـ لمحمود خليل الحصرىّ شيخ القراء والمقارئ بمصر .

فهذه مائةُ كتابِ رحلةٍ وخمسة عشر كتاباً ، وهى ما بين مطبوعة ومخطوطة وقد جمعتُ أسماءها مما تحويه خزانة كتبى الخاصة ، بِجُدَّةَ ، ومن غيرها من الخزائن الخاصة والعامة ، ومن مراجعات بعض المعنيين الثقاة ، ومن مطالعاتى للكتب المطبوعة والمخطوطة شرقاً وغرباً .. وهذا المقدار من أسماء الرحلات هو قطرة من بحر كبير .

هذا ، ومن منطلق إعجابى برحلة ابن جبير أسلوباً وموضوعاً وعَرْضاً وملاحظاتٍ ، اختصصتها بهذا الكتاب ، سعياً وراء تسليط الأضواء عليها وإبراز مكنوناتها، كتراثٍ قيم من تراثنا العربىّ الإسلامىّ فى فن الرحلات الذى يُعَدُّ من أجـل فنون المعرفة وأجملها وأكثرها حيوية وأمتعها وألصقها بحياة الأفراد والأمم ، كما يقول الدكتور حُسْنى محمود حسين فى مقـدمة كُتَيِّبِهِ : « أدب الرحـلة عند العرب » ، وعلى ما يقول أيضاً ـ « إن نمط الرحلات يتعرض إلى جميع نواحى الحياة أو يكاد .. إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافى وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخى الآداب والأديان والأساطير . فالرحلات منابع ثَرَّة لمختلف العلوم ، وهى بمجموعها سجل حقيقى لمختلف مظاهر الحياة ومفاهيم أهلها على مر العصور » .

ومن الواضح أن الرحالين تختلف لديهم قوةُ الحاسة السادسة وهى « الملاحظة » ضعفاً وقوة ، ومحدودية وشمولًا ، وضحالة وعمقاً .. وابن جبير صاحبنا ، وبالتعبير الأدق صاحب هذه الرحلة المختارة كان

من أوسع الرحالين العرب فكراً ، وأشملهم ملاحظات وأجملهم أسلوباً وأنقاهم تعبيراً ، وأسلسهم بياناً ، وأعمقهم استنتاجاً وإدراكاً وأكثرهم اهتماماً بأوضاع السياسة الإسلامية العامة فى زمنه ، وأشدهم اهتماماً بتتبع أحوالها واستقصاء أدْوَائِها وعلاجها .. وما دَوَّنَهُ فى كتاب رحلته من المعارف عَدَّه العلماءُ والأُدباءُ والباحثون كنزاً ثميناً ، وناهيك بما أورده فى كتاب رحلته من التحقيقات العميقة حول أوضاع مسلمى صِقلِّيَةَ مع حُكامهم الغربيين ، وما تفرس به حيال مستقبلهم القاتم فى تلك الجزيرة التى كانت إحدى دُرَر الحضارة الإسلامية . وما دَوَّنَهُ عن المجتمع الدمشقىِّ والمجتمع الحجازىّ فى مكة وجُدَّة والمدينة من عاداتٍ وصناعات ، وتقاليدَ وأوضاع ..... وعن العراق عامةً وبغدادَ خاصةً قُبَيْلَ هبوب عواصف نكبة التتار المبيدة على ربوعها النضرة .. ، وما قد أفادنا به عن أوضاع مجتمع الْمَوْصِليِّينَ ومن يُصَاليهم .. من المسلمين المتمزقة مطامحهم وأهواؤهم وديارُهم ، وما أطلق به عِنَانَ يراعته الفياضة من وصف مالاقاه من أهوال البحار ، وما شاهده من أحوال القطر المصرىّ شماليه وجنوبيه ، وما أَمْتَعَنَا به من مشاهداته حيال حياة الْعَيْذَابِيِّينَ ، وحياة البُجَاةِ الْبِدائيين . ولسنا نقول إن رحلةَ ابن جبير بريئةٌ من العيوب ، خاليةٌ من موجبات النقد ، ففيها هناتٌ من هذا القبيل أشار إليها الكاتبون عنها قديماً وحديثاً .. والأمر فى هذا الشأن لا يَعْدُو ما قاله الشاعر العربى القديم الحكيم :

وَمَنْ ذَا الَّذِى تُرْضَى سَجَايَاه كُلُّها ... كَفَى المرءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايبُه

وفى خلال دراستنا لكتاب الرحلة هذا اطلعنا على بعض ما يستحق الإشادة ، وبعض ما يستحق التحليل والنقد، فقمنا بما ينبغى فى الحالتين ، على أنه مما لا يتطرق إليه الريب أن كتاب رحلة ابن جبير فريد ومتميز

بين كتب الرحلات الأُخرى بما جعله فى القمة منها سواءٌ من ناحية جمال العَرْض والأُسلوب وروعة البيان، أم من ناحية إيفاء الدراسة حقها، فيما يشاهده أو يلاحظه من كثب، أم من ناحية دقة الملاحظة وشمولها.

ومُؤَكَّدٌ أَن كتاب رحلة ابن جبير ذو قيمة علميةوتاريخية يمتاز بها مع الإيجاز والتركيز، ولا يخلو مع ذلك من بعض أوهام وأخطاءٍ قلما يسلم منها رحالو تلك العصور وكُلِّ العصور، وقد حوى الكتابُ « مصطلحاتٍ » خاصةً وعباراتٍ عاميةً، لعل من أَسباب وجودها به السرعةَ فى تدوين « المذكرات اليومية » التى تَجَمَّع من مَوَادِّها كتابُ الرحلة على الراجح ... ولعل من أَسبابها الضعفَ اللغوىَّ السائد فى تلك القرون. إلى اختلاط ابن جبير فى بلاده (الأَندلس) بالأُوربيين الذين تسربت بعضُ كلماتهم مثل: « الدَّلُونِوالْأَرْدَمُونِ» بحكم الجوار والاختلاط - إلى اللهجة العربية الأَندلسية يومذاك. وقد لاحظتُ أَثناءَ دراستى لكتاب الرحلة أن «ذاكرة» ابن جبير تلتقط وتحتفظ بما التقطته من كلمات عامية أَو أَجنبية أَو غير فصيحة كما يلتقط المغناطيس الحديد. فهو يستعملها فى كتاب رحلته بسهولة ويسر كما سمعها. ومثال ذلك أَنه سمع الناس فى عيذاب يسمون السفينة باسم « الْجَلْبَةِ » فسماها بهذا الاسم، وهو يتحدث عن بحر القُلْزُم الذى كان البُجَاة من أَهل عيذاب يحملون الحجاج والركاب فيه على مُتون (جَلَبَاتِهِمْ) حتى ميناءِ جدة. فلما بلغ العراق والشام وصقلية ضرب باسم (الْجَلْبَةِ، والْجِلَابِ) عرْض الحائط. واستعمل فقط اسم (المركب) و (المراكب) للسفن، على لهجة أَهل هذه النواحى. وعندما كان فى إفريقية والحجاز التقطت ذاكرته اسم(الفندق) واستعمله فى كتاب رحلته، أَثناءَ حديثه عنه فى هذه الرحلة بمصر والحجاز. فلما تجاوز الحجاز ونجداً إلى العراق أَهمل هذه الصيغة إهمالًا كلياً، وأَخذ بدلًا عنها الصيغة التى

يستعملها للفندق أهلُ هذه النواحى العراقية والشامية وهى صيغة (الخان).

ومن المميزات البارزة فى هذا الكتاب عنايته البالغة بوصف المدن التى زارها وآثارها وما تحويه من مدارس ومستشفياتٍ وأسواقٍ حفيلةٍ ومياهٍ ثرة وخضرةٍ نضرة ... وقد سجل بريشته البارعة فى كل مناسبة مظاهر الترف والثراء وفعل الخيرات التى كانت تموج بها ديار الإسلام. وسجل انتصاراتِ صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذى كان مُغْرَماً ببطولته شائداً بها قادراً لها ، مثنياً عليها فى كل مناسبة ، إلى عدله وأعماله الإصلاحية الباهرة .. ولم ينس غيره من رجال ذلك العصر البارزين كجمال الدين الأصفهانى .. ذى الخيرات والمبرات الشاملة ..

كما كان يُدَوِّنُ مظاهر الغليان الذى كان كامناً تحت الرماد فى الديار الإسلامية بسبب استيلاء الصليبيين وبقائهم فى بعض الديار والمدن الإسلامية العربية ذات الأهمية الدينية والحضارية والاقتصادية . وقد بكى بحرقةٍ مجدَ الإسلام المعرضة شمسه للأُفول .. بكاه بقلب دامٍ وعقلٍ واعٍ مستنير ، كشاف لما وراء الستور ، وأعلن هذه الفراسة فى كتابه كنذير قاتم للعالم الإسلامى لما تتعرض له هذه الدرة الإسلامية المغتصبة : (صقلية) من اندثارٍ وتغييرٍ وقلع لجذورِ الإسلام من أرضها المعطاء على يد حكامها الأُوربيين المسيحيين المتعصبين . وقد كان ما تخيله فعلا وصح مارسمته واعيته العبقرية وفراسته الألمعية ، فى هذا الأمر تماماً .

وإننا لنأمل من وراء كتابنا هذا أن يكون مناراً وضاءًا ووضيئاً فى طريق من يعنون بالدراساتِ الإسلامية والعربية التراثية الرائدة الممثلة فى كتاب رحلة ابن جبير الذى أفردنا لدراسته ودراسة كاتبه الأديب الأريب العبقرى الخالد ، هذا الكتاب .

الفصل الأول
تراجم ابن جُبَير

١ ـ ترجمة القاسم بن يوسف التجيبي السبتي :

من أوائل من ترجموا لمحمد بن جبير الكنانيّ صاحِبِ الرحلة المعروفة باسمه ، الرحالةُ القاسمُ بنُ يوسف التُّجيبيُّ المولود سنة ٦٧٠ هـ ـ ١٢٧١ م والمتوفى سنة ٧٣٠ هـ ـ ١٣٢٩ م عن عمر بلغ الستين عاماً . وكان قد ارتحل لأداء فريضة الحج ، من المغرب إلى المشرق ، مثل ابن جبير الذى عاش قبله ، وقام برحلته قبله أيضاً بمدة تبلغ مئة سنة ونيفاً . وكان القاسم قد أفاد من كِتَابِ رحلة سلفه ابن جبير ، واحتضن بعض عباراته ، واقتبس بعض نظرياته وتحقيقاته ، وذلك فى كتابه : (مستفاد الرحلة والاغتراب) الذى يعود الفضل فى إخراج بعضه إلى دور النشر ، وتحقيقه ، إلى الأُستاذ عبد الحفيظ منصور ، فطبع فى الدار العربية للكتاب ـ ليبيا ، تونس سنة ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م [١] .

وفى كتاب « مستفاد الرحلة والاغتراب » يسرد المؤلف نسب ابن جبير حتى جَدِّهِ الثالث عشر ، نقلًا من خط ابن فرتون .

وهذا هو عمود نسبه حسب ما ذكره القاسم بن يوسف ضمن حديث له عنه ، قال فيه ما نصه :

« وقال الأَديب الفاضل الزاهد أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير

---

(١) الذى طبع وحقق هو مااعتبره المحقق عبد الحفيظ منصور ، القسم الأكبر من الجزء الثانى منه . وقد طبع مع فهارسه العامة فى (٥٥٧) صفحة من الحجم المتوسط طبعاً أنيقاً . وقد أهداه لنا صديق كريم من تونس الخضراء لم نتمكن من معرفة اسمه حتى الآن ، لأن الأخ الحاج التونسى الذى قدم به فى حج عام ١٣٩٥ هـ إلى جدة سلمه لصاحب دكان مجاور لمكتب مجلة المنهل ليسلمنى إياه ، ولم يترك ذلك الأخ ما يدل على اسمه أو اسم مهدى الكتاب إلينا .

الكنانى الداخل إلى الأندلس مع بَلْجٍ القشيرىّ سنة ١١٣ فيما وَجَدْتُ عنه ، ونَقَلْتُ هذا النسب هكذا من خط ابن فرتون رحمه الله ـ (عدد سواريه ـ أي المسجد الحرام ـ الرخامية التى عَدَدْتُها بنفسى أربعمائة سارية وإحدى وسبعون سارية[2] ».

وقد رَاجَعْتُ هذا (النص) الذى نقله القاسم التجيبىّ فى كتابه المذكور عن رحلة ابن جبير، فوجدته مُثْبَتاً بنصه وَفَصِّهِ فى تلك الرحلة[3].

٢ ـ ترجمة لسان الدين ابن الخطيب :

ومن ترجموا لابن جبير، لسانُ الدين ابنُ الخطيب الْغَرناطىُّ الأندلسىُّ المولود فى ٢٥ رجب سنة ٧١٣ هـ ـ ١٦ نوفمبر ١٣١٣ م فى مدينة (لوشة) فى الأندلس ، والمتوفى مخنوقاً فى مدينة فاس بالمغرب سنة ٧٧٦ هـ ـ ١٣٧٤ م عن ٦٣ عاماً .

وكانت ترجمةُ لسانِ الدين لابن جبير ، فى كتابه : (الإحاطة فى أخبار غَرْنَاطَةَ) الذى بدأ تأْليفه حوالى سنة ٧٦٢ هـ والذى انتهى من كتابته وتنقيحه حوالى سنة ٧٧٣ هـ أى قبل وفاته بثلاث سنوات وقد كانت هذه الترجمة من أحفل تراجم ابن جبير وأوفاها . فقد استغرقت عِدَّةَ صفحاتٍ من (الإحاطة) وقد بدأها بسرد نسبه هكذا :

(محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد

---

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب الصفحة ٢٤٣ طبع تونس ـ ليبيا ـ تحقيق عبد الحفيظ منصور بتونس .

(٣) راجع ٩٧ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر بيروت ، والصفحة ٥٥ نشر مكتبة نهان الأعظمى ببغداد .

ابن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام ابن جبير الْكِنَانِيِّ الواصلِ إلى الأَندلس)[٤]

ولسنا ندرى مِمَّنْ نَقَلَ لسانُ الدين عمودَ هذا النسب ، على أننا قد لاحظنا أَن بين عمود نسبه لابن جبير وعمود نسب القاسم له تفاوتاً فى بعضِ أَسماءِ أَجداد ابن جُبَيْرٍ ، وذلك أَنَّ عمود نسبه فى كتاب القاسم ، أَبْلَغَ عددَ أَجداده حتى عبد السلام بن جبير الكنانىّ إلى (١٢) جَــدًّا ، حالما أَنهم فى عمود نسب الإحاطة ثلاثة عشر جدًّا .

ثم ذكَر لسانُ الدين (أَوَّلِيَّةَ ابنِ جبير) فقال : (دخل جده عبد السلام ابن جبير فى طالعة بَلْج بن بشر بن عياض القُشيرىّ فى محرم ١٢٣ (أى للهجرة) .

وقد ذكر لنا لسانُ الدين أَنَّ عبد السلام بن جبير الجد قبل الأَخير للرحالة (كان نزوله بكورة شدونة) وهو من ولد ضمرة بن كنانة ابن بكر بن عبد مناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان : بَلَنْسِىٌّ الأَصل ، ثم غَرْنَاطِىٌّ الاستيطان ، شَرَّقَ وغرَّبَ ، وعاد إلى غَرْنَاطة[٥] .

ثم وصف لسانُ الدين (حالَ ابن جبير الأَدبية والعلمية والاجتماعية) فقال : (وكان أَدبياً بارعاً ، شاعراً مُجِيداً ، سَنِيًّا فَاضِلًا ، نزيه الهمة ، سَرِىَّ النَّفْس ، كريمَ الأَخلاق ، أَنيقَ الطريقة فى الخط . كتب بِسِبْتَة

---

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة المجلد الثانى الصفحة ٢٣ نشر مكتبة الخانجى بمصر ، وتحقيق محمد عبد الله عنان .

(٥) يقصد لسان الدين بقوله : (بلنسى) الأصل ، إلى قوله : (وعاد إلى غرناطة) — يقصد بذلك المترجم له محمد بن أحمد بن جبير صاحب الرحلة ، فهذه الأوصاف تخصه ، وليس يعنى بها مطلقاً جده عبد السلام بن جبير الذى دخل الأندلس مع بلج ، كما هو واضح من سياق العبارة .

عن أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، وبِغَرْنَاطَةَ عن غيره من ذوى قرابته[٦] وله فيهم أمداح كثيرة ، ثم نزع عن ذلك وتوجه إلى المشرق ، وجرت بينه وبين طائفة من أُدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته ، وإجادته. ونظمه فائق ، ونثره بديع ، وكلامه المرسل سهل حسن ، وأغراضه جليلة ، ومحاسنه ضخمة ، وذكره شهير ، ورحلته نسيجة وحدها طارت كل مطار ، رحمه الله)[٧] . وتحدث لسان الدين عن رحلات ابن جُبَيْرٍ ، فروى عمن عُنِي بخبره أنه رَحَلَ ثلاثاً من الأَندلس إلى المشرق ، وحج في كل واحدة منها . فَصَلَ عن غَرناطَةَ أَول ساعة من يوم الخميس لثمانٍ خلون من شوال ، صُحْبَةَ أَبي جعفر ابن حسان[٨] .

وقد أفاض لسان الدين بن الخطيب فى تتبع رحلات ابن جبير الثلاث مما سنضعه بين يديك فى كلمة لاحقة من هذا الفصل إن شاء الله ، كما ذكر أسماء مشيخته ، وأسماء من أَخذوا عنه ، وتصانيفه ، وشيئاً من شعره ونثره ، وتاريخَ مولده ومَكَانَهُ ، وتاريخَ وفاتِهِ وَمَكَانَهَا .

٣ ــ ترجمة المقرى :

وترجم له أحمد بن محمد المَقَّرىّ التِّلِمْسَانى المتوفى عام ١٠٤١ هـ فى كتابه (نَفْح الطيب) ويبدو أن لترجمته صلةً بكتاب (الإحاطة فى

---

(٦) يقصد بقوله : (كتب عن أبي سعيد) أن ابن جبير رأس ديوان الإنشاء لكل من أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن بسبتة وغيره بغرناطة من دولة الموحدين .

(٧) الإحاطة فى أخبار غرناطة ص ٢٣٠ و ٢٣١ المجلد الثانى ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، طبع الشركة المصرية للطباعة والنشر .

(٨) سيأتى فى بحث لاحق من هذا الفصل أن ابن جبير صحبه أحمد بن حسان على ما ورد أيضاً فى كتاب رحلته ، وهو أبو جعفر بن حسان هذا نفسه ، كما ذكر فى بعض تراجم ابن جبير أنه صحبه فى رحلته أيضاً القاضى أبو محمد عبد الحق بن عطية . وقد كانت صحبتهما له ، فى رحلته الأولى من غرناطة إلى مكة حاجاً للمرة الأولى ، ولم تثبت صحبة القاضى أبى محمد عبد الحق لابن جبير كما سيرد إيضاحه فى مكانه .

أخبار غرناطة ، للسان الدين) ، فقد ذكر الْمقَّرىّ أن ابن جبير كِنَانِى ، وأنه من ولد ضَمْرة بن أَبى بكر بن عبد مناف بن كنانة . وذلك حسب ما أورده ابن الخطيب تماماً ، وقال الْمَقَّرى (إنه أَنْدَلُسِىٌّ شَاطِبِىٌّ بَلَنْسِىٌّ) . وهذا يشتمل على كثيرٍ من قولِ ابنِ الخطيب . وحدد الْمقَّرى يوم ولادته بأَنه كان يوم السبت عاشر ربيع الأَول سنة أَربعين وخمسمائة بِبَلَنْسِية).

وقال عنه : (وقيل فى مولده غير ذلك)[٩] .

وفى تحديد المقرى ليوم مولده وشهره زيادة عما ورد فى كتاب الإحاطة . وذكر المقرى مشايخ ابن جبير كما ذكرهم لسان الدين تماماً .

ثلاث قصص

هذه القصص الثلاث زادها (نفح الطيب) عما فى الإحاطة فى ترجمته لحياة ابن جبير . وتدل القصة الأُولى على عمق ابن جبير فى التَّدَيُّنِ وفى سماحة الأَخلاق ، كما تدل على مكانته وكياسته فى العمل الحكومى وعلى طاعته لصاحب الأَمر إذا لم يجد مفرًّا من هذه الطاعة فيما لا يُرْضى الله تعالى ، ويأْباه ضميره المسلم . وتلطفه فى المخرج من الورطات المفاجئة.

تقولُ القصـــة إنه : (كتب فى أول أمره عن السيد أَبى سعيد ابن عبد المؤمن ، صاحب غَرناطة فاستدعاه لأَن يكتب عنه كتاباً ، وهو على شرابه ، فمد يده إليه بكأْسٍ فأَظهر الانقباض ، وقال : يا سيدى ما شربتُها قَطُّ ! فقال : والله لتَشْرَبَنَّ منها سَبْعاً ، فلما رأَى العزيمةَ شرب سبعة أَكؤس فملأَ له السيد الكأْس من دنانيرَ ،سَبْعَ مراتٍ ، وصَبَّ ذلك فى حجْرِهِ ، فحمله إلى منزله وأَضمر أَن يجعل كفارة شربه الحجَّ بتلك الدنانير . ثم رغب إلى السيد وأَعلمه أَنه حَلَف بأَيمان لاخروج له عنها

---

(٩) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج ٢ ص ١٤٢ ، طبع مصر .

أنه يحج فى تلك السنة ، فأسعفه ،وباع ملكاً له تزود به ، وأنفق تلك الدنانير فى سبيل البر) .

فهذه القصة تكشف لنا اللِّثَام عن أُمور منها :

أولًا - أن ابن جبير كان صالحاً تقياً بارعاً فى إنشاء الرسائل الحكومية وأديباً متمكناً . ومن تقواه أنه لما أخذ الدنانير من أميره ، أبدى له رغبته فى الحج ووافقه على ذلك فلم يحج بتلك الدنانير ، وإنما أنفقها فى سبيل البر ، وحج بثمن الْمِلْكِ الذى باعه لأَجل الحج .

ثانياً - لم يكن ابن جبير فظاً ولا غليظاً مع صلابته فى التقوى . . يدلنا على ذلك شربه للخمر تنفيذاً للأَمر الصارم الذى صدر عليه من أبى سعيد ، ومع علمه بأَنه قد أُكْرِهَ ولا ذنب عليه فإنه آثر البعد عن الأَمير أبى سعيد وتلطف فى ذلك حتى نال غرضه بهدوء . كما يفيدنا هذا النص بأَن ابن جبير لم يحج بالدنانير التى منحه إياها أبو سعيد ، فإنه أنفقها فى سبيل البر . وأما حجه فقد كان التزودُ له من ثمن المِلْك الذى باعه[10] .

القصة الثانية : تقول ما نصه :

(ومن الحكايات فى مروءة أهل الأَندلس ما ذكره صاحب (الملتمس) فى ترجمة ابن جبير من أنه كان من أهل المروءات عاشقاً فى قضاء الحوائج والسعْى فى حقوق الإخوان) .

وأضاف صاحب الملتمس قوله :

وأغرب ما يُحْكى أنى كنت أحرص الناس أن أُصَاهِر قاضِىَ

---

(١٠) لمح الدكتور محمد مصطفى زيادة فى محاضرته المنشورة إلى أن ابن جبير حج بالدنانير التى أعطاه إياها أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ص ٤ .

غَرْنَاطة أبا محمد عبد المنعم ابن الغَرْس أو ابن (الفرس) فجعلته ، يعني ابن جبير ، الواسطة ، حتى تيسر ذلك ، فلم يوفق الله ما بيني وبين الزوجة فجئته وشَكَوْتُ له ذلك ، فقال : أنا ما كان القصد لى فى اجتماعكما ، ولكنى سعيت جهدى فى غرضك وها أنا أسعى أيضاً فى افتراقكما ، إذ هو من غرضك .... وخرج فى الحين ، ففصل القضية ، ولم أر فى وجهه أولا ولا آخراً ، عنواناً ، لامتنان[11] ولا تصعيب. ثم إنه طرق بابى ، ففتحت له ودخل ، وفى يده مِحْفَظَة[12] فيها مائة دينار مُؤْمِنيَّة[13] ،ثم قال يا ابن أخى . أَعْلَمُ أنى كنت السبب فى هذه القضية ، ولم أشك أنك خسرت فيها ما يقارب هذا القدر الذى وجدته الآن عند عمك ، فبالله إلا ما سررتنى بقبوله .. فقلتُ له : أنا ما أستحى منك فى هذا الأمر ، والله إن أخذتُ هذا المالَ لَأُتْلِفَنَّهُ فيما أُتْلَفْتُ فيه مال والدى من أمور الشباب ، ولا يحل لك أن تمكنني فيه بعد أن شرحت لك أمرى .. فتبسم وقال : لقد احتلتَ فى الخروج عن الْمِنَّةِ بحيلة ، وانصرف بماله[14] .

فهذه القصة دلتنا على ما يتمتع به ابن جبير من رجاحة العقل وسماحة الْخُلُقِ والنبل والشهامة .

---

(١١) الامتنان ، لغة ، هو المنة وليس بمعنى الشكر ودخول السرور إلى الفؤاد ، كما اعتاد المعاصرون من الكتاب والشعراء التعبير به واستعماله فى كتاباتهم وشعرهم ، وهذا المعنى الصحيح هو الذى عبر عنه صاحب الملتمس وقصده فى هذا القول . فقد دلنا عن أن مقصده هو عدم إبراز المنة من قبل ابن جبير على صاحب الملتمس قوله عقب ذلك مباشرة : (ولا تصعيب) .

(١٢) المحفظة هى الصيغة العربية الفصحى لما نسميه فى بعض مدن الحجاز باسم الشنطة ، على أن أهل شمال المملكة كقصباء ، وحقل ، وتبوك . يسمونها (محفظة) على الاسم العربى الفصيح .

(١٣) كانت قيمة الدينار المؤمنية تساوى نصف قيمة الدينار المصرى فى عهد ابن جبير « راجع رحلة ابن جبير ص ١٧ ط دار صادر – دار بيروت ، ببيروت » .

(١٤) نفح الطيب ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ج ٤ .

القصة الثالثة : عن صاحب الملتمس أيضاً ، قال :

(وتذاكرنا يوماً معه - أى مع ابن جبير - حالة الزاهد أبى عمران المارتلى ، فقال : صَحِبْتُه مدةً فما رأيت مثله ، وأنشدنى شعرين مانَسيتهما ولا أنساهما ما استطعتُ . .

فالأول قوله :

إلى كم أقــولُ فلا أفعلُ	وكم ذا أحُومُ فلا أنزلُ
وأزجر عينى فلا ترعوى	وأنصح نفسى فلا تقبل
وكم ذا تَعَلَّلُ لى وَيْحَهَا	بِعَلَّ وسوف وكم تمطل
وكم ذا أؤمل طول البقـا	وأغفل والموت لا يغفل
وفى كلِ يوم يُنَادِى بنا	مُنادِى الرحيل : ألا فارحلوا
أمِنْ بعد سبعين أرجو البقا	وسبعٍ أتت بعدها تعجل ؟ !
كَأَنْ بِى وشيكاً إلى مصرعى	يُسَاقُ بنعشى ولا أمْهَلُ
فياليت شعرى بعد السؤالِ	وطُولِ المُقام لما أنْقَلُ ؟ ؟

والثانى قوله :

إسمع أُخَــــىَّ نصيحتى	والنصح من محض الديانه
لا تقربنَّ إلى الشهـادة	والوســـاطة والأمـــانه
تَسْلَمْ من ان تُعْزَى لزورٍ	أو فُضول أو خيانه [١٥]

وَهَمُ الدكتور حسين مؤنس :

هذا وقد وهم الدكتور حسين مؤنس فى تعليقه ، بهامش الصفحة (٢٢٤) من كتاب (الْحُلَّة السِّيَراء) للقضاعىّ ، إذ علق عليها بأن

---

(١٥) نفس المصدر السابق ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ج ٤

المقبوض عليه والمسجون فى سجن (مُطرْنَبِيش) هو الرحالة محمد بن أحمد بن جبير ، فإن الحقيقة الواضحة من نص كتاب الحلة السّيراء تنطق بأن المسجون هو والده أحمد بن جبير وليس هو .

٤ – ترجمة المقريزى :

يقول المقريزى :(محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير الداخل إلى الأندلس من ولد ضَمْرَةَ بن بكر بن عبد مناف بن كنانة – أبو الحسن – أبو الحسين – بن أبى جعفر الكنانى الأندلسىّ البلنسى . مولده ليلة السبت عاشر ربيع الأول سنة ٥٤٠هـ ببلنسية ، وقيل فى مولده غير ذلك ، وسمع من أبيه بشاطبة ، ومن أبى عبد الله الأَصِيلىّ ، وأبى الحسن بن أبى العيش ، وأخذ عنه القراءات ، وعُنِىَ بالآدَاب ، وبلغ الغاية فيه – فيها – وتقدم فى صناعة القريض وصناعة الكتابة ونال بها دُنْيا عريضة ، ثم رفضها وزهد فيها ، وحَدَّثَ بكتاب الشفاء عن أبى عبد الله محمد بن عيسى التميمى السّبتىّ عن القاضى عياض ، وتوجه إلى الحج ، ودخل بغداد والشام ، وسمع بهما ، وقدم مصر ، فسمع منه الحافظان : أبو محمد المنذرىّ ، وأبو الحسين يحيى بن على القرشى .

وتوفى بالإسكندرية فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من شعبان ٦١٤)[١٦] .

---

(١٦) راجع تاريخ المقريزى (تاريخ مصر الكبير المقفى) .

٥ ــ ترجمة جورجي زيدان :

ترجم لجورجي زيدان لابن جبير فى كتابه : (تاريخ آداب اللغة العربية) ترجمة موجزة ليس فيها شيء جديد بالنسبة لمن سبقوه إلى ترجمته ، وقد جاء فيها أن رحلته طُبعت للمرة الأُولى فى مدينة ليدن بهولندة سنة ١٩٠٧ م ، بنفقة لَجْنَةِ تذكار جيب ، ونُشِر فى صدرها ترجمةُ الرحالة ابن جبير نقلًا عن كِتَابي « الإحاطة فى أخبار غرناطة » و « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » وقال جورجى زيدان : إنَّ هذه الرحلة تُرجمت إلى اللغة الإيطالية ، وطبعت سنة ١٨٩٦ م ، وتُرْجِم القسم المختص منها بِصِقِلِّيَة إلى اللغة الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٨٤٦ م . وجاء فى كتاب جورجي زيدان ، أن كنية ابن جبير هى (أبو الحسن) بدلًا من أبي الحسين التي هى كنيته الصحيحة ، وقد وردت كنية (أبي الحسن) هذه فى عنوان ترجمته بنفح الطيب لِلْمَقَّرِيّ ، ولكنها صححت فى متن الكتاب بأبي الحسين ، فظهر أن ما بالعنوان ، ومثله ما بالفهرس ، كلاهما غلط مطبعي[17] . وكما قال جورجي زيدان بأن كنيته (أبو الحسن)

قال الدكتور حسنى محمود حسين فى كتيبه (أدب الرحلة) ص ٢٣ :

ولعل جورجي زيدان لمح ماورد من كنيته فى كتاب « نفح الطيب » فاكتفى به دون تمحيص[18] ومن ثَمَّ نَقَلَهُ عنه كما هو ، ولم يتأمل التصحيح المثبت فى متن الكتاب فيما بعد ، أو لعله غلط مطبعيٌّ لم يَحْظَ بالتصحيح ، وما أكثر الأغلاط المطبعية التي هي من هذا القبيل .

٦ ــ ترجمة خير الدين الزركلى :

ترجم خير الدين الزركلى فى كتابه « الأعلام » لابن جبير ، وجاءت

(١٧) راجع الصفحة ١٤٢ ج ٣ ، وص ٤٦٥ من «فهرس الموضوعات» ج ٣ طبع مصر .
(١٨) تاريخ آداب اللغة العربية الصفحة ٩٤ ، ٩٥ طبعة دار الهلال بمصر .

ترجمته له موجزة مركزة وقال : إنه توفى سنة ٦١٤ هـ وذكر قول القائل : إن الرحلة لم يُصَنِّفْ كِتابَها ابنُ جبير وإنما قَيَّد معانى ما تضمنته ، وتولى ترتيبها بعض الآخذين عنه.[١٩] (وقد فَنَّدْنَا هذا القول) . وذكر الزركلى بعض كتب ابن جبير ودواوينه[٢٠] .

٧ – ترجمة نقولا زيادة :

هذه الترجمة موسعة نوعاً ما ، وقد جاءت فى كتابه :(الجغرافيا والرحلات عند العرب) وقد استغرقت الترجمة نحو صفحتين ، من الصفحة ١٦٧ إلى الصفحة ١٦٨ وثلاثة أسطر من الصفحة ١٦٩ ، وأرخ فيها لوفاة ابن جبير كما أَرخ له سواه . وزاد عليهم ابنُ الخطيب فى (الإحاطة) : أن مكان وفاة ابن جبير ، الإسكندرية ، ووقتهـــا ليلة الأَربعاء ، (٢٩ شعبان ٦١٤ هـ)[٢١] . كتب نقولا زيادة تعريفاً دقيقاً لرحلة ابن جبير ولاحظ عليها أنها (ليس بها شيءٌ يدلنا على عدد السكان لأَيٍّ من البلدان التى زارها) . .

وهى ملاحظة فى محلها لولا أن الرحالين العرب القدامى لم يُعَوِّدُونَا القيامَ بهذه الإحصاءات البشرية ، لتعسرها عليهم إذ ذاك بسبب السرعة ، ومواصلة السير المرهق لهم فى رحلاتهم القائمة على الوسائل القديمة البطيئة .

وذكر نقولا زيادة أن الجزء الأَخير من الرحلة إلى صِقِلِّية كان وصفاً رائعاً لها ، وروى أخبارها بحيث أصبح هذا القسم مصدراً رئيسياً من مصادر تاريخ صقلية فى زمن وليم الثانى ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين فى الجزيرة بحكامها الأُروبيين .

---

(١٩) الأعلام لخير الدين الزركلى ج ٦ ص ٦١٤ الطبعة الثالثة .
(٢٠) نفس المصدر السابق .
(٢١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ص ٢٣٩ المجلد الثانى طبعة مصر .

وقد شاركه فى هذا الرأى المستشرقُ الروسيُّ كراتشكوفسكى فى كتابه (تاريخ الأدب الجغرافى العربىّ) . ومصدر ترجمة نقولا زيادة لابن جبير هو كتاب رحلته طبعة ليدن بهولندة أبريل ١٩٠٧ الصفحة ٣١٨ ـ ٣٢٠[٢٢] .

٨ ـ ترجمة كراتشكوفسكى :

من أوسع الترجمات الحديثة لابن جبير ترجمة المستشرق الروسىّ كراتشكوفسكى ، فقد أورد فيها من تاريخ حياته وحياة أُسرته ما أورده المؤرخون الذين سبقوه ولكنه أضاف أن اسم ابن جبير هو من الأسماء المحببة إلى أُسرته ، فقد حمله الكثيرون قبله[٢٣] . على أننا إذا راعينا الدقة فى التعبير فإنه ليبدو لنا جليًّا أن الاسم المحبب إلى أسرته هو (جُبَيْر) وذلك لأن « ابن جبير » هو مجموعة من صفة واسْمٍ ، مُضافٍ أولهما إلى الآخر ، وجبير هو الاسم الْعَلَمُ فقط ، وأشاد برحلته الأُولى إلى مكة حاجًّا ثم قال : « إنه قام برحلة ثانية إلى المشرق استغرقت عامين هما : ٥٨٥ هـ ـ ٥٨٧ هـ ـ ١١٨٩م ـ ١١٩١ م ولكن لم تحفظ لنا التفاصيل عنها . وأضاف قوله : (قد قام برحلة ثالثة للمشرق وهو شيخ كبير ، قد أحزنته وفاة زوجه فى سنة ٦٠١ هـ ـ ١٢٠٤ م ، ولم يرجع إلى الأندلس مرة أُخرى ، بل أمضى أكثر من عشرة أعوام متنقلاً بين مكة وبيت المقدس والقاهرة ، مشتغلاً بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية بالإسكندرية فى عام ٦١٤ هـ ـ ١٢١٧ م)[٢٤] .

وكان حديث كراتشكوفسكى عن رحلة ابن جبير الأُولَى ، ممتازاً . .

---

(٢٢) الجغرافية والرحلات عند العرب ـ لنقولا زيادة ص ١٦٨ و ١٦٩ .
(٢٣) تاريخ الأدب الجغرافى العربى تأليف كراتشكوفسكى الصفحة ٢٩٩ القسم الأول .
(٢٤) نفس المصدر السابق والصفحة .

قال : (إنه ترك لنا وصفها على هيئة « يوميات » فى كتاب منفرد ، وضعه بعد رجوعه حوالى عام ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م ، وأبدى رأيه فى أن عنوان الكتاب غير معروف له بالضبط ورجَّح أن يكون اسمه الأَصلىّ : (رحلة الكنَانىّ) وليس هذا الترجيح نابعاً من رأْيه فإنه قد تابع فيه صاحب كشف الظنون : حاجى خليفة .

وقد فَنَّدْنَا هذا الرأى فى موضع آخر من هذا الكتاب ، وقد أَحسن كراتشكوفسكى صُنْعاً فى وصف كتاب الرحلة الأُولى .. بأَنه يمثل أَهمية قصوى فى تصوير حياة ذلك العصر ، وهى تُقَدِّمُ وصفاً حيًّا لمصر ، والشام ، عندما بدأَت فيهما حركة التحرير الإِسلامية ضد الصليبيين بزعامة نور الدين وصلاح الدين . وقارنها بمذكرات الأَمير أُسامة بن منقذ ، مع الاختلاف الكبير بين الْمُؤَلِّفيْنِ فى المنهج وطريقة الْعَرْضِ . وأَشاد بقيمة الرحلة حيال تصويرها لحياة مُسْلِمى صِقلِّيَة . وجعل المهم فى رحلته أَمرين هما : وصفه لآثار العصور الوسطى الممتازة لصقلية ، ووصفه لبلاط النورمان ، وبخاصة أَن الْكُتَّابَ اللَّاتِينَ المعاصرين لم يتركوا شيئاً يُذكر عن ذلك البلاط ، وأَثنى على كِتَابِ الرحلة بأَنها من الناحية الفنية بلغت ذروة ما وصل إِليه نَمَطُ الرحلة فى الأَدب العربىّ ، ولكنه غمز وصفها المفصل لِلأَبْنِيَةِ بأَنه مُمِلٌّ للقارئ العادى ، مع أَن أُسلوبها فيه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير .

ومَثَّلَ لذلك بوصف ابن جبير لجمارك الإِسكندرية ، وللكارثة التى أَصابت سفينتهم على سواحل صقلية . وزعم أَنَّ عرضه العام يستهدف الصنعة والأَناقة ، ومُعَالَجَتُهُ للسجع فيها كثير من المهارة من دون أَن يبالغ فيها ، أَو يضطر القارئ إلى بذل الجهد فى تفهمه ، وذَكرَ أَنه يشحن كتاباته بالاقتباسات الأَدبية والإِشارات اللطيفة مما يستدعى

درجة مُعَيَّنَةً من الاطلاع والمعرفة ليكون مفهوماً للقارئ . وكان ختام بحثه عن كتاب رحلة ابن جبير قوله عنه : (وبعد فهذا مُصنف رفيع الأُسلوب ، يختتم بجدارة حلقة الجغرافيين الأَندلسيين لهذا العصر)[٢٥] .

وطبقاً لثنائه ، على كتاب رحلة ابن جبير أثنى على ابن جبير نفسه لأَنه يمتاز (بقوة ملاحظة نافذة) .. وهذه ملاحظة علمية حصيفة ، ووصف صادق يلمسه كلُّ ذى وَعْيٍ أَدبيّ وثقافى قرأَ رحلته بتبصر وإمعَان .

٩ ــ ترجمة عمر رضا كحالة :

وترجم عمر رضا كحالة لابن جبير فى كتابه : (معجم المؤلفين) ترجمة تشبه إلى حد كبير ترجمة خير الدين الزركلى له ، فى كتابه (الأَعلام) من حيث الإِيجازُ والإِلمامُ بمجمل حياته ومصنفاته فى أُسلوب بَرْقِيٍ خاطف يفيد الباحث المستعجل ، ولا يشبع نَهَم الباحث المتعمق[٢٦] .

١٠ ــ ترجمة عبد الرحمن حميدة :

وترجم له أَيضاً الدكتور عبد الرحمن حميدة . ولم أَجد فى ترجمته شيئاً جديداً بالنسبة لمترجميه المعاصرين أَو القدامى . ويبدو أَن تحريفاً مطبعياً أَو ذهنياً تسرب إلى اسم (القائد الذى قدم معه عبد السلام ابن جبير إلى الأَندلس) فقد سماه جميع مؤرخى ابن جبير باسم (بَلْج) إلا أَن الدكتور عبد الرحمن حميدة سماه باسم (بَلْخ) بالخاءِ المنقوطة فوق ، ويغلب على الظن أَنه تحريف مطبعى . وقد لخص المؤلف رحلة ابن

---

(٢٥) تاريخ الأدب الجغرافى العربى تأليف كراتشكوفسكى ، الترجمة العربية ص ٢٩٩ و ٣٠١ ، القسم الأول ، طبعة مصر .

(٢٦) معجم المؤلفين ص ٢٤٥ و ص ٢٤٦ ج ٨ طبع مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٥٩ م

جبير تلخيصاً مقتضباً جداً . ولم يأْت بشيء جديد . ويرجح أنه كتب كتاب رحلته سنة ٥٨٢ هـ ـ ١١٨٦ م[٢٧] .

وكان كراتشكوفسكى رجح أنه كتبها سنة ٥٨١ هـ ، ١١٨٥ م . ونحن نَجِدُ فى مُسْتَهَلِّ الرحلة أَنه « ابْتُدِئَ بتقييدها يوم الجمعة المُوفِى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمانين وخمسمائة على متن البحر بمقابلة جبل شُلَيْر . ونجد فى ختامها تسجيلًا للوقت الذى آب فيه ابن جبير من هذه الرحلة الأُولى إلى غرناطة . وذلك (هو يوم الخميس الثانى والعشرون لمحرم ٥٨١ هـ ـ الخامس والعشرون لأَبريل ١١٨٤ م) .

١١ ـ مصادر تراجم المؤرخين :

أَوردنا فيما سلف تراجم عشرة من المؤرخين القدامى والمحدثين لابن جبير ، وهؤلاء المؤرخون قد اطلعنا على مؤلفاتهم . ولاحظنا أَن متأَخرهم يأْخذ من متقدمهم ، وربما اقتبس بعضهم من معاصريه الذين ترجموا قبله لابن جبير . ومن بين المؤرخين القدامى لابن جبير ، صاحب كتاب الملتمس وهو معاصر له وصديق ، تحدث عنه ،وروى بعض قصصه عنه أَحمدُ بن محمد المَقَّرى (صاحبُ نفح الطيب) . وقد اعتاد خير الدين الزركلى وعمر رضا كحالة أَن يذكرا ـ فى ذيل تراجمهما لمن يترجمون له ـ أَسماء مصادرهما عنه ، وقد ذكرا هذه المصادر المتعلقة بسيرة ابن جبير المادية والثقافية والدينية والأَدبية فلمن شاءَ التوسع فى معرفة من ترجموا لابن جبير أَن يرجع إلى هذين الكتابين وإلى المترجمين غيرهم ممن عُنُوا بهذه الناحية .

---

(٢٧) أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم تأليف عبد الرحمن حميدة ص ٣٢٣ و ص ٣٢٥ طبع دار الفكر .

وتوجد فى فيض من الكتب نبذ موجزة من ترجمته أيضاً[٢٨] .

هذا ومما لاحظته أنه برغم تعدد ترجمات ابن جبير لم أجد ترجمة منها تصف لنا ملامِحَه وطُولَه وسحنته العامة . لا فى التراجم القديمة ولا الحديثة ولست أدرى من أين أخذت طبعة دار صادر وطبعة دار التراث ببيروت ملامح صورته المنشورة على غلافتيهما . ومما يثبت أنهما خياليتان وَضْعُهما واختلاف ملامِحِهما اختلافاً مترامياً .

(٢٨) وممن ترجموا له حديثاً الدكتور حسين نصار فى مقدمته لطبعة دار مصر لرحلة ابن جبير التى حققها وقام بنشرها ، والدكتور مصطفى زيادة فى محاضرته المنشورة التى ألقاها يوم ١٢ مايو سنة ١٩٣٩ م بدار مكتب التبادل الثقافى للمغرب بمصر ، والدكتور حسنى محمود حسين فى كتيبه « أدب الرحلة عند العرب » (المطبوع بمصر سنة ١٩٧٦) .

الفصل الثاني

مشايخه ومَن أُخذوا عَنه

مشايخه :

أحصينا من ذكر لنا التاريخ أنهم كانوا مشايخ ابن جبير ، ممن تلقى عنهم العلم والأدب ، واستجازهم فأجازوه ، فكان مجموعهم أربعة وعشرين شيخاً ، هذه أسماؤهم :

١ ـ أبوه أحمد بن جبير .

٢ ـ أبو الحسن بن محمد بن أبي العيش .

٣ ـ أبو عبد الله بن أحمد بن عروس .

٤ ـ أبو عبد الله الأصيليّ .

٥ ـ أبو الحجاج بن يسعون (أخذ عنه العربية) .

٦ ـ أبو عبد الله بن عيسى التميميّ السَّبْتِيّ (أخذ عنه بِسِبْتَةَ) .

٧ ـ أبو الوليد بن سبكة (أجاز له) .

٨ ـ إبراهيم بن إسحاق بن عبد الله الغسانيّ التونسيّ (نزيل مكة)

٩ ـ أبو حفص عمر بن عبد المجيد بن عمر القرشيّ الميانجيّ (نزيل مكة) .

١٠ ـ أبو جعفر أحمد بن عليّ القرطبيّ الفنكيّ .

١١ ـ أبو الحجاج يوسف بن أحمد بن عليّ بن إبراهيم بن محمد البغدادى .

١٢ ـ صدر الدين أبو محمد عبد اللطيف الحجريّ (رئيس الشافعية بأصبهان) .

١٣ ـ أبو الفرج ابن الجوزى ببغداد .

١٤ ـ أَبو الحسن أَحمد بن حمزة بن علىّ بن عبد الله بن عباس السَّلمى (بفتح السين) الجوارى بدمشق .

١٥ ـ أَبو سعيد عبد الله بن محمد بن أَبى عصرون .

١٦ ـ أَبو الطاهر بركات الخشوعىّ .

١٧ ـ عماد الدين أَبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الأَصبهانىّ (من أَئِمَّة الكتاب) .

١٨ ـ أَبو القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الأَخضر بن علىّ بن عساكر .

١٩ ـ أَبو الوليد إسماعيل بن علىّ بن إبراهيم .

٢٠ ـ الحسين بن هبة الله بن محفوظ بن نصر الربعىّ .

٢١ ـ عبد الرحمن بن إسماعيل بن أَبى سعيد الصوفىّ .

٢٢ ـ الصوفى أَبو البركات حيان بن عبد العزيز .

٢٣ ـ ابنه الحاذى حذوه[١] ـ أَى ابن أَبى البركات حيان بن عبد العزيز .

٢٤ ـ الصدر الخُجَنْدِى الذى طلب منه الإجازة (شعراً) فأَجازه شعراً[٢] وسيأْتى ذلك فى محله من هذا الكتاب ، إن شاءَ الله . وكان ابن جبير لقيه فى بغداد ووصفه بأَنه رئيس الشافعية وفقيه المدرسة النظامية وسيد العلماءِ الخراسانية[٣] .

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ص ٢٣٣ المجلد الثانى .

(٢) راجع نفح الطيب ص ١٤٢ و ١٤٣ ج ٣ . الخجندى هذا هو محمد بن عبد اللطيف الخجندى الذى كان أبوه وجده من رؤساء المذهب الشافعى بأصبهان . وقد استوطن بغداد وأنعم عليه الخليفة بما لم ينعم به على أحد من أمثاله . وولى النظر فى أوقاف النظامية ومات سنة ٥٧٢ ﻫ (حسين نصار فى هامش ص ١٨٥ من طبعة كتاب رحلة ابن جبير التى حققها) .

(٣) راجع رحلة ابن جبير ص ٢٠٦ ط حسين نصار .

وربما كان عدد مشايخه أكثر من هؤلاء بالنظر لكثرة سياحاته، مع اهتمامه بأخذ العلم والأدب عن أهلهما المنتشرين يومئذ فى أنحاء العالم العربىّ والإسلامىّ شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً.

من أخذوا عنه :

وكما أخذ ابن جبير، العلم والأدب عن كثيرين، فقد أخذهما عنه الكثيرون، والذى بلغ عِلْمَنَا منهم حتى الآن واحد وعشرون هم :

١ ـ أبو اسحاق بن مهيب.

٢ ـ ابن الواعظ.

٣ ـ أبو تمام بن إسماعيل.

٤ ـ أبو الحسن بن نصر بن فاتح بن عبد الله البجائىّ.

٥ ـ أبو الحسن بن على الشادى (وردت هكذا «الشارى» بالراء المهملة فى مقدمة رحلة ابن جبير بتحقيق حسين نصار صفحة ط).

٦ ـ أبو سليمان بن حوط الله.

٧ ـ أبو زكريا.

٨ ـ أبو بكر يحيي بن محمد بن أبى الغصن.

٩ ـ أبو عبد الله بن حسن بن مجير.

١٠ ـ أبو العباس بن عبد المؤمن البَنَّانى.

١١ ـ أبو محمد بن حسن اللواتى.

١٢ ـ ابن تامتيت.

١٣ ـ ابن محمد المورورى.

١٤ ـ أبو عمر بن سالم.

١٥ ـ عثمان ن سفيان بن أشقر التميمى التونُسِى.

١٦ ـ رشيد الدين أبو محمد عبد الكريم بن عطا الله (أخذ عنه بالإسكندرية) .

١٧ ـ رشيد الدين ابن العطار (أخذ عنه بمصر) .

١٨ ـ فخر القضاة ابن الجياب .

١٩ ـ ابنه جمال القضاة[٤] .

٢٠ ـ الحافظ أبو محمد المنذرىّ (سمع منه بمصر) .

٢١ ـ الحافظ أبو الحسين يحيي بن على القرشي (سمع منه بمصر) .

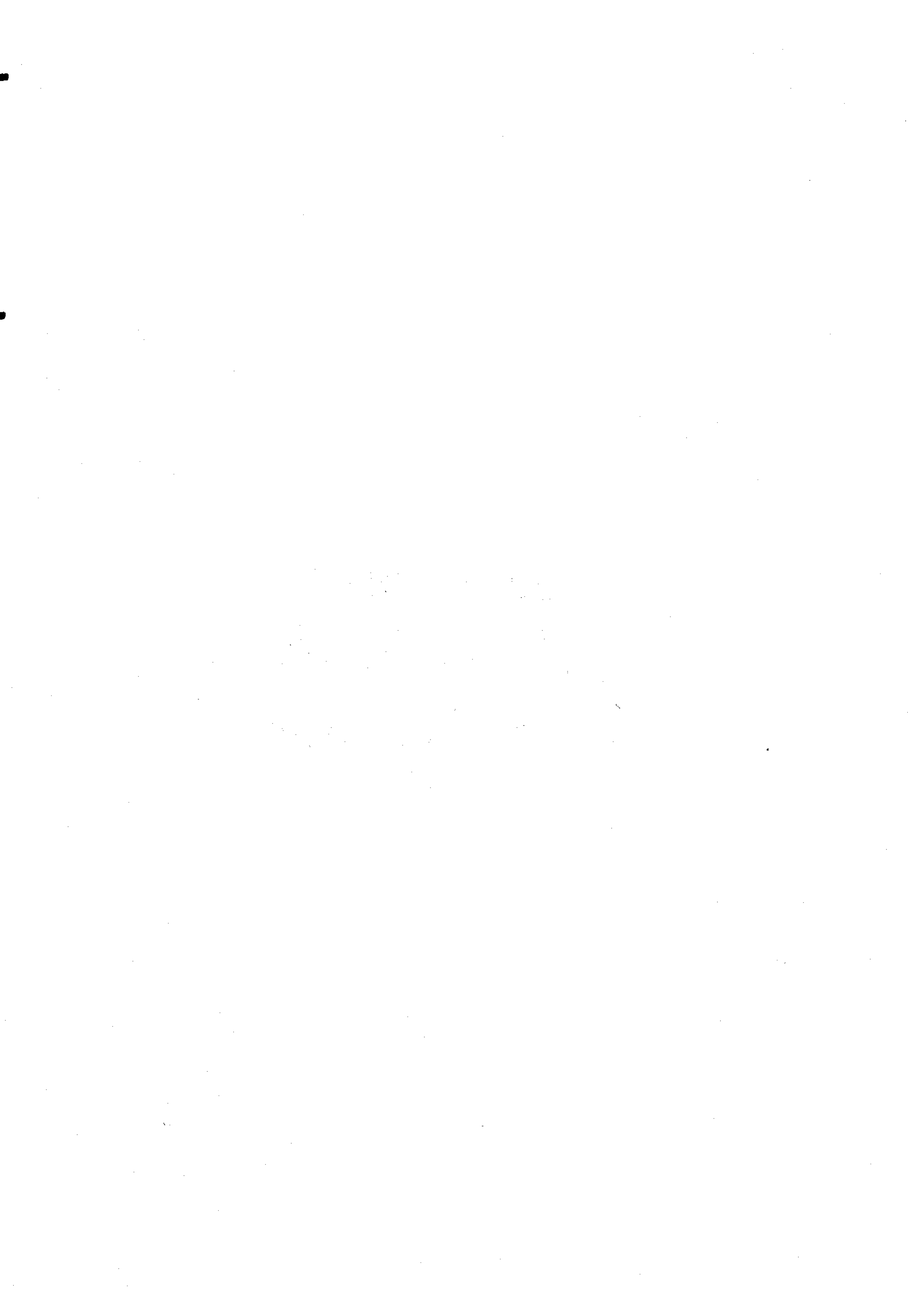
وربما كان جملة من أخذوا العلم والأدب عن ابن جبير أكثر من هذا العدد لما اشتهر به فيهما ولأنه تجول فى كثير من الأقطار الإسلامية ، وأقام ببعضها مدة تطول أو تقصر .

هذا وإن أبا الحسن بن على الشادى الذى تحدث بأن (رحلة ابن جبير ليست من تصانيفه ، وإنما قَيَّدَ معانى ما تضمنته فتولى ترتيبَها وتنفيذَ معانيها بعضُ الآخذين عنه على ما تلقاه منه) ـ إن أبا الحسن الشادى هذا هو ممن أخذوا عن ابن جبير على ما جاءَ فى كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة وأوردناه آنفاً فى هذا الفصل .

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة ، ص ٢٣٤ المجلد الثانى .

الفصل الثالث

رحلاته إلى المشرق ورفقاؤه في رحلته



رحلاته إلى المشرق :

هُنَّ ثلاثُ رحلات قام بهنَّ الرحالةُ محمد بن جبير ، مبتدئاً من بلده غرناطة بالأندلس إلى المشرق ، وقد بدأ رحلته الأُولَى فى يوم الخميس ثامن شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ - ٣ فبراير ١١٨٢ م وقد استمرت رحلته هذه فى ذهابه وإيابه حتى يوم الخميس ٢٢ المحرم سنة ٥٨١ هـ - ٢٥ أبريل ١١٨٥ م حيث آب فى ذلك اليوم إلى منزله بغرناطة . وهكذا استغرقت رحلته هذه عامين كاملين وثلاثة أشهر ونصف شهر . وفى هذه الرحلة الأُولى أَدَّى فريضة الحج .

وبعدها قام برحلته الثانية التى أَجمل سَبَبَها لسانُ الدين بنُ الخطيب فى قوله : (ولما شاع الخبر الْمُبْهِجُ بفتح بيت المقدس على يد السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أَيوب بن شادى - قَوِىَ عزمه (أى عزم محمد بن جبير) على عمل الرحلة الثانية فتحرك إليها من غرناطة يوم الخميس لتسع خلون من ربيع الأَول من سنة ٥٨٥ هـ ثم آب إلى غرناطة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان ٥٨٧ هـ وسكن غرناطة ثم مالقة ثم سِبْتَةَ ثم فاس ، منقطعاً إلى إسماع الحديث وتَرْوِيَةِ ما عنده[(١)] . وفى هذه الرحلة الثانية قام بأَداء الحج أَيضاً .

ومما يستدعى الانتباه أَن كلتا رحلتيه الأُولى والثانية كانتا بيوم الخميس ذهاباً وإياباً .

أَما رحلته الثالثة فقد بدأَها من سبتة بعد وفاة زوجه عاتكة

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة الصفحة ٢٣٢ ، المجلد ٢ ، طبعة الشركة المصرية للطباعة والنشر بالقاهرة .

أمِّ المجد بنت الوزير أبي جعفر الوقشيّ، وكان ابن جبير كَلِفاً بها، فَعَظُمَ وَجْدُهُ عليها، وقد وصل إلى مكة، وحج حجته الثالثة وجاور بها أمداً طَوِيلًا ثم ذهب إلى بيت المقدس ثم تَجَوَّلَ بمصر والإسكندرية، فأقام بها يحدث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربه فيها، ليلة الأربعاء ٢٩ شعبان سنة ٦١٤ هـ[٢]. ولا ريب فى أن أهم رحلاته هى الرحلة الأُولى، وهى التى فتحت له طريق القيام بالرحلتين الأُخْرَيَيْنِ اللَّتين حج فيهما أيضاً. ويبدو أنه عقب عودته من رحلته الأُولى صنف كتاب رحلته المعروف، وكانت هذه الرحلة الأُولى فى سِنٍّ مبكرة من عمره، ويبدو أنه دَوَّنَها أولًا فى (يوميات) كان يكتبها كل يوم خلال رحلته الأُولى، كلما وجد إلى ذلك سبيلًا. والرحلتان الأُخْرَيَانِ لم نقف على مُفَصَّلٍ لما قام به أو شاهده فيهما. ولعل سبب ذلك يعود إلى ما أشار إليه كتاب الإحاطة من اهتمامه المتجه إلى الحديث والتصوف وتَرْوِيَةِ ما عنده منهما، مما لم يَدَعْ له مجالا لتدوين مَشَاهِدِ الرحلتين الأُخْرَيَيْن إلى أن لقى ربه بالإسكندرية ناشراً لدين الله جل وعلا على أوسع نطاق تسنى له.

عود إلى حديث رفقائه فى رحلته الأولى :

سبق لنا أن ذكرنا نقلًا عن بعض مؤرخيه قولهم : إنه قد رافقه فى رحلته الأُولى صديقان : (أبو جعفر أحمد بن حسان القضاعى) وجده لأُمِّه القاضى (أبو محمد عبد الحق بن عطية). وأحمد بن حسان قد أورد اسمه فى كتاب رحلته أربع مرات، ونلاحظ أنه كان يَحْظى من ابن جبير بمكانة طيبة، ولذلك قدم اسمه على اسمه فى مستهل كتاب رحلته، إذ يقول : (وكان انفصال أحمد بن حَسَّان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله لِلنِّيَّةِ الحجازية المباركة قَرنها الله بالتيسير

---

(٢) المصدر السابق الصفحة ٢٣٢ – ٢٣٩ المجلد ٢ .

والتسهيل ، وتعريف الصنع الجميل ـ أول ساعة من يوم الخميس الثامن فى شوال المذكور[٣] .

تلك هى المرة الأُولى التى ورد فيها اسم أحمد بن حسان برحلة ابن جبير ، والمرة الثانية حينما تعرض أحمد بن حسان هذا لتحقيق مفتشى ميناء الإسكندرية (الصَّلاَحِيِّين) عندما قدم هو وابن جبير ، إليها من الأندلس بحراً ، والمرتان الأَخيرتان كانتا لمناسبة مشهد رآه أحمد بن حسان وهو فى داخل المسجد الحرام[٤] .

وكان أبو جعفر أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن[٥] القضاعى من اندة، من بلنسية ، وقد أدّى فريضة الحج مع ابن جبير وسمعا بدمشق من أبى الطاهر الخشوعى ، وأجاز لهما أبو محمد ابن أبى عصرون ، وأبو محمد القاسم بن عساكر وغيرهما ، ودخلا بغداد معاً وتَجَوَّلَا فيها مُدة ، ثم قفلا جميعاً إلى المغرب فسُمِعَ منهما به بعضُ ما كان عندهما .

وكان أبو جعفر هذا من أطباء الأندلس ، وله فى الطب (تقييد) مع المشاركة الكاملة فى فنون العلم[٦] وقد اتفق كل من كتابى (الإحاطة) و (نفح الطيب) على أن أحمد بن حسّان ، أو ابن الحسن القضاعى كان وحده رفيق ابن جبير فى رحلته الأُولى صوب المشرق ، وفى العودة منه إلى صقلية فغرناطة . ولكن نقولا زيادة ذكر فى كتابه (الجغرافيا والرحلات عند العرب) أن ابن جبير لم يكن وحيداً فى رحلته هذه

(٣) رحلة ابن جبير الصفحة ١٣ طبعة دار صادر بيروت .

(٤) ورد تفصيل هذا المشهد فى الصفحتين ١٢٠ – ١٢١ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر بيروت .

(٥) هكذا ورد اسم والد أبى جعفر : أحمد بن حسان القضاعى ، واسم جده الثانى بصيغة « الحسن » فى كتاب نفح الطيب بالصفحة ١٤٣ جزء ٣ .

(٦) الإحاطة فى أخبار غرناطة بالصفحة ٢٣١ ، ويلاحظ أن الإحاطة سمت والده حسان (لا حسنا) كما سمى فى (نفح الطيب) .

(أي الأُولَى) فقد رافقه جَدُّه لأُمه القاضي ابن عطية وأَبو جعفر الطبيب[٧].

وأَبو جعفر الطبيب هو أَبو جعفر ابن حسان السابق ذكره فقد كان طبيباً.

واسم ابن عطية الكامل هو القاضي أَبو محمد عبدالحق بن عطية[٨].

إن الْمَقَّرِيَّ ينص على قوله: (وجده لأُمه القاضي أَبو محمد عبدالحق بن عطية) ولكن بعد أَن قال: (وكتب عن السيد أَبي سعيد ابن عبدالمؤمن) وأَردفه بقوله: (وجَدُّه لأُمه القاضي أَبي محمد عبدالحق ابن عطية) ونحن نعلم أَن القاعدة النحوية تقرر أَن ضمير الغائب يعود لأَقرب مذكور. وأَقرب مذكور هنا بالنسبة للضمير الموجود المثبت فى كلمة: (جده) – هو السيد أَبو سعيد ابن عبد المؤمن أَو أَبو جعفر أَو ابن حسان، وإذن فهذا الضمير غير عائد مطلقاً إلى ابن جبير، فابن عطية ليس جده لأُمه على ما يبدو، وإنما هو إما جد أَبي سعيد، أَو جد أَحمد بن حسان. ويبدو من سياق كلام (نفح الطيب) أَن جملة: (وجده لأُمه القاضي أَبو محمد بن عطية) أَوردها ضمن دائرة إيراده لبعض ذوى العلاقة، بأَحمد بن حسان أَو أَبي سعيد من باب الاستطراد. وإذا كان الأَمر كذلك فقد كان ما فهمه نقولا زيادة وأَورده من مرافقة عبدالحق بن عطية لابن جبير، وأَنه جده لأُمه هو فَهْمٌ قد يجانبه الصواب، من كلتا الناحيتين.

وكان المستشرق كراتشكوفسكى دقيقاً حينما حصر مرافقة ابن جبير فى رحلته الأُولى على أَحد الأَطباء الذى هو أَبو جعفر أَحمد بن حسان أَو ابن الحسن[٩]. ومِثْلَ صنيعه صنع عبد الرحمن حميدة، فلم يذكر من رفقاء ابن جبير فى الرحلة، القاضي أَبا محمد عبدالحق بن عطية، بل قصر هذه الرفقة على صديقه أَحمد بن حسان من رجال الطب والعلم والأَدب[١٠].

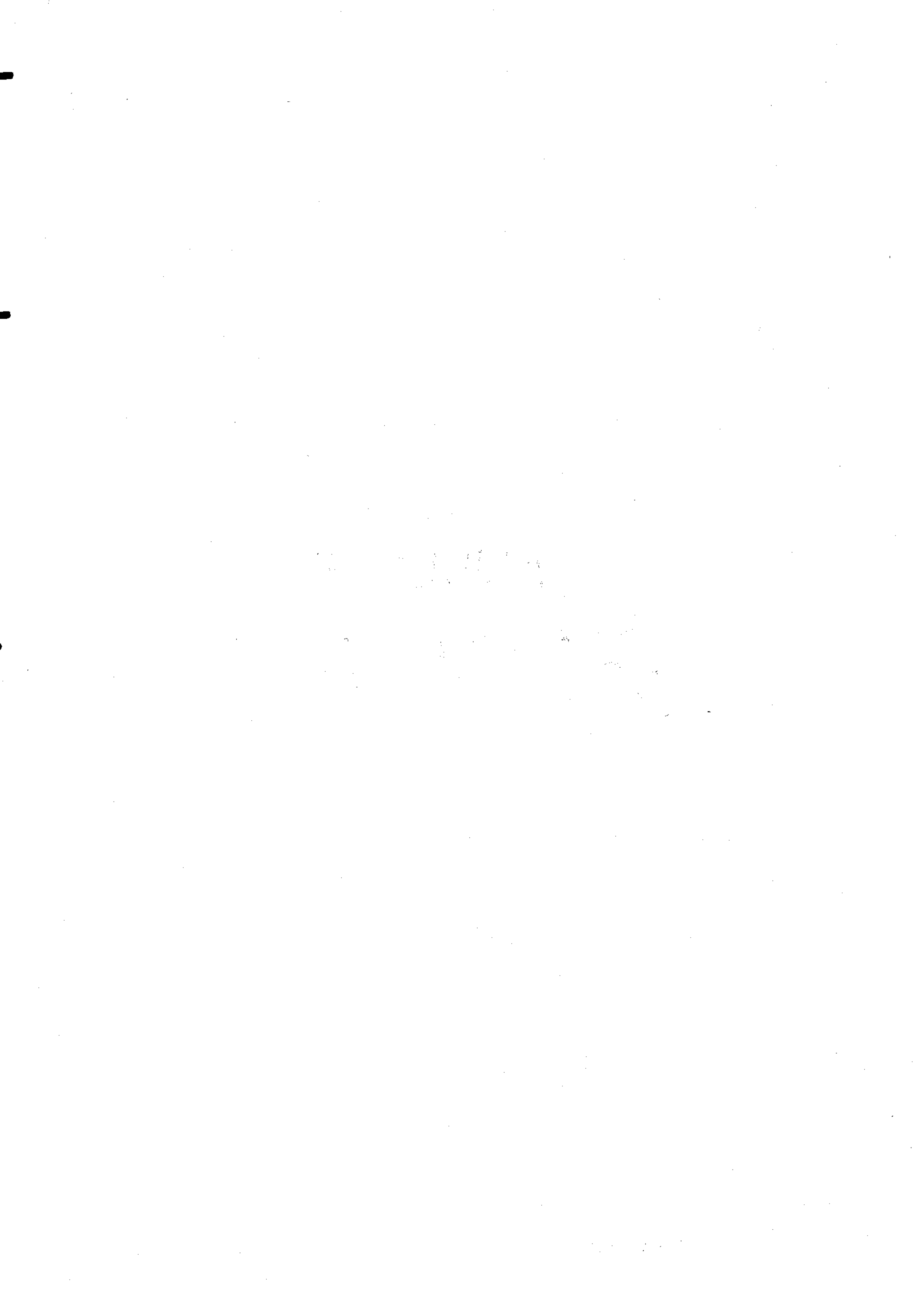
(٧) الجغرافيا والرحلات عند العرب، صفحة ١٦٨ طبع دار الكتاب اللبنانى ببيروت.

(٨) نفح الطيب بالصفحة ١٤٣ جزء ٣.

(٩) كتاب تاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى الصفحة ٢٩٩ القسم الأول.

(١٠) كتاب أعلام الجغرافيين العرب لعبد الرحمن حميدة بالصفحة ٣٢٣.

الفصل الرابع
مؤلفاته ودواوين شعره



مؤلفاته :

فى طليعة مؤلفات ابن جبير كتابُ رحلته الذى سار ذكره شرقاً وغرباً . وقد أسلفنا قول تلميذه أبى الحسن الشادى : إن كتاب رحلته ليس من تصانيفه ، وإنما ألفه غيره بإشارة منه وتوجيه ، وقد عقدنا فصلًا خاصًا بتحقيق نسبة الكتاب إليه ، أثبتنا فيه أنه من مؤلفاته .

دواوينه الشعرية :

ذكر مؤرخوه أن له دواوينَ شعر منها : (مجلد متوسط) على قدر ديوان أبى تَمَّام ، و (نَتِيجَةُ وجْدِ الجوانح فى تـأْبين القرين الصالح) ويعنى بالقرين الصالح ، زَوْجَهُ أُمَّ المجد ، و (نظم الجمان فى التشكى من إخوان الزمان) . ولم نطلع على أى ديوان من هذه الدواوين الثلاثة ، ومع ذلك فإن ما اطلعنا عليه فى كتابى الإحاطة ونفح الطيب من شعره [1] يدلنا على مدى تدفق شاعريته وفحولته .. فهو فى الأدب مزدوج الإنتاج : نثره بديع فى مستوى عال لفظاً ومعنى ، وشعره فى منزلة رفيعة من الشعر العربى الرصين أهدافاً ومَبْنًى .

ومن المعلوم فى علم البيان أن أولئك الذين يُمْنَحُون موهبة السُّمُوِّ فى أجواءِ الشعر والنثر معاً ، هم قلة نوادر ، ولا يَتَـأَتَّى ذلك الْجَمْعُ إلا للموهوبين القلائل الأفذاذ ..

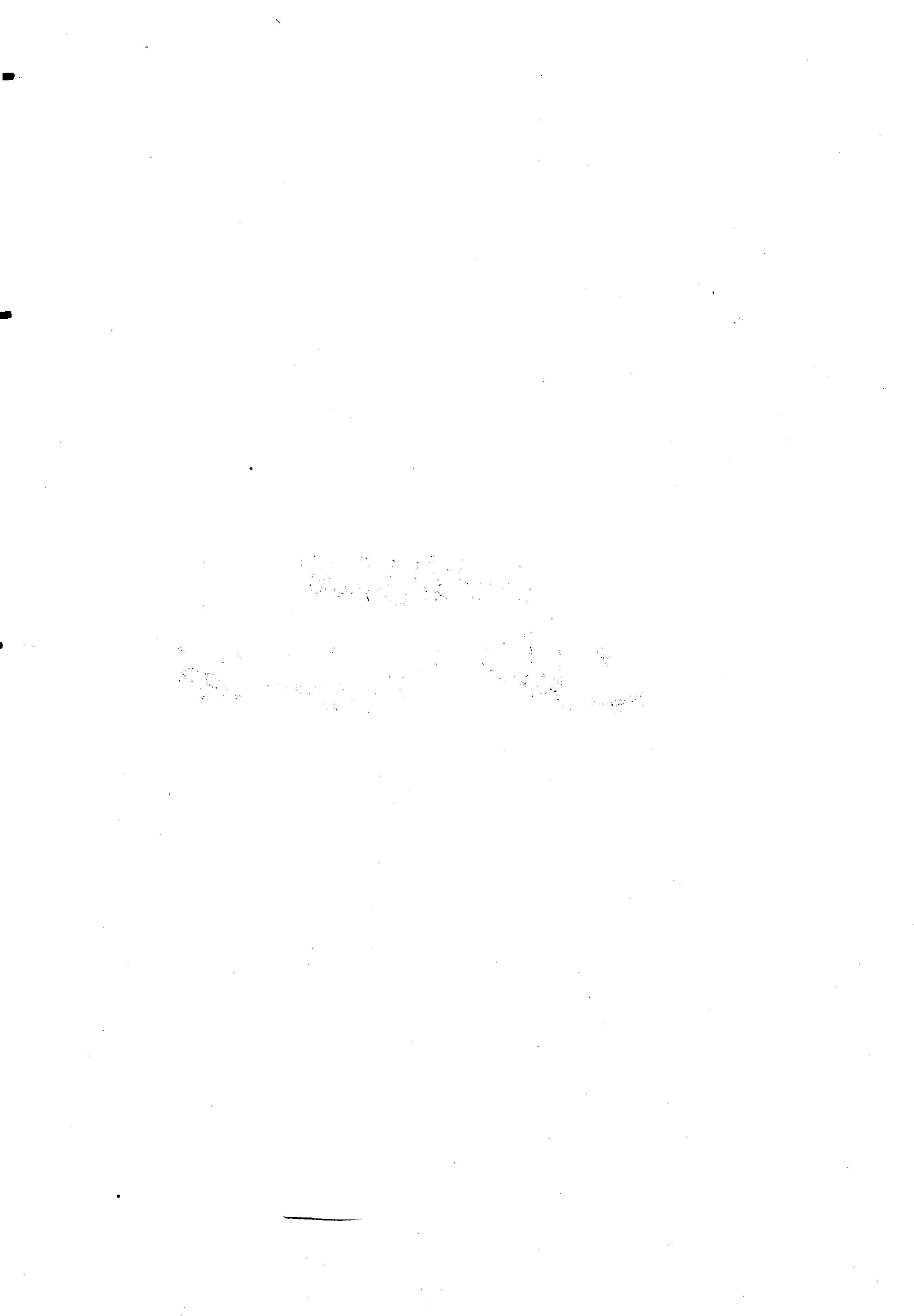
---

(١) وردت قصيدته الرائية المسهبة فى رحلة العبدرى المطبوعة أخيراً بالمغرب العربى وردت فى هذه الرحلة بكاملها ، وهى تدل على مدى علو كعبه فى الشعر وفيضان قريحته بالشعر الجميل . ومطلع هذه القصيدة التى وجه النصح فيها إلى صلاح الدين ، وهو من هو :

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر

الفصل الخامس

خط سير رحلته ومخططه



بدأ ابن جبير رحلته الأُولى من بلده « غَرناطة » بالأَندلس ، ومنها سار إلى جزيرة طَرِيف ، فعَبَرَ البحرَ إلى مدينة سِبْتَةَ ، وسارت سفينتُه صَوْبَ الإسكندرية فى رحلة بَحْرِيَّةٍ محفوفةٍ بمخاطرِ البحر وأَهواله الممثلة فى ثورة أَنوائه وعواصفه . ومضت به السفينة من سِبْتَةَ عبر بحر الزُّقَاق محاذية شاطىء الأَندلس ، إلى ثغر دَانِيَةَ ، ومن ثَمّ اتجهت غرباً ، فمرت بجزائر مَيُورَقَة ومَنُورَقَة وسَرْدَانِيَة ، ونزل على شاطِئِهَا فى موضع يقول الدكتور محمد مصطفى زيادة : إن ابن جبير لم يذكره [١] .
والنصوص التى سنوردها لك فيما يلى تؤيد ذلك القول ضمناً لا نصاً وصراحة . .

قال ابن جبير :

« وقام معنا بَرُّ جزيرة سَرْدَانِيَة أولَ ليلةِ الثلاثاء الحادى عشر من الشهر المذكور ، وهو الثامن من مارس ،دُفعة واحدة على نحو ميل أو أقل » [٢] — « وطرأ علينا من مقابلة البر فى الليل هول عظيم ..... فبقينا مترددين بسببه — أىْ بسبب هول العاصفة — حول بَرِّ سردانية إلى يوم الأَربعاءِ بعده ، فأَطلع اللهُ علينا ، فى حال الوحشةِ وانغلاق الجهات ، بالنَّوْءِ فلا نُمَيِّزُ شرقاً من غربٍ — مركباً للروم قَصَدَنَا إلى أَن حَاذَانَا ..... فأَخذنا عند ذلك فى اتباع أَثره .... فخرج علينا طرف من بَرِّ سَردانية المذكور فأَخذنا فى الرجوع عوداً على بدءٍ إلى أَن وصلنا طرفا من البَرِّ المذكور، يعرف « بقوسموكه » وهو مرسى معروف عندهم ، فأَرسينا به ظهر يوم

---

(١) محاضرته المنشورة : ص ٥ .
(٢) رحلة ابن جبير : ص ٨ طبعة دار صادر .

الأَربعاءِ المذكور »[٣] . ثم حاذت بهم السفينة بَرَّ جزيرة صقلية ، وظهر لهم بَرُّها ، ثم اتجهت بهم غَرْباً حتى حَاذَتْ بر أَقريطِش ، تقديراً لا عياناً . . وأخيراً أرست بهم على ميناء الإسكندرية فى يوم ٢٩ من ذى القعدة ٥٧٩ هـ (٢١ مارس سنة ١١٨٣ م) بعد سفر مرهق — دام ثلاثين يوما فى عَرْض البحر .

ومن الإسكندرية مضى قُدُماً على مَتْنِ نهر النيل قاصداً مصر والقاهرة ، ثم رحل من القاهرة قاصداً مدينة قوص على ظهر نهر النيل أيضًا فوصل إليها ، مارًّا بعدة مدن فى الصعيد ، وسار من قوص بَرًّا على الطريق التجارية الصحراوية المعروفة حتى بلغ عَيْذَاب الواقعة على شاطئ بحر القُلْزُم — (البحر الأحمر) . ومن عَيْذاب رَكِبَ ذلك البحر صَوْبَ جُدَّةَ . وبعد أهوال جابهتهم من العواصف والأَمواج والأَنواءِ ، وصل إلى مُرْسَى أَبْحُر الآمن القريب من مدينة جُدَّة ، ومنه سار بحراً حتى كان فى جُدة .

ورحل من جُدة إلى مكةَ على قافلةِ جِمَالٍ ، وأَقام أَطول إقامة برحلته فى مكة حتى أدى فريضة الحج . . ثم ذهب إلى المدينة . ومكثَ فيها بضعة أيامٍ . واتَّجهَ منها إلى بغدادَ عن طريق شَمال نجد[٤] . ثم دخل بغدادَ عاصمةَ الخلافةِ العباسية ، وبعد أيام قضاها فيها سافر إلى الموصل

---

(٣) نفس المصدر السابق : ص ٩ .

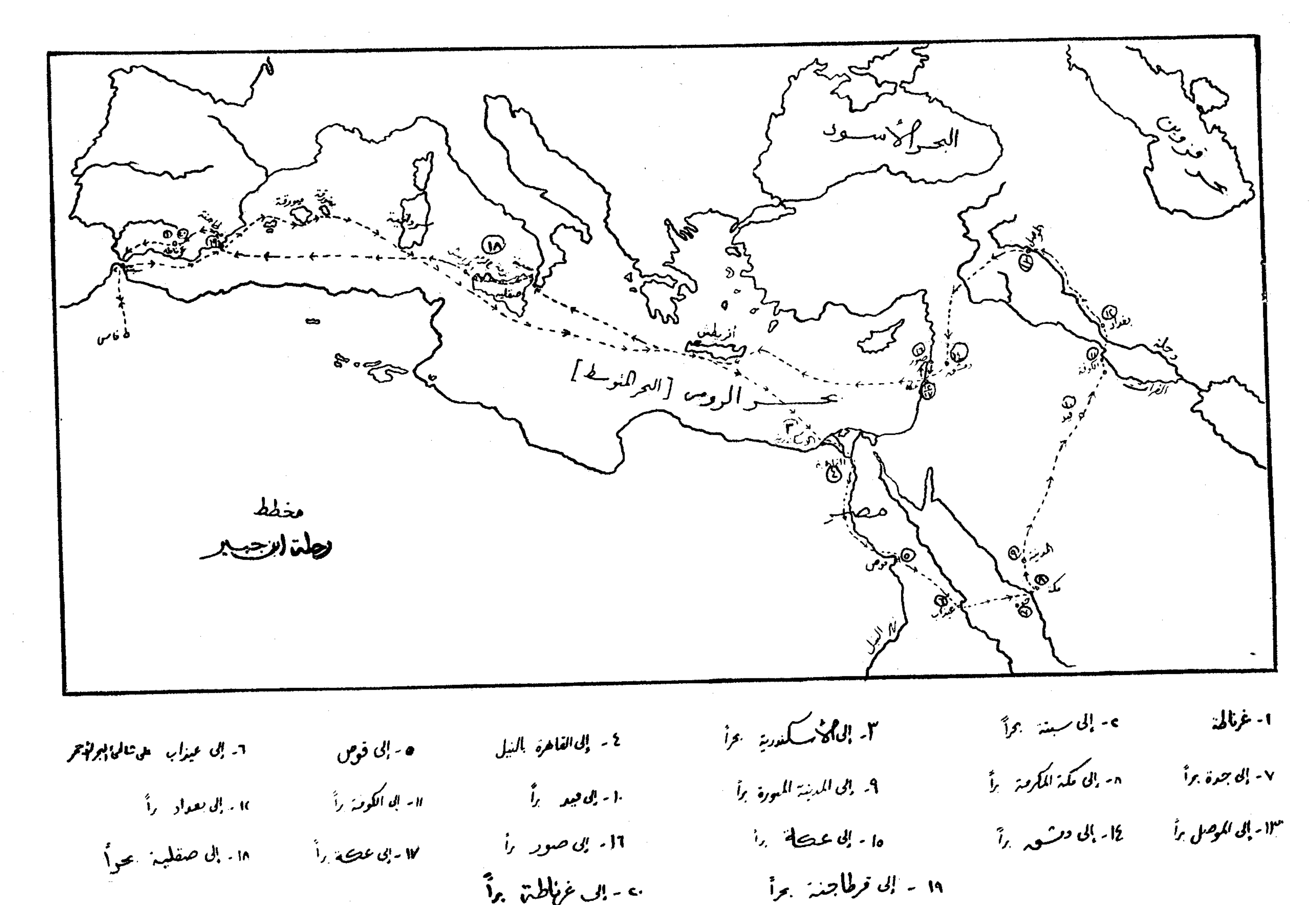
(٤) يقول المستشرق كراتشكوفسكي وهو يتحدث عن خط رحلة ابن جبير : (ثم مر بالمدينة فى طريقه إلى الكوفة) . ويبدو أن قوله هذا لا يخلو من دس مسمم للأفكار ، فالذى يفهم من هذه العبارة أن دخول ابن جبير ، للمدينة كان عابراً وليس مقصوداً لذاته ، وليس له هدف دينى ما ، فقد مر بالمدينة فى طريقه إلى الكوفة على حد قوله ، فالمدينة وسيلة ، والكوفة غاية . وليس الأمر كذلك ، فسفر ابن جبير إلى المدينة كان مقصوداً لذاته ، لأنه كان يريد أن يصلى بالمسجد النبوى ، وأن يسلم على النبى المختار صلوات الله وسلامه عليه ، ويشاهد بعينيه تلك الأماكن المطهرة التى ظهر منها نور الإسلام فعم الخافقين . وعجيب أن يقول كراتشكوفسكى بعد تلك العبارة : (وزار بغداد) . .

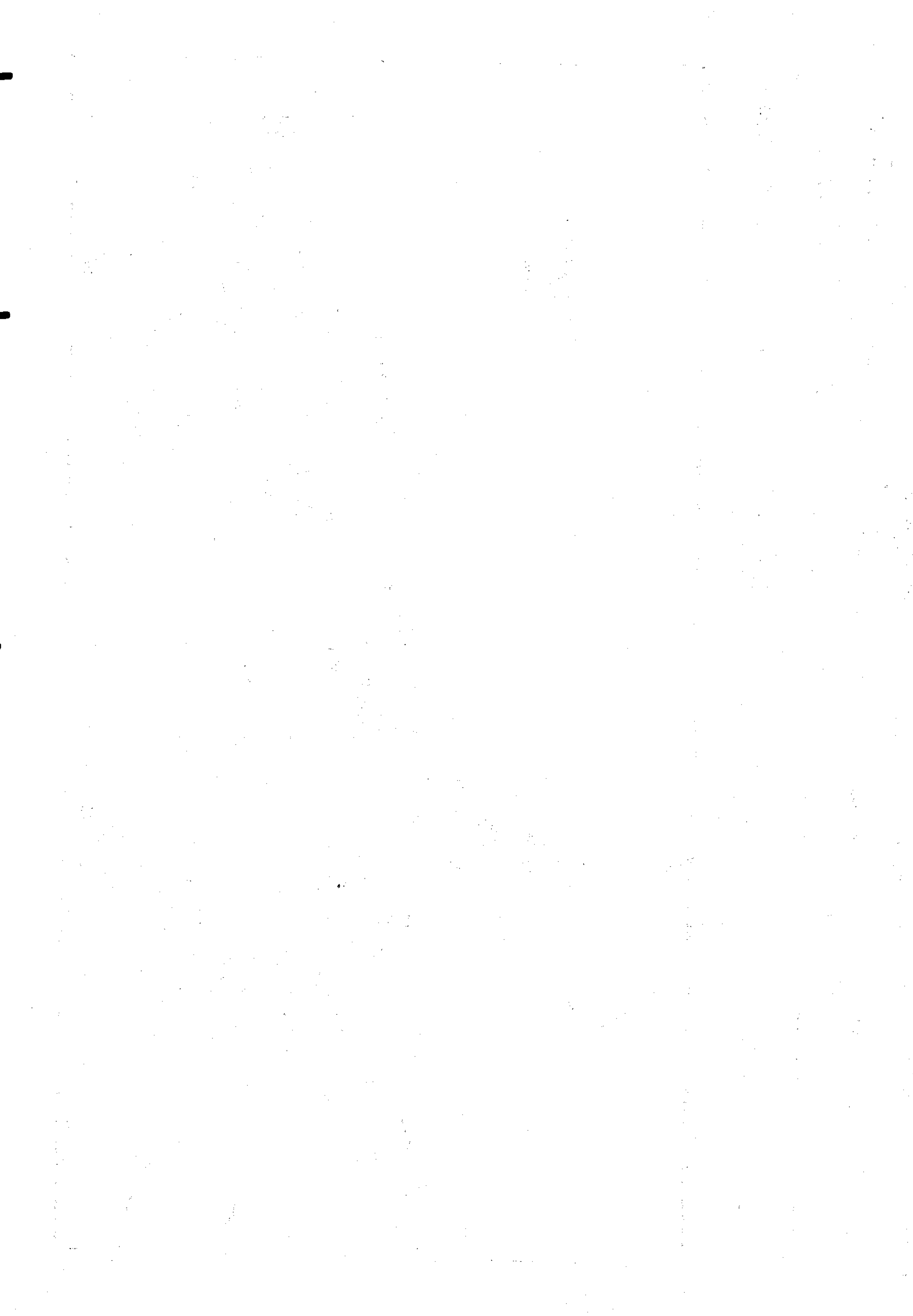
فالمدينة ممر فى نظره المنحرف ، وبغداد فى رأيه المعوج مقر ، ومزار .

فديارِ الشام بَرًّا . وحَلَّ بدمشقَ ، وتوجه منها إلى عَكَّةَ فصُورَ حيث بَلَغَهُ نبأٌ يقول بوجودِ مركبٍ سَيُقْلِعُ إلى بجايةَ . فلما وَجَدَه صغيراً عاف ركوبَه وعادَ إلى عَكة التى تحصل فيها على سفينة جَنَوِيَّةٍ كبيرةٍ . فأَخذ مَحَلَّه فيها بالأُجرةِ المتفقِ عليها إذْ هى تَقْصِدُ جزيرة صِقلية . وطالت رحلتُه البحريةُ هذه حتى خرجت عن المعتاد بسببِ معاكسةِ الريح وتكاثرِ الأَمواجِ والعواصفِ البحرية وبعد لَأْيٍ دخل مَسِّينَةَ . وزار معظم مدن جزيرة صقلية : مدينة مسينة التى أَرست بها سفينتهم . وبَالِرْمَة . وشفلون. وثرمة .وعلقمة . وحصن. والحَمَّة . وأَطْرَابِنشَ ، التى أقلع منها بمركب بحرىّ أَجنبى إلى الأَندلس فوصل قَرطاجنَّة فمُرْسية . فَلِبْرَالَةَ . فَلُورَقَة . فالمنصورة . فَقَالِشَ . ثم وصل غَرْنَاطَةَ . ودخل منزله بها يوم ٢٢ المحرم ٥٨١ هـ - (٢٥ أبريل ١١٨٤) م .

ذلك هو خط سير ابن جبير فى رحلته الأُولى ذهاباً من وطنه صوب المشرق ، وإياباً إليه من المشرق .

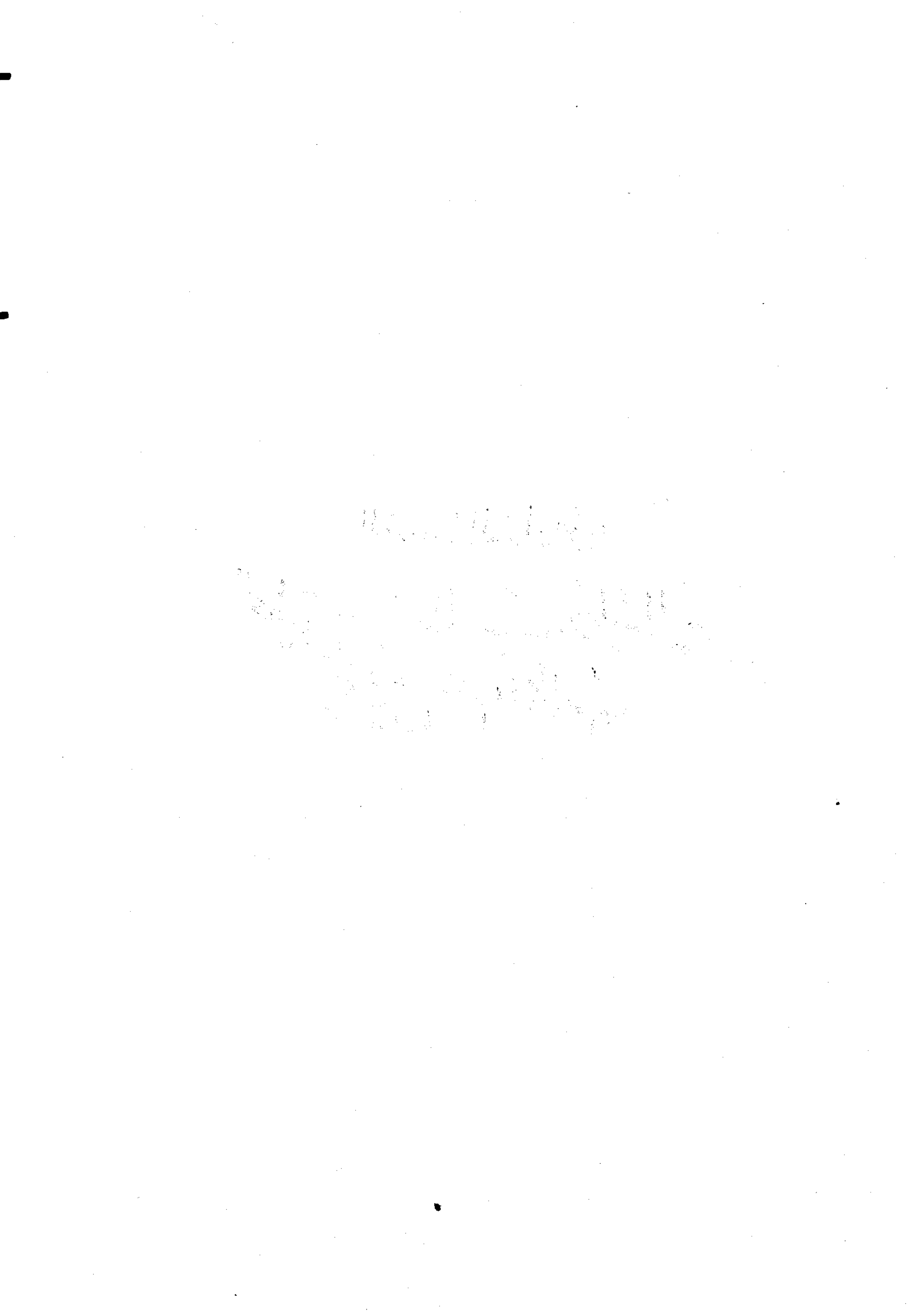
وفيما يلى مخطط تلك المسيرة .


مخطط
رحلة ابن جبير
البحر الأسود
بحر قزوين
بحر الروم [البحر المتوسط]
مصر
النيل
دجلة
الفرات
فاس
أقريطش
صقلية
ميورقة
قوص
عيذاب
جدة
مكة
المدينة
فيد
الكوفة
بغداد
الموصل
دمشق
صور
عكة
١- غرناطة
٢- إلى سبتة براً
٣- إلى الاسكندرية بحراً
٤- إلى القاهرة بالنيل
٥- إلى قوص
٦- إلى عيذاب على شاطئ البحر الأحمر
٧- إلى جدة بحراً
٨- إلى مكة المكرمة براً
٩- إلى المدينة المنورة براً
١٠- إلى فيد براً
١١- إلى الكوفة براً
١٢- إلى بغداد براً
١٣- إلى الموصل براً
١٤- إلى دمشق براً
١٥- إلى عكة براً
١٦- إلى صور براً
١٧- إلى عكة براً
١٨- إلى صقلية بحراً
١٩- إلى قرطاجنة براً
٢٠- إلى غرناطة براً



الفصل السادس

تحقيق نسبة كتاب رحلته إليه وتحقيق اسم الكتاب



عزا لسان الدين ابن الخطيب إلى أبي الحسن الشادى قوله عن الرحلة : إنها ليست من تصانيفه ، وإنما قيَّدَ معانىَ ما تضمنته ، وتولَّى ترتيبَها وتنفيذَ معانيها بعضُ الآخذين عنه على ما تلقاه منه والله أعلم[1] .

وذكر هذا المُفَادَ بعضُ مؤرخى ابن جبير قديماً وحديثاً نقلاً عن عن كتاب الإحاطة ، ومن المُحْدَثين الذين ذكروا هذا القول خيرُ الدين الزركلىُّ فى « الأعلام » ولم يُبْدِ رأيه فى ذلك .. وقد رَجّح الدكتور حسنى محمود حسين فى كُتَيِّبه « أدب الرحلة عند العرب » هذا القولَ ، وأتبعَه بأن « ابن جبير » لم يكن يخطر فى باله أن يكتب أدب رحلة بقدر ما كان ينوى أن يضعَ شبهَ تقرير يرفعه إلى سيده « أبى عثمان »[2] وهذا رأىٌ لم أره لغيره فيما اطلعتُ عليه من مصادر تاريخ حياة ابن جبير .

ونحن لا نوافق الدكتور حُسْنِى محمود حسين على رأيه هذا فى أن كاتب الرحلة كان هدفه كتابة تقرير يرفعه لسيده إذ لمْ يشر إلى ذلك ، ولمْ يَرِدْ ما يدل عليه فى كتاب الرحلة لا تصريحاً ولا تلميحاً ، ولم يشر إليه أحد من مؤرخيه الذين اطلعنا على كتبهم لا قديماً ولا حديثاً . ومعلوم أن ابن جبير انفصل من أبى عثمان مغاضباً له ؛ حيث أكرهه على شرب الخمر إكراهاً تألم له ابن جبير كثيراً ؛ مما جعله يَلْفَظ الاتصال به بعد ذلك لفظاً لا رجعة فيه .. وقد كره استعمال دنانيره فى أداءِ فريضة الحج.

هذا وينبغى أن يلاحظ تعقيبُ لسان الدين على رأى أبى الحسن الشادى بقوله : (والله أعلم) .. مما يفهم من فحواه عدم اقتناعه بهذا الرأى .

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة : ص ٢٣٤ م ١

(٢) أدب الرحلة عند العرب : للدكتور حسنى محمود حسين : ص ٢٥ نشر الهيئة العامة للكتاب بمصر .

والذى نراه أن الرحلة من تصانيف ابن جبير بدليل التحقيقات التالية التى أجريناها فى الموضوع :

فأولًا – نرى ابن جبير يستهل رحلته بقوله « ابْتُدِئ بتقييدها – أي تدوينها – يوم الجمعة المُوفى ثلاثين من شهر شوال » . فهذا الاستهلال يؤيد أن الرحلة له ، وأنه هو مُقَيِّدُهَا : نَصًّا وفَصًّا . فهو يقول : « ابتدئ بتقييدها يوم الجمعة . . » ولو كانت الرحلة من تأليف غيره لقال قولًا آخر ، من نمط قول محمدبن محمد بن جُزَىٍّ الكَلْبىّ عن رحلة ابن بَطُوطةَ إذ نص فى مقدمتها على أنه : « صدر إليه الأَمر العالى بأَن يضم أَطراف ما أملاه الشيخ أَبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللَّوَاتى الطَّنْجِى المعروف بابن بَطُوطة المعروف فى البلاد الشرقية بشمس الدين ، فى تصنيف يكون على فوائده مشتملًا ، ولنيل مقاصدهمُكَمِّلًا ، متوخياً تنقيحَ الكلام وتهذيبَه ،معتمداً إيضاحهوتقريبه[٣] .

وثانياً – ليس ابن جبير بِعَيِىٍّ ، فى البيان حتى يوكل إلى غيره من تلامذته ترتيبَ رحلته ، وتنضيد معانيها ، كما يقول أبو الحسن الشادى ، من غير أن يُقَدِّم برهاناً ساطعاً على صحة قوله .

وثالثاً – من الدلائل المؤيدة لكتابته الرحلة تقديمه اسم رفيقه فى الرحلة : أحمد بن حسان على اسمه ، وذلك فى مستهل الرحلة حيث يقول ما نصه :

(وكان انفصال أَحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة) فلو كان غيره هو الذى كتب الرحلة ورتبها لَقَدَّم صاحبَ الرحلة على زميله ، وفى تقديمه له على نفسه تواضع يؤكد ماذهبنا إليه .

---

(٣) مقدمة رحلة ابن بطوطة ، لابن جزى الكلبى : ص ١٢ و ١٣ طبعة بيروت . وقد نص فيها على أن ولى الأمر بالمغرب كلفه بتصنيف هذه الرحلة متوخياً تنقيح الكلام وتهذيبه .

ورابعاً : إن تعقيب لسان الدين على رأى أبى الحسن الشادى بقوله : (والله أعلم) فيه رائحة قوية ، على أنه غير مقتنع بهذا الرأى كما أشرنا إليه من قبل.

وخامساً: إن لسان الدين بن الخطيب لم يلتفت - على ما أسلفناه آنفاً - إلى رأى أبى الحسن الشادى هذا، بل إنه أثبت عكس ما يقوله حيث قال ما نصه : (وَصَنَّفَ - أى محمد بن جبير - الرحلة المشهورة وذكر ما نقله وما شاهده من عجائب البلدان ، وغرائب المشاهد ، وبدائع الصنائع [٣]) . فأنت ترى أن لسان الدين بن الخطيب يَنُصُّ هنا على أن ابن جبير هو الذى صَنَّفَ الرحلة المشهورة باسمه نصًّا ينقض قول أبى الحسن الشادى أنه لم يصنفها بنفسه . . ومعنى ذلك أنه رمى بقول أبى الحسن الشادى بعرض الحائط .

وسادساً: يقرر مؤرخو ابن جبير أنه أديب متمكن من ناصية الشعر والنثر فى اللغة العربية ، وأنه بليغ وَصَّافٌ دقيق الملاحظة مرهف الشعور . وهذه الأوْصاف تنطبق على كتاب رحلته .

وسابعاً : نَقَلَ القاسم بن يوسف التُّجِيبيّ السِّبْتِيّ المتوفى سنة ٧٣٠ هـ = ١٣٢٩ م أى بعد وفاة ابن جبير بـ ١١٦ عام- نقل نَصًّا من نصوص رحلة ابن جبير هو : (وقال الأديب الفاضل الزاهد أبو الحسين) إلى أن قال حكاية عنه : (عَدَدُ سَوَارِيهِ «أى المسجد الحرام » الرخامية التى عَدَدْتُها بنفسى أربعمائة سارية وإحدى وسبعون سارية عدا الْجِصِّيَّة منها التى منها فى دار الندوة وعند باب إبراهيم [٤]) فهذا نص صريح بأن كتاب الرحلة من عَمَلِ

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة ص ٢٣١ المجلد ٢

(٤) مستفاد الرحلة والاغتراب للقاسم بن يوسف التجيبى السبتى ص ٢٤٣ .

ابن جبير ، فلو كان كاتب الرحلة غيره لقال مثلا : عدد سوارى المسجد الحرام الرخامية : (التى عدها ابن جبير صاحب الرحلة) .

ولو كان القاسم بن يوسف مقتنعاً بأن الرحلة ليست من تصانيف ابن جبير لقال أيضاً: (قال كاتب رحلة ابن جبير إنه عَدَّ السوارى) أو قال مثلًا : (قال ابن جبير فى الرحلة المنسوب إليه تأْليفها) .

وثامناً: راجعتُ النص الذى أورده القاسم التُّجيبىُّ عن ابن جبير فى الرحلة حول عَدِّهِ لسوارى المسجد الحرام بنفسه فوجدته مُدَوَّناً فيه حرفيًّا كما نقله القاسم[٥] .

وتاسعاً : وهناك نص آخر من كتاب مستفاد الرحلة والاغتراب نقله صاحب هذا الكتاب عن رحلة ابن جبير قال : (وذكر الأَديب الفاضل أَبو الحسين بن جبير رحمه الله أن هذا المصحف الشريف بخط زيد بن ثابت رضى الله عنه ، ولم أَرَ من ذكر ذلك غيره)[٦] .

وبمراجعتى لرحلة ابن جبير للتأَكد من صحة نقل القاسم التجيبىّ وجدتُهَا تقول : (وفى القبة العباسيّة المذكورة خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع ، وفيه مصحف أَحد الخلفاءِ الأَربعة أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : زيد بن ثابت رضى الله عنه ، مُنْتَسَخٌ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقص منه ورقات كثيرة ، وهو بين دفَّتىْ عُودٍ مُجَلَّدٍ بمغاليق من صُفْرٍ، كبير الورقات عايناه وتبركنا بتقبيله ومسح

---

(٥) رحلة ابن جبير ص ٦٧ طبعة دار صادر، و ص ٥٥ نشر مكتبة نعمان الأعظمى ببغداد .
(٦) مستفاد الرحلة والاغتراب بالصفحة ٣٢٦ .

الخدود فيه نفع الله بالنية فى ذلك)[7]. وفى هذا النص نص على معاينة ابن جبير بذلك المصحف بعد وصفه له.

عاشراً – وهناك نص آخر فى الرحلة نفسها يقول: (وألفيْت بخط الفقيه الزاهد الورع أبى جعفر الفَنَكِيّ القُرْطُبي أنَّ زرع المسجد الحرام بالطول والعرض ما أثبته أولا)[8].

حادى عشر – وأخيراً ربما كان ما تحدث به أبو الحسن الشادى من (أن ابن جبير لما فرغ من تقييد المعانى التى تضمنها رحلته رتبها ونفذ معانِيهَا بعضُ الآخذين عنه) إنما يعنى به أن هذا الآخذ عن ابن جبير إنما قام بنسخ كتاب الرحلة بخط يده نسخاً جميلًا واضحاً خالياً من الشطب والكشط؛ ليبرز نسخة الكتاب فى حلة قشيبة بخلاف مسودته الحاوية للكشط والشطب والحواشى والدخلات والخرجات والهوامش على ما هو معروف من صنع المؤلفين الأساتيذ مع تلاميذهم الذين لديهم وعى طيب، ويحسنون الخط فيبيضون مسودات مشايخهم بخط جميل. وبالمناسبة أذكر أنى كنت قد قمت بمثل هذا حيال بعض تأليف شيخنا المغفور له العلامة محمد الطيب بن إسحاق الأنصارى فى كتابه «الدرة الثمينة» الذى نظم به شذور الذهب فى علم النحو، لابن هشام الأنصارى، والذى درسناه عليه ثم قمنا نحن تلاميذه فى المدينة ومكة بطبعه فى حياته.

تحقيق اسم كتاب الرحلة

جعل حاجى خليفة اسم كتاب «رحلة ابن جبير» «رحلة الكنانى» ونقل عنه هذا القول محقق طبعة دار مصر للطباعة الدكتور حسين نصار، حيث

(٧) رحلة ابن جبير بالصفحة ٨٠ طبع دار صادر (والصفحة ٦٧ – ٦٨) نشر المكتبة العربية ببغداد لصاحبها نعمان الأعظمى سنة ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧ م.

(٨) الصفحة ٨١ طبعة دار صادر والصفحة ٦٨ نشر المكتبة العربية ببغداد.

ذكر (ويبتدئ هذا المخطوط بعبارة «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» التى قد تكون عنواناً للكتاب، وقد لا تكون فلا تعنى غير ما نعنيه اليوم بكلمة «مذكرات» وينتهى بعبارة «كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك» وشك (رَايتْ) فى كونها عنوان الكتاب. وبهذا الشك آثر أن يقدمها بالعنوان المشهور: (رحلة ابن جبير) وتابعته فى ذلك أخذاً بالأسلم والأعْرف)(٩).

وكدأب المستشرقين. نرى كراتشكوفسكى المستشرق الروسى يشكك بأسلوبه الناعم الأملس فى حقيقة اسم رحلة ابن جبير، ومن ثمَّ يُخَيِّل للقارى أنه وضع لها اسماً من عنده فى فلسفة جذابة ـ حيث يقول: «وعنوانه ـ أى كتاب الرحلة ـ غير معروف لنا بالضبط. ويوجد له عنوانان تغلب عليهما الصنعة هما: كتاب (اعتبار الناسك فى ذكر الآثار والمناسك) و (تذكير بالإخبار عن اتفاقات الآثار) ولكنْ كلاهما منحول على ما يظهر». انتهى كلامه. ثم يقول: «ويمكن أن العنوان ربما كان بكل بساطة رحلة الكنانى، نسبة إلى القبيلة التى ينتسب إليها» اهـ. وهناك اسم آخر لم يشر إليه كراتشكوفسكى وذكره غيره من مؤرخى ابن جبير كالدكتور حسين نصار وهو (تذكرة بالإخبار، عن اتفاقات الأسفار)(١٠)، وبوسعنا أن نرد على كراتشكوفسكى فيما يتعلق بغلبة الصنعة على الأسماء المذكورة آنفاً للرحلة التى جعلها سُلَّماً لهدم كيان تلك التسميات....

وبوسعنا أن نرد عليه بأن غلبة الصنعة فى أسماء الكتب فى تلك القرون كانت السمة البارزة والطابع الغالب المميز لها عما قبلها وما بعدها من أسماء

---

(٩) ص «هـ» من مقدمة الدكتور حسين نصار بطبعة الكتاب التى قام بتحقيقها.

(١٠) ورد هذا الاسم فى صدر طبعة الرحلة بمطابع دار صادر ـ دار بيروت سنة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م، كما ذكره الدكتور حسين نصار فى الطبعة التى حققها لكتاب الرحلة ص «هـ» كما ذكر العنوان الآخر الذى انتهت به الرحلة وهو «كتاب اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك» نفس المصدر والصفحة.

الكتب ، ويمكن دعم هذا الرأى بتراثنا العربى الإِسْلامى المماثل ، فمثلًا نرى ابن جبير يُسَمّى ديوانه الذى رثى به زوجه البرة عاتكة باسم : (نتيجة وَجْدِ الجوانح ، فى تأْبين القرين الصالح) . وبروز الصنعة فى هذا الاسم لا يحتاج إلى دليل ، كماسمى ديوان شعره الآخر : (نظم الجُمَان فى التشكى من إخوان الزمان)، كمانجد اسم تاريخ ابن خلدون المشهور هكذا: (كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر ، فى أَيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأَكبر) ونجد للرحالة التِّجانىّ أَسْماءَ كُتُبٍ أَلفها تغلب عليها الصنعة مثل : (نفحات النَّسرين فى مخاطبة ابن شيريين) و (علامة الكرامة فى كرامة العلامة) و (تحفة العروس ونزهة النفوس) مما يكشف للقارئ أَن غلبة الصنعة على أَسماءِ الكتب لدى علماءِ العرب فى القرن السادس الهجرىّ وما يليه لا يصح أَن يتخذ حجة على أَن تلك الأَسماءَ وما يماثلها منحول كما يقرره المستشرق كراتشكوفسكى حيال اسم كتاب رحلة ابن جبير .

الفصل السّابع

شِعْره ونثْره



(١) شعر ابن جبير :

أَمَدَّ كتابا (الإحاطة فى أَخبار غرناطة) و (نفح الطيب من غصن الأَندلس الرطيب) ـ الْقُرَّاءَ والباحثين بمقطوعات وقصائد ثمينة من شعر محمدبن جبير.

وسنورد فيما يلى الكثير مما دونه ذانك الكتابان من شعره ،ونضيف إليه تعليقات وتحقيقات وملاحظات من عندنا اقتضتها المناسبة القائمة .

(١)

شعره فى كتاب الإحاطة

استهلت الإحاطة ما دونته من شعر ابن جبير بقصيدته التى نظمها، حين قدم المدينة زائراً ، وفيها يقول :

فرحة الوصول(*)

أَقول ـ وآنستُ بالليل نارا ... لعل سراج الهدى قد أَنارا

وإلا فما بالُ أُفْقِ الدُّجى ... كأَنَّ سَنَا البرق فيه استطارا

ونحن من الليل فى حِنْدِسٍ ... فما بالهُ قد تجلى نهارا ؟

وهذا النسيم شذا المسك قد ... أُعِيرَ أَمْ المسك منه استعارا ؟

وكانت رواحلنا تشتكى ... وَجَاهَا فقد سابقتنا ابتدارا

وكنا شكونا عناءَ السُّرَى ... فَعُدْنَا نُبارى سِرَاع الْمَهَارَى

* * *

أَظُنُّ النفوس قد استشعرت ... بلوغ هوى تخذته شعارا

جرى ذكر طيبة ما بيننا ... فلا قلب فى الركب إلا وطارا

تقع هذه القصيدة فى (٣٢) بيتاً . ومن يَقرأْهَا يُدْرِكْ علُوَّ نَفَسِ ابن جبير فى الشعر العربىّ ، وكان قد أَنشدها عند استقباله المدينة المشرفة .

(*) تنبيه للقراء : عناوين المقطوعات والقصائد هى من وضع مؤلف هذا الكتاب وقد وضعناها هكذا لنلقى الضوء أمام القارىء على مضمون القصيدة أو المقطوعة وهدفهما .

بين شرق البلاد وغربها

لا يستوى شرق البلاد وغربها ... الشرق حاز الفضل باستحقاق
انظر جمال[1] الشمس عند طلوعها ... زهراءَ تعجب بهجة الإشْراق
وانظر إليها فى الغروب[2] كئيبةً ... صفراءَ تُعْقِبُ ظلمة الآفــاق
وكفى بيوم طلوعها من غربها ... أَن تؤذن الدنيا بعزم فراق

لقد فَضَّلَ الشاعرُ ابنُ جبير هنا الشرقَ على الغرب لا من حيث الطبيعةُ ، ولكن من حيث إن الشرق هو مصدر نور الهداية للغرب الإسْلامى ، ولا يتعارض ذلك مع مَنْ فَضَّلَ المغرب على المشرق ضمنا فى نظرة شعرية خالصة حيث قال :

الغرب شيءٌ نفيس ... ولى عليه أَدلَّــــهْ
الشمس تغرب فيــه ... ومنــه تبـدو الْأَهِلَّــهْ

كتمان المصائب :

عليك بكتمان المصائب واصطبر ... عليها فما أَبقى الزمان شفيقـا
ويكفيك فى الشكوى إلى الناس أَنها ... تَسُرُّ عَدُوًّا أَوتسوءُ صديقـا[3]

---

(١) فى الطبعة التى حققها محمد عبد الله عنان من كتاب الإحاطة ورد نص هذه الشطرة هكذا (وانظر إلى جمال الشمس عند طلوعها) وعلق المحقق عليها بقوله : هكذا وردت فى (ج) وفى (الزيتونة) وفى نص : (ترى الشمس) ومن رأينا أن كل ما توصل إليه المحقق هنا هو فاسد الوزن الشعرى وحاشا لابن جبير أن يقول ذلك ويبدو لى أن الصحيح هو ما دونته بأعلى هذا الهامش .

(٢) كذلك علق المحقق على هذه الشطرة بعد أن أوردها هكذا : (انظر إليها عند الغروب كئيبة) . ولا يخرج تحقيقه وتعليقه هذان ، عما سبق له مثله آنفاً . وقد أثبت مابدا لى أنه الصحيح .

(٣) لم يعلق محمد عبد الله عنان على هذه الشطرة التى أوردها هكذا : (كفاك بالشكوى إلى الناس أنها) راجع الصفحة ٢٣٧ من كتاب الإحاطة . ويظهر لى أن الصحيح هو ما دونته ، وذلك لكى يكون وزن الشطرة صحيحاً . ولعل انفعال الأستاذ محمد عبد الله عنان بالشعر العربى الموزون لم يكن بذلك المستوى . بل لعله لا يقيم وزن هذا الشعر كما يحسن ، كما يدل على فحوى إقراره لما ورد فى النسخ التى شاهدها من دون إبداء وجهة نظره فيما قرأ من ذلك .

صنائع المعروف

وصَنَائعُ[٤] المعروف فلتة عاقل إن لم يَضَعْهَا فى محلٍ عاقل
كالنَّفْسِ فى شهواتها إن لم تكن وفقاً لها عادت بِضرٍّ عاجل

وتكمن فى هذين البيتين حكمة عميقة شرحها المتنبى بشكل أوجز وأَوضح وأَعمق وأَجمل حين قال :

وَوَضْعُ النَّدَى فى موضع السيف بالعلا
مُضِرٌّ، كوضع السيف فى موضع النَّدَى

(٢)

شعره فى نفح الطيب

عندما دخل ابن جبير مدينة بغداد اقتطع غصناً رطباً من أحد بساتينها ، فذبل فى يده فقال :

لا تغترب عن وطن

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريف النَّوَى
أَما ترى الغصنَ إذا ما فارق الأَصْلَ ذَوَى

استجازة وإجازة شعريتان

قَدَّمَ ابن جبير المعروض الشعرىّ التالى ، إلى الشيخ محمد بن عبد اللطيف الخجندى يلتمس فيه أَن يمنحه إجازة علمية بِمَرْوِيَّاتِهِ ومعلوماته :

(٤) أورد محقق هذا الكتاب وناشره محمد عبد الله عنان هذه الشطرة مكسورة الوزن مختلة المعنى ، فنشرها هكذا : (وصانع المعروف فلتة عاقل) الصفحة (٢٣٧) وبتأملنا لهذه الشطرة ظهر لنا أن فيها غلطة مطبعية ، وهى محرفة عن كلمة (وصنائع) جمع صنيعة ، لأن انسجام المعنى وصحة العبارة بدون ريب هما يتمثلان فى قولنا : (وصنائع المعروف فلتة عاقل) كما سجلناه فوق هذا .

يا من حَوَاهُ الدينُ فى عصره　　صدراً يَحُلُّ العلم منه فؤادْ
ماذا يرى سـيدُنا المرتضى　　فى زائر يخطبُ منه الودادْ
لا يبتغى منه سوى أَحْرف　　يَعْتَدُّهَا أَشْرَفَ ذُخْرٍ يُفَادْ
تَرْسِمُهَا أنمُلُه مثلما　　نَمَّقَ زهرَ الروض كَفُّ العهادْ
فى رقعة كالصبح أَهْدَى لها　　يدُ المعالى مِسْكَ ليلِ المِدادْ
(إجازةٌ) يُورِثُنِيهَا العُلا　　(جائزةً) تَبْقى ، وَتَفْنَى البلادْ
يستصحب الشكر خديمٌ لها　　والشكر للأَمجاد أَسنى عتادْ

وقَبِلَ الشيخ الخجندىّ معروض الرحالة ابن جبير ، فأَجابه مُجيزاً له بقوله :

لك الله من خاطبٍ خُلَّـتى　　ومن قاصدٍ يجتدى سقط زَنْدِى
أَجَـزْتُ له ما أَجازوه لى　　وما حَدَّثُوه وما صَحَّ عندى
وكاتبُ هذى السطور التى　　تَرَاهُنَّ : (عبدُاللطيف) الْخُجَنْدِى

إجازة شعرية لطيفة جمعت بين الْمُجَازِبِهِ ،وتَوْقيعِ الْمُجِيزِ،وهكذا ظهر أَن الشيخ عبد اللطيف الخجندىّ هو شاعر كما هو عالم .

الإجازات الشعرية فى الثقافة العربية الإسلامية

هذا ، وليس ابن جبير والخجندى هما الوحيدين فى الاستجازة .. والإِجازة ، شعراً ، فقد عقد الْمَقَّرِىُّ فى كتابه «نفح الطيب » فصلًا خاصاً للمراسلات التى دارت بينه وبين أَهل العلم والأَدب فى الشام ، فى القرن الهجرىّ الحادى عشر ، وأَورد قصائد نفيسة متبادلة فى هذا الشأْن . فمن شاءَ مزيداً من الاطلاع ، فعليه أَن يراجع كتاب (نفح الطيب ، من غصن الأَندلس الرطيب) وسيجد تلك القصائد ماثلة فيه ،

ومن ذلك الاستجازة الشعرية التى قدمها له بعض أولاد الشيخ عبد الرحمن العمادىّ مفتى الشام والتى يقولون له فيها :

مولاى يا من دُوُّ أَلْفَاظـــه ... صحاحها تزرى على الجوهرى
إجازة ترفل من فضلهـــا ... فى ثوب عِزٍّ وَرِدًا مفخـر
مُسْبلَةُ الذيل على أكـــبر ... وأوسط الإخـوة والأصغـر
أَطِلْ لنا إنشاءها بل أَطِـــبْ ... وانْظِمْ لنا من دُرِّها وانْثُـر
لازِلْتَ فى نفع الورى دائمـاً ... تجود جُـودَ الهاطل الممطر

وقد استجاب الشيخ أحمد بن محمد الْمَقَّرِىُّ لهذا الطلب ، فأجاز ثلاثة أبناءِ الشيخ عبد الرحمٰن العمادىّ فى قصيدة بلغت أبياتها ثمانين بيتاً ، يقول فى مطلعها :

أَحمـــد من شَيَّد بالإِسْنـاد ... بيتَ العلوم الشامخ العماد

ومضى إلى أن قال فى والدهم :

مُفْتِى الورى فى مذهب النعمان ... بها الوجيهُ عابـــدُ الرحمٰن
ابنُ عماد الدين من تُعْيِى القلم ... أَوصافُهُ اللاتى كَنُورٍ فى علم

إلى أن قال :

وكنتُ فى مكة قد أَبْصَرْتُ ... منه عُلًا، عن مدحه قَصَّرْتُ

ثم ذكر أبناءَ الشيخ طالبى الإجازة منه واحداً واحداً فقال :

وكان فى جملتهم أبناؤه ... (عماد دين) قد علا بناؤه
وصنوه (الشهاب) من توقدا ... فَهْماً،و (إبراهيم) سَبَّاقُ المدى
وهو الذى قد ابتغى الإجازهْ ... لهم بوعد طالباً إنجـازه

وكتب القصيـدة الطنانـة في ذاك لى مهتصراً أفنانه

ثم قال :

فلم أجد بُدًّا من الإجابـــهْ مع كون جهلى سادلاً حِجَابَهْ
فقد أَجزتُهم لما رَوَيْتُــــهْ طُرًّا ، وما ارتجلتُ أو رَوَّيْتُهْ
وكل ما صنعتُ فى الفنون مُؤَمِّلُ التحقيق للظنـون
وما أَخذتُ عن شيوخ الْمَغْرِبِ وغَيْرِهِـمْ من كل حَبْرٍ مُغْرِبِ

ثم ذكر إسناده فى مروياته فقال :

وقد أَخذتُ (جامع البخارى) عن عَمِّىَ الحائزِ للفخـار

وذكر اسمه فى ختام القصيدة ، وسَلْسَلَ سنده هذا حتى إسماعيل البخارى صاحب الجامع الصحيح فى الحديث النبوى ، وفعل كذلك فى سنده المتصل إلى مُسْلِم ، وإلى الإمام مالك بن أنس فى الموطإ ، والإمام أَحمد بن حنبل ، والدَّارمىّ والطبرانىّ ، وما رواه من المعاجم .

وأرّخ قصيدة الإجازة هذه فى نهايتها شعراً فقال :

وخَطَّ هـذا المقَّرىُّ العـاصِى أُجيرَ يوم الأَخْـذِ بالنَّواصِى
سنة سبع وثلاثين تَلَـــتْ أَلفاً لهجرةٍ بيَاسِينَ علـت
عليه أَزكى صلوات تُسْتَتَمّ نرجو بها الزلفى وحُسْنَ الْمُخْتَتَمْ[٥]

سحب فياضة

قال ابن جبير هذه القصيدة فى الإشادة بمآثر صلاح الدين يوسف ابن أَيوب بن شادى ، وقد بدأَها بقوله :

---

(٥) نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرى بالصفحة ١٨٠ إلى ١٨٧ الجزء الثالث .

أَطَلَّتْ على أُفْقِكَ الزاهر   سُعُودٌ من الْفَلَكِ الدائر

ومنها قوله :

رفعت مغارم أَهل الحجاز   بإنعامك الشامل الغامـــر
وأَمنت أَكناف تلك البلاد   فهان السبيل على العابر
وسحب أَياديك فياضـــة   على وارد وعلى صـــادر
فكم لك فى الشرق من حامد   وكم لك فى الغرب من شاكر

حقاً إن هذا لهو الشعر المحلق أَو السحر الحلال المتأَلق . إن سهولة هذه الأَبيات وروعتها وسيولتها – على التغيير الاقتصادى الحديث – قد أَحَلَّتْها مستوى عالياً شامخاً من الشعر الخالد ، وقصيدته هذه لا تقل روعة وسهولة واقتناعاً عن قصيدة أَبى العتاهية التى يقول فيها :

أَتته الخلافـة منقـــادة   إليه تُجَـرِّرُ أَذيالهـــا
ولو رامها أَحـدٌ ، غيـره   لزلزلت الأَرْض زلزالهـــا
فلم تَكُ تصلـح إلَّا لـــه   ولم يك يصلح إلَّا لهـا

والقصيدة الأُخْرى التى قالها ابن جبير فى مدح صلاح الدين قال فيها عاتباً على صلاح الدين عدم إشعاره لأَمير مكة ، برفع المكوس عن الحجاج :

وما نال الحجاز بكم صلاحاً   وقد نالته مِصْرٌ والشَّـــام

أخلاء هذا الزمان

أَخلاءُ هـذا الزمـان الخؤون   توالت عليهم حروفُ الْعِلَلْ
قضَيْتُ التعجب من بابهم   فَصِرْتُ أُطالع باب البـدل

وقد أَورد المقَّرىُّ هذين البيتين مرة أُخرى فى (نفح الطيب) مُضيفاً إليهما بيتاً ثالثاً من طرازهما ، وأَدخل تعديلًا كاملًا فى البيت الأَول وتغييراً جزئياً فى البيت الثالث فجاءت الأَبيات هكذا :

تغير إخـوان هـذا الزمان　　وكُلُّ صديق عراه الخـللْ
وكانوا قديماً على صحـة　　فقد داخلتهم حروفُ العِلَلْ
قضيتُ التعجب من أَمرهم　　فصرتُ أُطالـع باب البدلْ

ومرة ثالثة أَورد البيتين الأَوَّلَيْنِ بتغيير يكاد يكون شاملًا لأَولهما وبتغيير جزئىّ فى الشطر الأَول من ثانيهما :

ثَكِلْتُ أَخـلاءَ هـذا الزمان　　فعندِىَ مما جنوه خَـلَلْ
قَضَيْتُ التعجب من شأْنِهم　　فصرتُ أُطالع باب البدلْ

وعلى كل فإِن رونق هذه الأَبيات يتلأَلأُ فوق جبينها الأَزهر فى أَى تركيب رُكِّبتْ ، وفى أَية ظاهرة من ظواهر الشاعرية الثرة الفياضة بَرَزَتْ .

ذكريات الوطن النائى

غريب تذكَّر أَوطانـه　　فهَيَّجَ بالذِّكـر أَشجانه
يَحُلُّ عُرَى صبره بالأَسى　　ويعقـد بالنجـم أَجفانـه

والحنين العميق إلى الوطن الغالى ، وإلى البلد المحبوب : غَرْنَاطَة ، كان هِجِّيرَى ابن جبير لازمة من اللوازم التى لا تفارقه طيلة رحلته الأُولى ، فلا تمرّ به أَية مُناسبة إلّا وجهر أَو جأَر بهذا الحنين الممض الذى يطحن فؤاده كما تطحن الرحا الحنطة بين شقيها فتحيلها دقيقاً

ناعماً .. وإنى لا أكاد أقضى العجب : كيف استطاع ابن جبير مع رقة إحساسه ودقة عاطفته وشدة تعلقه بوطنه – كيف استطاع أَن يهجره زمناً طويلًا ، ويبتعد عنه أَمداً مديداً ، ثم يفارقه بِأُخَرةٍ عن طواعية ورغبة حتى الرمق الأَخير من حياته .. أَلَا إنَّه الإِيمان يغمر أَبعاد قلبه ، والاندفاع المخلص إلى أداءِ شعائر الإِسْلام ، قد هَوَّنَا عليه كل جلل ، فَسَهَّلَا عليه فراق الوطن العزيز الأَثير . ولهذا نراه يعلن بهجته الغامرة حينما أَشرف على بَيْت الْهُدَى فى مكة المكرمة فقال :

بدَتْ لِىَ أَعْلامُ بَيْتِ الْهُدَى ... بمكة والنور بادٍ عليـهْ
فأَحرمتُ شوقاً له بالهـوى ... وأَهديتُ قلبى هَدِيًّا[٦] إليهْ

يا مهدى الموز

يا مُهْـدِى الموز تَبْقَى ... ومِيمُـهُ لك فَـاءُ
وزايُـهُ عن قريـب ... لِمَنْ يُعـادِيكَ تَـاءُ

تُعَدُّ بحق هذه البلاغة الممثلة فى التلاعب بالأَلفاظ والمعانى فى الحروف التابعة لأَشكالها المتغيرةِ، من أَبدع المبتكرات الفنية الطريفة فى الشعر العربىّ العمودىّ الأَصيل .

شؤم على العصر

قد ظهرت فى عصرنا فرقة ... ظهورها شُؤْمٌ على العصر
لا تقتدى فى الدين إلا بما ... سَنَّ ابْنُ سينا وأَبو نصر

(٦) الهدى على وزن الأبى والكمى لغة فى الهدى بسكون الدال المهملة وهو ما يؤدى للبيت الحرام فى الحج .

ابن سينا هو الحسين بن عبد الله بن سينا الفيلسوف المعروف ، وأبو نصر هو محمد بن طرخان الفارابى الفيلسوف المعروف أيضاً .

ومن الواضح أن ابن جبير لا يتفق مع الفلاسفة فيما يتعلق بشؤون الدين الإسلامى الحنيف ، لأنه يرى أن الفلسفة ما دخلت فى دين من الأديان إلا أفسدته ، فهى بالنسبة له كالسياسة فى نظر الشيخ محمد عبده. والإسْلام دين الفطْرة يكره التعقيد ، ويجنب التمحك والسفسطة وإقحام العقل فى أمور علوية لا يصل إلى كُنْهِها ولا إدراكها مطلقاً .

ونرى ابن جبير فى البيتين التاليين يصرح بهذه العقيدة :

يا وحشة الإسْلام من فرقة شاغلةٍ أنفسها بالسَّفَهْ
قد نبذت دين الهدى خلفها وادعت الحكمة والفلسفهْ

وقد أتى بما هو أكثر صراحة فى المعنى نفسه حين قال :

ضَلَّتْ بأفعالها الشنيعهْ طائفةٌ، عن هُدَى الشريعهْ
ليست ترى فاعلًا حكيماً يفعل شيئاً، سوى الطبيعهْ

وفى هذا الإطار التقت فلسفة بعض أهل ذلك العصر الضَّالة بفلسفة هذا العصر المُضِلة . . ، المادة هى الفاعلة لكل شئ فى نظر ماديِّى اليوم ، والطبيعة هى الفاعلة لكل شئ فى نظر أُولئك ، والمادة والطبيعة كلتاهما مخلوقتان للخالق الواحد الأحد العظيم الذى لا شريك له ، جل جلاله وعز سلطانه ، ولا إلّه سواه .

إياك والشهرة فى ملبس

إياك والشهرةَ فى ملبس والبَسْ من الأثواب أسْمَالَهَا
تَوَاضُعُ الإنسان فى نفسه أشرفُ للنفس وأسْمَى لها

جناس لطيف ، فى لفظ لطيف ، فى معنى لطيف ، نزع الشاعر فيه منزع الصوفية الزُّهَّاد الذين يقول فيهم شاعر آخر :

إنَّ لله عباداً فُطنَا ... طَلَّقُوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أَنها ليست لِحُرٍّ وطنا
جعلوها لُجَّةً واتخذوا ... صالح الأَعمال فيها سُفُنا

إذا شاتمت السفيه ! !

تَنَزَّهْ عن العوراءِ مهما سمعتها ... صيانة نفس فهو بالحر أَشْبَهُ
إذا أَنت جَاوَبْتَ السفيه مُشَاتماً ... فمن يتلقى الشتم بالشتم أَسْفَهُ

وهذه دعوة كريمة إلى خلق إسلامى كريم ، وهى مقتبسة من قول الله جل وعلا : (وأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) ومن قوله أيضاً: (وَالَّذِينَ إِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً) .

وديعة الله

أَقول وقد حان الوداع وأُسْلِمَتْ ... قلوب إلى حكم الأَسى ومَدَامِعُ
أَيارب أَهلى فى يديك وديعة ... وما عدمت صَوْناً لديك الودائع

إنَّ إيداع كبار الشعراءِ أَهْلَهُمْ وأَحباءَهُمْ للمولى عز وجل ساعَة فراقهم وعند بُعْدِ تلاقيهم أَمر جرت به عادة أُولئك الشعراءِ ، لأَن العاطفة الدينية تغمر قلوبهم الحساسة وبخاصة فى ساعات الأَسى ، وأَى شيءٍ أَعظم أَسًى من فراق الأَهل والمال والولد والوطن ؟ !

وفى هذا الميدان رأَينا الشاعر ابنَ زُرَيْقٍ البغدادىَّ(٧) الذى فارق أَهله

(٧) هو أبو الحسن على بن زريق الكاتب البغدادى صاحب القصيدة المشهورة التى قالها فى حالة يأسه واغتمامه بعد أن قصد من بغداد صاحب الأندلس ومدحه فأجازه بالوشل من المال فمرض فمات وكان صاحب الأندلس أراد اختباره فوجدوه ميتاً فى الفندق الذى نزل فيه ، وعند رأسه رقعة فيها قصيدته العينية التى أوردنا منها البيتين .

وزوجه الحبيبة فى الكرخ ببغداد ، واتجه إلى الأندلس فى رحلة قصية لينال وفراً من المال بِشِعْرِه الرائع ، ليعود به إلى زوجه الحبيبة فينعما بالسعادة ــ رأيناه يقول بعد طول الغياب وبعد انكسار خاطره بخيبة الأمل المفقود :

أَستودِعُ اللهَ فى بغداد لى قَمَراً ... بالْكَرْخِ من فَلَكِ الأَزرار مطلعه
وَدَّعْتُهُ وبِوُدِّى أَن يودعنى ... صَفْوُ الحياة وأَنِّى لا أُودعه

فزتم بالمنى

يا وفود الله فزتم بِالْمُنَى ... فهنيئاً لَكُمُ أَهلَ مِنَى
قد عرفنا عرفاتٍ بعدكم ... فلهذا بَرَّحَ الشوق بنا
نحن فى الغرب ويجرى ذكركم ... بغروب الدمع يجرى هَتِنَا

ويفيدنا المقَّرىّ فى تقديمه للأَبيات الثلاثة المتقدمة بأَنها من قصيدة لابن جبير مطلعها : يا وفود الله فزتم بالمنى .

ومنها :

فيناديه على شحط النوى ، ... من لنا يوماً ؟ فقلتُ : مَلَّنا
سِرْ بِنَا يا حادى الركب عسى ... أَن تلاقى يوم جَمْعٍ[8] سِرْبَنَا
ما دعا داعى النوى لما دعا .. ... غير صَبٍّ شفه بَرْحُ العنا
شِمْ لنا البرق إذا لاح وقل ... جمع الله بِجَمْعٍ شَمْلَنَا
علنا نلقى خيالًا منكم ... بلذيذ الذكر وَهْناً عَلَّنَا
لَوْحَنَا الدهر علينا لقضى ... باجتماع بِكُمُ بِالْمُنْحَنَى
لاح برق مَوْهِناً من نحوكم ... فلعمرى ما هَنَا عيش هُنَا
أَنتم الأَحباب نشكو بُعْدَكُمْ ... هل شكوتم بُعْدَنَا من بَعْدِنَا ؟ !

(٨) جمع بفتح الجيم وسكون الميم بعدها عين مهملة ، اسم مزدلفة .

فى هذه القصيدة شوق وحنين : شوقٌ من الشاعر ابن جبير إلى أداءِ فريضة الحج ، وحنين إلى بلوغ المشاعر والاستئناس بمرآها والتجول فيما بينها .

بشير الرضا والقبول

فى مطلع قصيدةٍ لاميَّةٍ وصفها المقَّرىُّ بأَنها مطولة يقول ابن جبير :

لعل بشير الرضا والقبول　　　يعلل بالوصل قلب الخليل

أبا عمران !

ويخاطب أَبا عمران الزاهد المارتلانىّ الذى صحبه مدة وأُعْجِبَ به ، يخاطبه بهذين البيتين :

أَبا عمران قد خَلَّفْتُ قلبى　　　لديك وأَنت أَهل للوديعة
صحبتُ بك الزمان أَخا وفاءٍ　　　فها هو قد تَنَمَّرَ للقطيعهْ

شوق إلى ثلاث بقاع

طال شوقى إلى بقاع ثلاث　　　لا تُشَدُّ الرحال إلا إليها
إن للنفس فى سماءِ الأَمانى　　　طائراً لا يحوم إلا عليها
قُصَّ منه الجناحُ فهو مهيض　　　كُلَّ يوم يرجو الوقوع لديها

حسن القول سيىء الفعل

لى صديق خسرتُ فيه ودادى　　　حين صارتْ سلامتى منه ربحا
حَسَنُ القول سيئُ الفعل كالْجَزَّا　　　رِسَمَّى وأَتْبَعَ الْقَوْلَ ذَبْحَا

يتمنى الطيران

حينما توفيت زوجه عاتكة أَظلمت الدنيا فى وجهه . ومِمَّا رَثَاهَا به قوله :

بِسِبْتَةَ لى سَكنٌ فى الثَّرَى   وخِلٌّ كريم إليهـــا أَتى
فلو أَستطيعُ ركبتُ الهـــوا   فزرتُ بها الحىَّ والميتـــا

وربما كان نظره فى هذا المعنى إلى قول الشاعر العربى القديم :

بَكَيْتُ على سرب القطا إذ مَرَرْنَ بى   فقلـــت : (ومثلى بالبكاءِ جدير)
أَسرْبَ القطا هل من يعير جناحــه   لعلى إلى من قد هويتُ أَطير ؟

وكان ابن جبير كتب بيتيه السَّابِقَيْنِ إلى أَبى محمد عبد الله بن التميمى البجائى من الديار المصرية وذلك فى رحلته الأَخيرة (الثالثة) لَمَّا بلغه ولايته للقضاءِ فى سِبْتَةَ[٩] .

نحو أرض المنى

لِى نحو أَرض الْمُنَى من شرقِ أَندلس   شوقٌ يؤلف بين الماءِ والقبس

قالَ هذا البيت الذى هو مطلع قصيدة له عند صدوره عن الرحلة الأُولى إلى غرناطة أَو فى طريقها بسبب طول اغترابه عن مسكنه فقد كان الشوق الملح إليه يعتصره ويَهُزُّ نياط قلبه . .

يا خير مولى

يا خير مَـوْلًى دعاه عبْـــدٌ   أَعْمَلَ فى الباطل اجتهـادَهْ
هَبْ لِىَ ما قد علمتَ مِنِى   يا عالِم الغيب والشهـــادهْ

هذا ابتهال عميق من قلب متعلق بمولاه جل علاه :

إيثار وإغضاء وحب

وإنى لَأُوثِرُ من أَصْطَـفِى   وأُغضِى على زلة العـــاثر
وأَهــوى الزيارة مِمَّنْ أُحِبُّ   لِأَعْتَقِدَ الفضـــل للزائر

---

(٨) نفح الطيب الصفحة ٢٤٦ ج ٣

ولعل هذا المعنى ينظر من بعيد إلى قول الشافعى ، فيما أذكر :

قالوا يزورك أَحمد وتزوره ... قلت الفضائل لا تفارق مَنْزِلَهْ
إن زرته فلفضله أَو زارنى ... فبفضله ، فالفضل فى الحالين لَهْ

أسوأ الناس تدبيراً

عجبتُ للمرءِ فى دنياه تُطْمِعُهُ ... فى العيش والأَجلُ المحتوم يقطعه
يُمسى ويصبح فى عشواءَ يخبطها ... أَعمى البصيرة ! والآمال تخدعه
يغترُّ بالدهر مسروراً بصحبته ... وقد تَيَقَّنَ أَن الدهر يصرعه
ويجمع المال حرصاً لا يفارقه ... وقد درى أَنه للغير يجمعه
تراه يشفق من تضييع درهمه ... وليس يشفق من دِينٍ يُضيِّعُه
وأَسوأُ النَّاس تدبيراً لعاقبة ... من أَنفق العمر فيما ليس ينفعه

إنه ليتضح زهد ابن جبير فى عَرَضِ الدنيا من خلال هذه المقطوعة البليغة النابعة من صادق نظراته إلى متاع الحياة الدنيا .

بين غدر الزمان وإخوان الزمان

صبرتُ على غدر الزمان وحقده ... وشَابَ لِىَ السَّمَّ الذعافَ بِشَهْدِهِ
وجربت إخوان الزمان فلم أَجد ... صديقاً جميل الغيب فى حال بُعْدِهِ
وكم صاحبٍ عاشرتُه وأَلِفْتُه ... فما دام لى يوماً على حسن عهده
وكم غرنى تحسين ظنى به فلم ... يُضِيءُ لى على طول اقتداحى لزنده
وأَغرب من عنقاءَ فى الدهر مغرب ... أَخو ثقة يسقيك صافىَ وده
بنفسك صادم كل أَمر تريده ... فليسَ مَضَاءُ السَّيْفِ إلَّا بِحَدِّه
وعزمك جردْ عند كل مهمة ... فما نافع مكث الحسام بغمده
وشاهدت فى الأَسفار كل عجيبة ... فلم أَرَ من قد نال جَدًّا بِجِدِّهِ

فكن ذا اقتصاد فى أُمورك كلها ... فأَحسن أَحوال الفتى حسن قصده
وما يحرم الإنسان رزقاً لعجزه ... كَمَا لا يَنَالُ الرزق يوماً بكده
حظوظ الفتى من شقوة وسعادة ... جَرَتْ بقضاءٍ لا سبيل لرده

كان ابن جبير فى هذه القصيدة الْحِكَمِيَّةِ ، منافساً قوياً للمتنبى فى التعبير ، وفى المعنى .

ظروف صبر فوقها طعم من العسل

الناس مثل ظروف حَشْوُها صَبِرٌ ... وفوق أَفْوَاهها شىءٌ من العسل
تَغُرُّ ذائِقَها حتى إذا كشفت ... له ، تَبَيَّنَ ما تحويه من دخل

لربما كان هذا معنى جديداً ، لم يَسْبِقْ إليه ابنَ جبير غيرُهُ فقد شبه الناس بالصَّبِرِ المغطى بشىءٍ من العسل ، كما يفعل صُنَّاع الأَدوية الحديثة بما هو مُرُّ المذاق منها كالاسبيرو مثلًا ، إذ تراهم يغلفونه بشىءٍ من الحلوى ليسهل ابتلاعه .

اسأل الله كل ما تريده

من الله فَاسْأَلْ كل أَمر تريده ... فما يملك الإنسانَ نفعاً ولا ضرا
ولا تتواضع للولاة فإنهم ... من الكبر فى حال تموج بهم سكرا
وإيّاك أَن ترضى بتقبيل راحة ... فقد قيل عنها : إنها السجدة الصُّغرى

المنصب يصيب صاحبه بالعمى

قل لنصر والمرءُ فى دولة السلـ ... ـطان أَعمى ما دام يُدْعَى أَميرا
فإذا زالت الولاية عنه ... واستوى بالرجال عاد بصيرا

الدهر قلب

أَيُّها المستطيل بالبغى أَقصر ربّما طأْطأَ الزمان رؤوسا
وتذكَّرْ قول الإِلَه تعالى : (إن قارون كان من قوم موسى)

وقديماً قيل : على الباغى تدور الدوائر . . . وقد أَجاد الشاعر ابن جبير الاقتباس من الآية الكريمة ، وأَجاد فى إيراد نصها كما هو ، إجادةً ما فوقها إجادةٌ ، حيث لم يتكلف ولم يتعسف بل كان شعره هذا رقراقاً صافياً جارياً متدفقاً كالنهر الناصع المياه ، يجرى فوق مجراه الناصع . . ولكن من هو هذا الشخص المسمى «نَصْراً» الذى أَورد ابن جبير اسمه فى البيتين السالفين اللذين مطلعهما : (قل لنصر) ؟ إن سياق البيتين السابقين اللذين مطلعهما : (أَيُّها المستطيل بالبغى أَقصر) ربما يوحيان إلى ذهن القارىء أَن المخاطب بهما هو نصر نفسه .

صلاة العيد فى الغربة

وقال حينما وصل إلى مصر ، وتَذكَّرَ أَهله فى غَرناطة ، وهو يصلى صلاة العيد :

شهدنا صلاة العيد فى أَرض غربة بأَحواز مصر ، والأَحبة قد بانوا
فقلت لِخِلِّى فى النَّوى جُدْ بمدمع فليس لنا إِلَّا المدامع قربانُ

وخِلُّه الذى أَشار عليه بأَن يجود بالدموع ، ربما كان هو أَحمد بن حسان القضاعى الذى رافقه فى هذه الرحلة الأُولى ، من أَولها إلى آخرها . وقد ذكر مؤرخو ابن جبير أَن صلاة العيد هذه ، كان قد حضرها فى طندتة من قرى مصر المعروفة اليوم باسم (طنطا) وهى قريبة من القاهرة وتقع منها فى الشمال .

جماع الخير

قد أحدث الناس أموراً فلا تَعْمَلْ بها . إنى امرؤ ناصح
فما جماع الخير إلا الذى كان عليه السلف الصالح

وقد طرق هذا المعنى فى قالب نظم فِقْهِىّ بَحْت من قال :

وكل خير فى اتباع من سلفْ وكل شَرٍّ فى ابتداع من خلفْ

هم كسر لمنجبر

رَبِّ إن لم تؤتنى سعة فَاطْوِ عنى فضلة العمر
لا أُحِبُّ اللُّبْثَ فى زمن حاجتى فيه إلى البشر
فهمو كَسْرٌ لِمُنْجَبِرِ ما همو جبر لمنكسر

وتدل هذه الأَبيات على بَرَمِ ابن جبير حين قالها بضيق ذات يده وبِقِلَّةِ وفاء صحبه وخِلَّانِه .

فرحة غامرة

بَلَغْتَ المنى وحَلَلْتَ الحرم فعاد شبابك بعد الْهَرَمْ
فأَهْلًا بمكة أَهْلًا بها وشكراً لمن شكره يُلْتَزَمْ

قال هذين البيتين حينما وصل إلى مكة فى ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هـ [(٩)] .

---

(٩) جاء فى تعليق محمد محيى الدين عبد الحميد محقق نفح الطيب أنه ورد فى (أصل ١) ١٣ ربيع الآخر وما فى هذه النسخة هو الحقيقة المطابقة لما جاء فى كتاب رحلة ابن جبير ص ٥٨ طبعة دار صادر ، وص ٤٦ نشر مكتبة نعمان الأعظمى ببغداد ..

وتعليق المحقق المشار إليه آنفاً كان بهامش الصفحة ٢٤٩ من نفح الطيب جزء ٣ طبع مطبعة دار السعادة بمصر .

فرحة التحرك لرحلة الحج

أقــول وقــد دعا للخير داعٍ ... حَنَنْتُ له حنيـن المستهـام
حَرَامٌ أن يَلَــذَّ لِيَ اغتمـاضٌ ... ولم أَرحلْ إلى البيت الحرام
ولا طافت بِيَ الآمالُ إن لم ... أَطُـفْ ما بين زمزمَ والمقـام

حب النبي وآله وصحبه

قال ذلك عند تحركه للرحلة الحجازية[١٠] :

أَحِـبُّ النبي المصطفى وابن عمـه ... عليًّا وسبطيـه وفاطمة الزهرا..
همو أهل بيت أُذْهِبَ الرجسُ عنهمو ... وأطلعهم أُفْقُ الهدى أنجما زُهُرا
وما أَنا للصحـب الكرام بمبغض ... فإنى أَرى البغضاءَ فى حقهم كفرا
همو جاهدوا فى الله حق جهاده ... وهم نصروا دين الهدى بالظُّبَا[١١] نصرا
عليهم سلامُ الله ما دام ذكرهـم ... لدى الملإِ الأعلى، وأَكْرِمْ به ذكرا

هَذَا شعر شاعر سُنِّيِّ العقيدة والمذهب والمبدإ .

أخى كم نتابع أهواءنا

أَخى كم نتابع أهواءَنــا ... ونخبــط عشواءَها فى الظُّلَمْ
رويدك، جُرْتَ، فَعُجْ واقتصـد ... أمامك نهج الطريق الأَعمّ
وتُبْ قبل عَضٍّ بنان الأَسى ... ومن قبل قرعك سِنَّ النـدم
وقل رب هل رحمة فى غــد ... لعبدٍ بسيما العصاة اتَّسَــمْ
جرى فى ميادين عصيانـه ... مسيئاً ودان بكفـر النِّعَــمْ
فيارب صفحك عما جنى ... ويارب عفوك عما اجترم[١٢]

---

(١٠) نفح الطيب ص ٢٤٩ جزء ٣ (١١) الظبا : جمع ظبة ، والظبة حد السيف .
(١٢) نفح الطيب ٢٤٢ – ٢٤٦ ، و ٢٣٤ – ٢٥١ ج ٣ طبع مطبعة دار السعادة بمصر .

كانت غَرْنَاطةُ بَلَدُ ابن جبير تسمى (دمشق الأَندلس) لسكنى أَهل دمشق الشام بها عند دخولهم الأَندلس .. شبهوها بها لَمَّا رأَوها كثيرة المياه والأَشجار ، ويطل عليها جبل الثلج فقال ابن جبير فيها :

يا دمشق الغرب هاتيك لقد زِدْتِ عليها
تحتكِ الأَنهار تجرى وهى تَنْصَبُّ إليها

وعلَّق ابن سعيد على هذا بأَن ابن جبير أَشار إلى أَن غرناطة تقع فى مكان مشرف وغوطتها تحتها تجرى فيها الأَنهار ، ودمشق فى وهدة تَنْصَبُّ إليها الأَنهار ، وقد وصف الله الجنة بقوله : (تجرى من تحتها الأَنهار) . وإذن فغرناطة تفضل دمشق الشام من هذه الناحية .

* * *

(٢) نثر ابن جبير :

من أَشهر ما كتبه ابن جبير كتاب رحلته الذى حاز شهرة عالمية واسعة ، وله نثر قيم ، وسنورد فيما بعدُ ، نماذج قصيرة من نثره تعريفاً به.

يقولُ فى حكم منثورة له :

(إنْ شَرُفَ الإنسان ، فَشَرَفٌ وإحْسَان ، وإن فاق ، فتفضلٌ وإرفاق ، فينبغى أَن يحفظ الإنسان لسانه ، كما يحفظ الجفن إنسانه ، فرب كلمة تُقَال ، تُحْدِثُ عَثْرَةً لا تُقَال . كم كَسَتْ فلتاتُ الأَلسنةِ الحِداد من ورائها ملابِسَ حِدَاد) .

هذا وبإمكاننا أَن نستدل بآخر فقرة من هذه الحكم الْجُبَيْرِيَّةِ وهى قوله : (إنه الحنان المنان لا رب سواه) بإمكاننا أَن نستدل منها

على ثبوت نسبة كتاب رحلته إلى قلمه الفياض ، وذلك أن هذه العبارة بالذات ومثيلاتٍ لها بَلَغْنَ خمس عشرة قد وردت فى كتابه مكررة . وها نحن نورد لك طائفة منها :

أولًا : فى نهاية حديثه عن مآثر السلطان صلاح الدين قال : (والله أعلم بغيبه لا آله سواه)[١٣] .

ثانياً : فى ختام حديثه عن مدينة أخميم قال : (والله المحيط بكل شىءٍ علماً لا إله سواه)[١٤] .

ثالثاً : فى نهاية حديثه عن مدة إقامته بمكة قال : (لا إله سواه)[١٥] .

رابعاً : وفى ختام كلمته عن وصف الكعبة قال : (وهو الْمُجَازِى على الضمائر ، وخفيات السرائر . لا إله سواه)[١٦] .

خامساً : فى خاتمة حديثه عن ليالى رمضان التى قضاها فى مكة قال : (إنه الحنان المنان لا رب سواه)[١٧] .

وعبارة الكلمات الحكيمة التى نقلنا بعضها آنفاً لابن جبير ، قال فى ختامها نفس هذهِ العبارة : (إنه الحنان المنان لا رب سواه) مما يؤكد أن كل العبارات هذه إنما صدرت من فكر واحد وقلم واحد .

سادساً : فى آخر كلامه عن شهر شوال ٥٨٠ هـ قال : (إنه سميع الدعاءِ ، كفيل بالرجاءِ ، سبحانه لا إله سواه)[١٨] .

---

(١٣) رحلة ابن جبير ص ٢٨ طبعة دار صادر .
(١٤) نفس المصدر السابق ص ٣٨ .
(١٥) نفس المصدر السابق ص ٥٩ .
(١٦) نفس المصدر السابق ص ١١٧ .
(١٧) الصفحة ١٣٢ نفس المصدر السابق .
(١٨) المصدر والطبعة السابقان الصفحة ١٣٤ .

سابعاً : وفى إكمال فصل : (مناسك الحج) قال : (إنه سبحانه لطيف بعباده ، لا إلّه سواه)[١٩] .

ثامنا : وفى آخر حديث استنكاره لوضع السوق فى المسجد الحرام قال : (والله غالب على أمره لا إله سواه)[٢٠] .

تاسعاً : وفى تمام فصل (شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ) قال : (وهو أهل الحمد والشكر ومستحقه لا إلّه سواه)[٢١] .

عاشراً : وفى نهاية فصل : (مشاهد دمشق وآثارها) قال : (والله أعلم بحقيقة ذلك ، لا إلّه سواه)[٢٢] .

الحادى عشر : وقد اخْتَتَمَ فَصْلَ : (من أعظم مناظر الدنيا) — بقوله : (والقدرة لله الواحد القهار ، لا إلّه سواه)[٢٣] .

الثانى عشر : أكمل فصل : (مسلمو عكة) بقوله : (وهو سبحانه وَلِىُّ ذلك ، لا رب غيره)[٢٤] .

الثالث عشر : وفى نهاية فصل : (شهر رجب الفرد عَرَّفَنا الله بركته ويُمْنَهُ) قال : (لا إلّه سواه)[٢٥] .

الرابع عشر : وفى إتمام فصل : (الرياح العاصفة الغربية) قال : (لا رب سواه)[٢٦] .

---

(١٩) نفس المصدر والصفحة ١٤٠ .
(٢٠) المصدر السابق الصفحة ١٦٠ .
(٢١) المصدر السابق الصفحة ١٦٨ .
(٢٢) المصدر السابق الصفحة ٢٥٤ .
(٢٣) المصدر السابق الصفحة ٢٦٧ .
(٢٤) المصدر السابق الصفحة ٢٨٠ .
(٢٥) المصدر السابق الصفحة ٢٨٥ .
(٢٦) المصدر السابق الصفحة ٢٩٢ .

الخامس عشر : وكان ختام فصل : (الزوارق المغيثة) قوله : (والحمد لله على مامَنَّ به علينا من حُسْنِ نظر الكفيل بنا ، لا إلّه سواه[٢٧]).

هذا التوافق التام فى عبارة واحدة بين الْحِكَمِ النَّثْرِيَّةِ ، لابن جبير ، وبين رحلته يَدْعَمُ نظريتنا فى أنهما صادرتان من فِكْرٍ واحد ، وقَلَم واحد . والمثل السائر يقول : (البعرة تدل على البعير) بمعنى أن الأَثر يدل على الْمُؤَثِّر .

وقد أشار المستشرق كراتشكوفسكى إلى أن ابن جبير ترك رسائل نثرية كسبت بعض الشهرة[٢٨] .

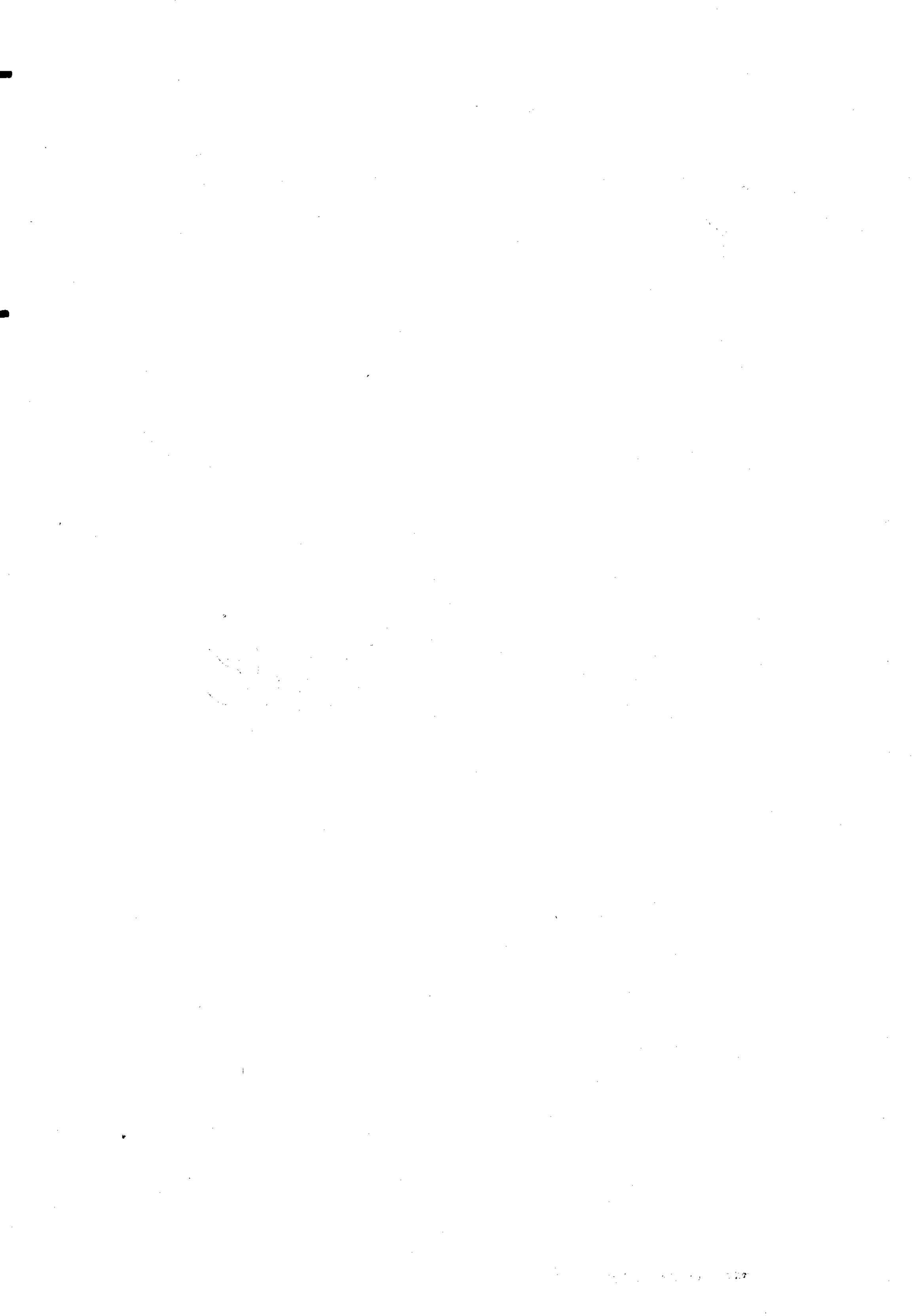
---

(٢٧) المصدر السابق الصفحة ٢٧٦ .

(٢٨) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، الصفحة ٢٩٩ من القسم الأول .

الفصل الثامن

مع ابن جُبَيْر من غرناطة إلى الإسكندرية



انفصاله من غرناطة :

فى الساعة الأُولى من يوم الخميس ٨ شوال سنة ٥٧٨ هـ = فبراير ١١٨٢ م بدأ محمد بن جبير رحلته الأُولى إلى مكة ومعه صديقه وزميله فى البلد ، أَحمد بن حسان القضاعى ، قَاصِدَيْنِ حجَّ بيتِ الله الحرام وقد سارا بَرًّا مَارَّيْنِ ببعض المدن الأَندلسية التى ذكرها فى رحلته ، حتى وصلا قصر مصمودة رأْس شمال إفريقية المقابل للأَندلس ، ومنه ارتحلا إلى مدينة سِبْتَةَ فوجدا بها مركباً للروم الْجَنَوِيِّينَ (أَهل جنوة بإيطاليا) مُقْلِعاً إلى الإسكندرية فركباه إليها ، وقد قابلتهما أَهوال مزعجة من البحر ، حتى أَشرف المركب على الغرق ، فقد هبت عليه عواصف شديدة سقط معها شِرَاعُهُ الكبير فلجأَ الْبحَّارَةُ (البحريون) إلى استعمال الشُّرُعِ الصغار ، ولكنها لم تسلم كلها أَيضاً من العطب ، ثم ظهر لهم بَرُّ صِقِلِّيَة ، ثم ظهر جبل بركان (اتنا) فى صِقِلِّيَة . وقد قالَ عنه ابن جبير إنه : (جبل عظيم مُصْعِدٌ فى جو السماء ، قد كساه الثلج ، ويظهر فى البحر مع الصَّحْوِ على أَكثر من مسيرة ميل ، ومن ثم ساروا مسرعين يحاذون بر جزيرة (إقريطش) (كريد) التى بينها وبين الإسكندرية (٦٠٠) ميل أَو نحوها وذلك تقديراً لاعياناً ، ثم ظَهَر لهم البر الكبير المتصل بالإسكندرية وحاذوا موضعاً بعرف بجزائر الحمام ، يقع بين السُّلُّوم وطبرق . يقول ابن جبير : إنَّ بينه وبين الإسكندرية نحو (٤٠٠) ميل . وفى ٢٩ من شهر ذى القِعْدة ٥٧٨ هـ = ١١٨٢ م رأَوا منار الإسكندرية على نحو عشرين ميلًا . وفى آخر الساعة الخامسة من ذلك اليوم دخلوا ميناءَ الإسكندرية .

لقد حدد ابن جبير الساعات والأَيام والشهور لهذه الرحلة مما يوحى أَنه كان مُمْسِكاً (دفتر يوميات) كان يسجل فيه الأَحداث أَولًا بأَول

وبانتظام ، ومما يجعلنا نُقَدِّر أنه كان معه ساعة يأْخذ منها توقيت وقوع تلك الأَحداث . . بالساعات فى كثير من الأَحيان .

ابن جبير فى الإسكندرية :

نزل ابن جبير إلى مدينة الإسكندرية مع صحبه من الحجاج فى ثانى يوم من شهر ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ وقد ذكر لنا أَن ذلك اليوم كان يوم الأَحد ، وقد طلع عليهم (أُمَنَاءُ الميناءِ) ليقوموا بتفتيشهم فقيدوا جميع ما جُلِب فى ذلك المركب ، واستحضروا كل من فيه واحداً واحداً ، وكتبوا أَسماءَهم وصفاتِهم ، وأَسماءَ بلادهم ، وسئل كل فرد منهم عما لديه من النقود والسِّلَع ليؤَدى زكاته . وقد انتقد ابن جبير هذه الظاهرة نقداً مريراً فقال : إن المفتشين هؤلاءِ لم يبحثوا عما حال عليه الْحَوْلُ من النقود وما لم يَحُلْ ، وأَكثر الركاب المسلمين قادمون لأَداءِ فريضة الحج ، ولم يكن معهم سوى زادِ طريقهم ، ومع ذلك أُلْزِمُوا بأَداءِ زكاة سِلَعِهِمْ ، وقد اغتاظ ابن جبير من إجراءَات التحقيق الدقيق مع صديقه أَحمد بن حسَّان ، ومن طواف الأُمناءِ به محروساً على السلطان صلاح الدين أَولًا ، وعلى قاضى الإسكندرية ثانياً ، وعلى أَهل الديوان ثالثاً ، وعلى جماعة من حاشية السلطان رابعاً . وفى كل ذلك التطواف كان يسْأَلُ وتُقيَّدُ إجاباتُه ثم أُطْلِقَ سراحه .

وربما كان نقد ابن جبير لدقة أُمناءِ ميناءِ الإسكندرية فى التفتيش فى غير محله ، فابن جبير يعرف شدة عَدَاءِ الصليبيين الْغُزَاةِ للشرق الإسْلامى وشرق البحر الأَحمر المتوسط خاصة ، ويَعْرِفُ ما ينبغى إقراره من الأَمن ، والاستقرار فى هذه البلاد ، ويعرف أَن ميناءِ الإسكندرية كان وما زال أَعظم ميناء وأَهَمَّهُ ، ترد إليه السفن والركاب المختلفو الجنسيات

والنزعات ، من غرب البحر الأحمر المتوسط وشماله الغربي فصلاح الدين من هذه الناحية وهو حارس هذه البلاد الأمين ، له الحق كل الحق فى تدقيق التفتيش على الواردين ، وما يرد معهم ، حتى لا تجد أفواج الدسائس والدساسونَ والجواسيسُ مسرباً لهم من هذا المنفذ البحرىّ العالمىّ الذى يَلِجُهُ كلٌّ من هبَّ ودبَّ ، ولهذا نرى أن استنطاق أحمد بن حسان على دِقَّتِه كان له ما يسوغه وهو ضمن إجراءات حفظ الأَمن الضرورية . وابن جبير يعرف أن قدومهم إلى ميناءِ الإسكندرية كان على مركب لخصوم صلاح الدين الأُوربيين الذين لابد أن لهم صلات خفية وثيقة بالصليبيين . وربما كانوا جواسيس لبنى ملتهم على المسلمين ، وحجاجُ المسلمين من الأَندلس والمغرب القادمون عبر هذا الْمَمَرّ المائىِّ ليسوا كلهم سواء فى الصلاح والتقوى والاستقامة والإخلاص لدين الإسْلام ونبي الإسْلام ، كابن جبير . وبلادهم مكتظة بالمسيحيين الذين لا بد أن تكون لهم روابط متينة مع الصليبيين ، وبهذا يتجلى أن صراحة إجراءات تفتيش الأُمناءِ للقادمين حجاجاً وغير حجاج ، لا غبار عليه ، وهو دليلُ يقظةٍ إسْلامية للمتربصين بديار الإسْلام فى ربوع هذا المشرق ، فلا لوم مطلقاً على صلاح الدين ولا تثريب على عماله حيال هذا الصنيع ، بل إنه يستحق الشكر والثناءَ حيال هذا الفعل الحميد فالظروف عرفية خطيرة ، ولذلك فلسنا مع ابن جبير فى تجريده سيف النقد العنيف على أُمناءِ الإسكندرية حيال تحقيقاتهم الضرورية العادلة . أما أَخذهم للزكاة من الأَموال الواردة نقوداً وسِلَعاً ، فليس فيه ما يقال أيضاً ، لأَن المسلمين فى ديار مصر وغيرها من بلاد المشرق كانوا بزعامة السلطان صلاح الدين فى حالة حرب شعواءَ مع الصليبيين بحراً وبَرًّا ، وهم وهو فى حاجة متصاعدة ومترامية دَائِماً إلى مزيد من النقود ليواجهوا بها هذا البحر الطامىَ

المتدفق عليهم من وراء البحار لقتالهم ، وللقضاء على مقدساتهم ، وعلى دينهم وعليهم معاً .

فابن جبير لم يكن تشهيره هذا بصلاح الدين وأُمنائه فى مصلحة الإسْلام والمسلمين ، ولا فى مصلحته ولا فى مصلحة الحجاج القادمين معه ، وقد رأيناه فيما بَعْدُ يعود فيكيل الثناء فياضاً على عدل صلاح الدين ، وفضله على المسلمين ، واستقامة أحواله ، وقيامه بصدِّ السيول الجارفة القادمة من كل فج عميق . والشاعر الحكيم يقول :

احـــــذر عدوك مـــــرة   واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصـــديق   فكان أعرف بالمضـــرة

ونعتقد أنَّ ابن جبير لو تذكر هذه الحكمة لَغَيَّرَ وجهة نظره السلبية ، إلى نظرية إيجابية ، ولَشَكَر إذن لعمال السلطان العادل حَزْمَهُمْ ويقظتهم . وابن جبير بنفسه على علم أكيد، وتجربة واقعية مريرة بما تعج به فى حَنَقٍ بالغ، صدور الإفرنج من الحقد العارم على العرب والمسلمين إذ ذاك . . فكانوا يسعون لهدم كيانهم وابتلاعهم بكل الطرق الشيطانية التى يعجز حتى الشيطان نفسه عن القيام بها، فقد حَدَّثَنَا ابن جبير نفسه حديثاً عجيباً مليئاً بالمرارة والأسى عن تورط بعض كبار المسلمين فى جزيرة صقلية فى شباك دسائس الإفرنج ضد إخوانهم المسلمين فى ديار الشرق والغرب معاً . وأغرب شاهد على ذلك ما رواه لنا فى رحلته عن القائد (أبى القاسم بن حَمُود) ذى المكانة العالية ، والزعامة المرموقة فى مملكة صقلية ولقد أضفى عليه ابن جبير ألقاب الزعامة الإسلامية فى الوسط الصقلىّ وأثنى على عمله الصالح المصلح ، وقرر أنَّ له أياديَ بيضاً جليلة على المسلمين فهو يقوم دائماً بافتكاك الأسرى منهم بحُرِّ مَالِه وبجاهه ،

يبتغى بذلك وجه الله وحده ، هذا إلى إكرامه الدائم للحجاج المسلمين القادمين إلى الحج ، والآيبين منه ، وتأمين احتياجاتهم ، وترحيلهم إلى اتجاهاتهم . ومع ذلك لم يَسْلَمْ من عدوان ملك صقلية وغلواء حقده ، فقد بلغ هذا الملكَ من جواسيسه على المسلمين فى بلاده أَنَّ أَبا القاسم بن حمود هذا كانت له علاقات سياسية ودينية خفية مع ملوك الموحدين فى الأندلس؛ فكان يخاطب سِرًّا ملوكهم ، فكادت هذه الأَنباءُ تقضى عليه (لولا حارس المدة) كما يقول ابن جبير ، وقد عاقبه بمصادرة أَمواله وأَملاكه فى صِقِلِّيَةَ ، فأَمر الملك غليام الثانى بأَن يُغرَّم ماينيف على ثلاثين أَلف دينار مُؤْمنيَّةٍ[1] وظل أَمره يتدانى حتى بقى مفلساً بدون مال ولا جاه، على كثرة عياله وآله ، والتزاماته ، ثم عَنَّ للطاغية المذكور أن يستخدمه فى (بعض أشغاله السلطانية) التى نرى أَنها ، غالباً ما تكون ضد مصلحة المسلمين المجاورين لصقلية ، فاضطر القائد الزعيم أَبو القاسم تحت ضغط ذلك (العزل السياسىّ) القاسى وتحت طائلة المصادرة الشاملة أَن يَحْنِيَ رأْسهُ للعاصفة ، وأَن يستقبل تكليف الملك غليام الثقيل له ، بالامتثال والطاعة ، فلما أَنجز المهمة الصعبة الموكولة إليه ضد بنى ملته – كما نرى – عفا عنه الملك غليام وأَعادهُ إلى حظيرة رضاه، وأَعاد إليه أَمواله وأَملاكه الْمُصَادَرَةَ . فَسُرَّ بذلك ظاهراً ، ولكنه تحمل الأَلم الممض باطناً . مما جعل القصة لم تتم فصولها فقد اتفق بعدئذ أَن اجتمع بابن جبير سِرًّا فى صقلية حين قدومه إليها عائداً إلى غرناطة، فأَفضى إليه بمعلومات خطيرة عن أَوضاع مسلمى جزيرة صقلية بالنسبة للسلطة الحاكمة الغاشمة . ولما سمع ابن جبير منه ما سمع لم يَسَعْهُ إلا أَن

---

(١) تساوى إذ ذاك خمسة عشر ألف دينار مصرية فيما قرره ابن جبير فى كتاب رحلته ، بمعنى أن الدينار المؤمنى يساوى نصف الدينار المصرى يومئذ .

يدون شعوره الحزين إزاء ما سمع فقال فى ذلك : إنه (يبكى العيون دماً ، ويذيب القلوب أَلماً) ومن ذلك أَنه قال لابن جبير ضمن حديثه السِّرِّىِّ : (كنت أَودُّ لو أُبَاعُ أَنا وأَهل بيتى ، فلعل البيع كان يُخَلِّصُنا مما نحن فيه ويُؤَدِّى بنا ، إلى الحصول فى بلاد المسلمين) . وقد عقب ابن جبير على هذا التصريح الخطير بقوله : (فَتَأَمَّلْ حالا يُؤَدِى بهذا الرجل مع جلالة قدره وعظم منصبه إلى أَن يتمنى مثل هذا التمنى ، مع كونه مُثْقَلًا عيالًا وبنين ، وبنات ، فَسَأَلْنَا له من الله عز وجل حسن التخلص مما هو فيه ولسائر المسلمين من أَهل هذه الجزيرة . وواجب على كل مسلم الدعاءُ لهم فى كل موقف يقفه بين يدى الله عز وجل . وفارقناه باكياً مبكياً[٢]) .

(عمران الإسكندرية وآثارها)

صاغ ابن جبير عقوداً لؤلؤية متوهجة من الثناء وقلد بها جيد مدينة الإسكندرية ؛ فقد أَعجبه كثيراً (حسن وضع البلد واتساع أَزقته أو مبانيه) ، فقال : إنه (لم يشاهد أَوسع مسالك منه ، ولا أَعلى صيتاً ، ولا أَعتق – أَى أَجمل – ولا أَحفل[٣] منه) . ووصف مدينة الإسكندرية بأَنها مدينة مزدوجة وبالتعبير الأَدَقّ فإِنَّها مدينتان : مدينة علوية ، ومدينة سفلية ، وقال : إن ماء النيل يخترق جميع ديارها – أَى دورها – وأَزقتها تحت الأَرض فتتصل الآبار بعضُها ببعض ، ويُمِدُّ بعضُها بعضاً . ومن مواضع إعجابه البالغ ، سوارى الرخام بالإسكندرية وأَلواحه المتكاثرة العالية والمتسعة ، على أَنه ذكر أَنه لا يدرى ما معناها ، ولا ما كان أَصل

---

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣١٤ طبعة دار صادر ببيروت .
(٣) يقصد ابن جبير بالحفل هنا كثرة ازدحام الناس فى البلد وأسواقه .

وضعها . ولم يَقبل عقله الواعى الرواية القائلة إنه كان عليها بالقديم مَبَانٍ للفلاسفة ، ولأَهل الرئاسة فى ذلك الزمان . ومال إلى أن بناءها هكذا هو للرصد ، أَما منار الإسكندرية فقد بلغ إعْجاب ابن جبير مبلغاً عَظيماً فأَفرد له وصفاً خاصًّا مسهباً ، وذكر أَن فى أَعلاه مسجداً طلع إليه يوم الخميس فى الخامس من ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ وصلى فيه ، وقال عن هذا المنار إنَّه :(آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، لَوْلاَهُ ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية يظهر على أَزيد من سبعين ميلًا ، ومبناه غاية العتاقة – أَى القدم – والوثاقة ، أَى القوة) وقد ذَرَعَ أَحَدَ جوانبه الأَربعة فإذا به نيف وخمسون باعاً .. وطوله فيما يَذْكُرُ أَزيد من مائة وخمسين قامة ، وداخلهُ ذو مرأَى هائل ، اتساعَ معارج (أَى سلالم) ومَداخِلَ وكثرةَ مساكن ، حتى إن المتصرف فيها والوالج فى مسالكها ربما ضل[٤] وأَرى أَنه يقصد بالمتصرف فيها – معنى « المدير لشؤونها » على التعبير العصرى المعروف اليوم .

مدينة الإسكندرية كما شاهدها ابن جبير

وكانت مدينة الإسكندرية حينما دخلها ابن جبير مدينة عامرة ذات اكتفاءٍ ذاتىّ فى مشروعات التعليم والاقتصاد ، والطب علاجياً ووقائياً . ففى حقل التعليم كانت عامرة بالمدارس والمحارس[٥] التى تُجْرَىَ على المعلمين والمتعلمين والأَطباءِ وغيرهم لمصلحة الوطنيين والوافدين .. يقول ابن جبير فى ذلك : (واتسع اعتناءُ السلطان بهؤلاءِ الغرباءِ الطارئين حتى أَمر بتعيين حمامات يَسْتَحِمُّونَ فيها متى احتاجوا إلى ذلك ونَصَبَ لهم مارستاناً (مستشفى) لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أَطباءَ يتفقدون

(٤) المصدر السابق الصفحة ١٤ ، ١٥ .
(٥) يعنى بالمحارس الأماكن المخصصة لإيواء الدارسين والزهاد والمسافرين والفقراء .

أحوالهم، وما قدمه السلطان صلاح الدين للغرباء الطارئين فى هذا الشأن يشمل الوطنيين المقيمين بطبيعة الحال وبطريقة أولى وأوسع .

ودليل ذلك أن ابن جبير تحدث عن أهل بلده (أى بلد صلاح الدين) فوصفهم بأنهم فى غاية الترفيه ، واتساع الأحوال ، ولا يحتاجون إلى المبرة السلطانية المجراة من قِبَلِ صلاح الدين على الغرباء .

فوائد الدولة من الإسكندرية

من شمول ملاحظات ابن جبير نراه يحصر لنا فوائد السلطان فى مدينة الإسكندرية فى ثلاث : الأوقاف المحبسة المعينة من قبله لهذه الْوُجُوهِ وجزية اليهود والنصارى ، وما يطرأُ من زكاة العين خاصة ، وليس له منها سوى ثلاثة أثمانها . والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة (٦) .

مكرمة إسلامية لصلاح الدين

يحدثنا ابن جبير عن إحدى مكارم السلطان صلاح الدين فيقول :

(خرج ذات يوم على سبيل التطلع خارج بلده فتلقى جماعة من الحجاج قد لفظتهم الصحراءُ المتصلة بطرابلس وقد ذهبت أجسامُهُمْ من العطش والجوع ، فسألهم عن وجهتهم مستطلعاً أحوالَهُم .. فأخبروه بأنهم قاصدون بيتَ اللهِ الحرامَ ، وبأنهم ركبوا البر وكابدوا مشقة صحرائية ، فقال : لو وصل هؤلاء ، وهم قد اعتسفوا هذه المجاهل التى اعتسفوها ، وكابدوا من الشقاءِ ما كابدوه ، وبيد كل واحد منهم زِنَتُهُ ذهباً وفضة لوجب أن يُشَارَكُوا ولا يُقْطَعُوا عن العادة التى أجريناها لهم) .

مدينة الإسكندرية فى عمرانها المزدوج وفى حياتها الاجتماعية

سبق لنا أن روينا ما حدثنا به ابن جبير عن ازدواج عمران الإسكندرية

(٦) المصدر السابق ص ١٦

فهى بَلَدَانِ يقوم أحدهما فوق الآخر . وقد تابع ابن جبير وصف ملابسات ذلك العمران المزدوج فقال : (ومن الغريب أيضاً فى أحوال هذا البلد [أن] تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أَحوالهم) ومعنى هذا أن الإسكندريين ، كما لهم من مدينتهم بَلَدَان ، فهم يقومون بالعمل فيهما بالملوين : (الليل والنهار معاً) .

مساجد الإسكندرية

أورد ابن جبير تقدير الناس لعدد هذه المساجد ، فمنهم المُكَثِّر الذى يقدرها باثنى عشر أَلف مسجد ، ومنهم الْمُقَلِّلُ الذى يقدرها بثمانية آلاف أَو نحوها . ومن هذه المساجد : مساجد وصفها ابن جبير بأَنها (مُرَكَّبة) بمعنى أَنها مؤلفة من مسجد ومدرسة وغيرهما . ولكل هذه المساجد أَئمة مرتبون من قِبَلِ السلطان . منهم من له راتب شهرى قدره خمسة دنانير مصرية ، ومنهم من له فوق ذلك أَو دونه .

الفصل التاسع

الفُنْدُق لُغة، الفنادق التى نزل فيها ابن جُبير

الفَنْدَقَةُ فى الحضارة الإسلاميّة

الفندق فى اللغة :

الفندق – كقُنْفُذ – من الكلمات المعجمية ، أى التى أوردها أصحاب المعاجم العربية وحللوها وشرحوا معانيها وأوردوا أصلها ؛ حسب ما توصل إليه علمهم . . ويرى « لسان العرب » لابن منظور الأنصارى أنها كلمة فارسية المنشأ فيقول : « الفندق : الخان ، فارسى ، حكاه سيبويه » ومع ذلك أورد أن الفندق يطلق لغة على « حمل شجرة مدحرج كالبندق ، يكسر عن لب الفستق » . وذكر ابن منظور أن « الفندق بلغة أهل الشام خان من هذه الخانات التى ينزلها الناس مما يكون فى الطرق والمدائن » . . والذى توصلنا إليه من دراسة رحلة ابن جبير أن أهل الشام يُسَمُّون ما يعرف لدى أهل مصر والحجاز والمغرب بالفندق ، ومثلهم أهل العراق ، وديار بكر – يُسَمُّونه « خاناً » .

وقد تُقْلَبُ دالُ الفندق إلى تاءٍ لدى قضاعة ؛ قال الفراءُ : سمعتُ أعرابياً من قضاعة يقول « الْفُنْتُقُ » وقد ورد فى لسان العرب « الفُنْدَاقُ » : يطلق على صحيفة الحساب » ، (مادة فندق) .

أما تاج العروس شرح القاموس ، فإنه قد نص على أن لغة أهل الشام تُسَمِّى الفندقَ (خانا) راجع (مادة فندق) .

وللفندق مفاهيم أُخرى فهو موضع قرب المَصِّيصة ، وهو لقب مُحَدِّث وفندق الحسين موضع و « الفُنَيْدِق » بالتصغير موضع بحلب . . وهناك كلمة لها صلة بصيغة الفندق . ألا وهى (الفُنْدَاق) . . . فهو بمعنى صحيفة الحساب كما قَدَّمْنَاه آنفاً . وقال الأصمعى : أحسبه معرباً . وفى الديباج المُذَهَّب لابن فرحون ما نصه : « ولما مات مالك رحمة الله تعالى خرجت كُتُبُه فأُصيبَ فيها فناديقُ عن ابن عمرَ رضى الله تعالى عنه

ليس فى الموطأ منه شئ إلا حديثين .. وقال ابنه : « لما دفنا مالكاً دخلنا منزله فأَخرجنا كُتُبَه ، فإذا فيها سَبْعُ فناديقَ من حديثِ ابن شهاب ، ظُهُورُهَا وبُطُونُهَا ملأَى ، وعنده فناديقُ أَو صناديقُ من حديث أَهل المدينةِ .. الخ»[1] ، فقد ظهر مما ذُكِرَ أَن (الفنداق) كلمة بمعنى الصحيفة سواءٌ أكانت فى الحساب أم فى العلم .

الفنادق الذى نزل فيها ابن جبير :

هذا وحينما وصل ابن جبير إلى الإسكندرية بحراً نزل بفندق (الصَّفَّار) بِمَقْرُبَة من الصَّبانَة . ثم نزل بفندق أَبى الثَّنَاءِ بمصر القديمة الذى يقع فى زُقَاق القَناديل بمقربة من جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، نزل فيه هو وصحبه فى حجرة كبيرة على بابه[2] .

ثم نزل بها بفندق ابن العَجَمِىّ بالمُنْيَة فى مدينة (قوص) والمُنْيَة هذه رَبَضٌ كبير خارجَ مدينةِ (قوص) وقد نزلوا فيه على بَابِ الفندق أَيضاً . وقوص هذه التى بها الفندق المذكور هى « مَحَطٌّ الرحال ومجتمع الرِّفَاق وملتقى الحجاج المغاربة والمصريين والإسكندريين » ومن يتصل بهم ، فيحق لها أن يكون بها هذا الفندق .

---

(١) الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكى جـ ١ ص ١١٢ ، ١١٣ نشر دار التراث بالقاهرة .

(٢) رحلة ابن جبير بالصفحة ١٩ ، ويلاحظ أن ابن جبير ذكر مراراً أن نزوله هو ومن معه فى الفنادق أثناء رحلته كان « فى حجرة كبيرة على باب الفندق » ، فلربما كان هناك سر خاص أو عام لم يشر إليه وراء نزوله فى الحجر والأبواب المذكورة .
على أنه ربما كان الباعث على ذلك اتساع هذه الحجر لأكثر عدد من النزال وقربها فى الدخول والخروج .

وفى طريق عودته من بلاد المشرق إلى بلاد الأَندلس نزل بخان أَبى الشُّكْر نزل به هو ومن معه .. وهو فى رَبَض[٣] مدينة حلب .

ثم نزل (بخان التركمان) ويقع فى موضع يُعْرَفُ بـ (باقِدِين) . وقد وصفه ابن جبير بأَنه وثيق الحَصَانة . واستطرد إلى وصف خانات هذا الطريق فأَعطانا طُرُزَ بنائها التى شاهدها ، فهى كالقلاع امتناعاً وحصانة .. وأَبوابها حديد ، وهى من الوثاقة فى غاية[٤] .

ثم نزل (بخان تَمْنَى) ويقع فى موضع يعرف بهذا الاسم[٥] .

ثم نزل (بخان حماة) وحماة مدينة قريبة من حمص فى بلاد الشام[٦] .

ثم نزل (بخان قرية القَارَة) وهو فندق يقع فى قرية القارة من قرى بلاد الشام[٧] .

ثم نزل (بخان السلطان) أى السلطان صلاح الدين . وقد بَنَى هذا الخانَ – على ما يقوله ابن جبير – صلاح الدين صاحب الشام وهو فى غاية الوثاقة والحسن .. بباب من حديد على سبيلهم فى بناءِ خانات كل هذه الطرق واحتفالهم فى تشييدها[٨] .

---

(٣) الربض لغة هو : المساكن والبيوت التى تبنى حول المدينة . وأهل جهة الشام والجزيرة يغلب عليهم استعمال الخان بمعنى الفندق . وقد وردت هذه الصيغة الأجنبية فى كثير من كتب الرحلات والتاريخ والجغرافية بهذا المعنى قديماً وحديثاً . ذكر ابن جبير نزوله بهذا الفندق فى ص ٢٢٨ طبعة بيروت .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر والصفحة ٢٢٩ .

(٦) نفس المصدر والصفحة ٢٢٩

(٧) نفس المصدر والصفحة ٢٣٣ .

(٨) نفس المصدر والصفحة ٢٣٣ .

هذا وقد ذكر ابن جبير أن بجدة – لما نزل بها – فنادق مبنية بالحجارة والطين وفى أعلاها بيوت من الأَخصاص كالغرف . ولها سطوح يُسْتَراحُ فيها بالليل من أذى الحَرّ . كما ذكر ابنُ بَطُوطَة فى رحلته أَن بكلِ منزل من منازل الرمال مثلِ السوادة والوَارِدَة والطَّيْلَب والعريش والخَرُّوبَة فندقاً – وهم يسمونه (الخان) ينزله المسافرون بدوابهم ، وبخارج كل خان ساقية للسبيل وحانوت يشترى فيه المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته[٩] .

الفندقة فى الحضارة الإسلامية

كانت الفندقة صناعة رائجة وأَصيلة فى بلاد العرب والإِسلام من أَقصى شرقها إلى أَقصى غربها ، يشير إلى ذلك ما أَورده لنا ابن جبير من أَسماء الفنادق التى نزل بها فى رحلته الطويلة المدى فى البلاد الإِسْلامية .

ومما يلاحظ أَن وجود الفنادق فى البلاد الإِسلامية إذ ذاك فى الغالب الأَعم بالمدن الكبيرة ذات الحركة التجارية الواسعة التى هى مثابة وتجمع للسائحين والتجار وأكثر هذه المدن فنادق هى مدنُ السواحلِ البحرية المقصودة . . .

وبالنظر لما أَشرنا إليه من أَن صناعة الفنادق عربية المنشأَ والأَصل وقد أَسلمها سَلَفُنَا فى حضارتهم الزاهية للحضارة الغربية الحاضرة – كما سنوضحه فيما بعد – فإننا ندعو أَصحاب هذه المهنة من العرب والمسلمين المعاصرين . إلى تعديل خطة تسمية فنادقنا العربية الحديثة فى بلاد العرب والإِسْلام بأَسْماءٍ[١٠] إفرنجية بحتة ثقيلة على اللسان العربى والذوق

(٩) رحلة ابن بطوطة ص ٥٤ طبع دار صادر بيروت .

(١٠) (أسماء) إذا كانت جمع اسم . . فهى مصروفة . قال تعالى : (إن هى إلا أسماء سميتموها) .

العربى . وهى لا تمت إلى حضارتنا ولغتنا وتقاليدنا بأية صلة وذلك مثل فندق انترناشيونال . وفندق أنايسس . وفندق فينيسيا و (سان جورج) و (كنجز هوتيل) و (شبرد) إلى آخر هذه التشكيلة العجيبة التى يمكن اعتبارها ـ لُغَوِيًّا ـ جُزْءًا من خطة الغزو الفكرى الأَجنبى ، لبلادنا الإسلامية والعربية لقد كان من الملائم للأُمة العربية والإسلامية وهى الآن تسير فى مستهل صحوة عربية إسلامية حثيثة تُجدد بها ما أتلفه الغزوُ الاستعمارىُّ الغربىُّ أَن تضع لفنادقها فى سائر البلاد العربية والإسلامية أَسماءً عربية خالصة ، من صميم بيئتنا ولغتنا على النحو الذى حَدَّثَنَا به ابن جبير فى رحلته . وبالمناسبة نذكر هنا بعض الأَسماء المتخذة حديثاً لبعض الفنادق ببلاد العرب والإِسْلام ، وهى عربية السِّمات والأَلفاظ جميلة الإيقاع على آذاننا موافقة لأَذواقنا مثل فندق دار السرور الذى أَنشأَه المرحوم السيد عبد الله مدنى بالمدينة فى العهد العثمانى وبقى إلى عهد الدولة السعودية الحاضرة . وقد وصفه إبراهيم رفعت فى كتابه «مرآة الحرمين» وفندق الحرمين ، وفندق مكة ، وفندق مُكَرم ، وفندق المدينة ، وفندق الأَنصار وفندق الحرم ، وفندق الفتح ، وفندق التاج ، وفندق البحرين ، وفندق النُّور ، وفندق أُمية ، وفندق الجزيرة ، وفندق الرِّحاب ، وفندق الرياض ، وفندق اليمامة ، وفندق بهاء الدين ، وفندق حسان بالرِّباط عاصمة المغرب ، وفندق (مرحبا) ، وفندق المنصور بالدار البيضاء .

فلله در هؤلاءِ الفندقيين الذين أَطلقوا على فنادقهم أَسماءً عربية فصيحة ذات صلة ببيئتنا وتراثنا الخالد ، ولغتنا العربية المِعْطاءِ ، وإننا لنأْملُ أَن يقتدىَ بهم بُنَاةُ الفنادق وأَصحابها فى سائر بلاد العرب

والمسلمين حاضراً ومستقبلًا . ويعد هذا الأمر إذا تحقق مظهراً قيماً من مظاهر الاستقلال الاقتصادى الذى يعد بدوره ، دعامة الاستقلال السياسىّ .

ونقول بالمناسبة : هل وصل إلى مسامعنا أو علمنا أسماءُ فنادقَ كبيرةٍ غربيةٍ منشأةٍ فى بلاد الغرب قد وضعوا لها أسماءًا عربية إسلامية ؟ لا شك فى أن جُلَّ الغربيين - إن لم نَقُلْ كلهم - يعتبرون هذا (لو حدث كثيراً فى بلادهم) نشازاً ، ونكايةً سافرة بالنسبة لحياتهم . ومدنيتهم الحاضرة ، ومحاولةً لتمزيق مجتمعهم التقليدى فهل من مدَّكر ! ! ؟

هذا ولم يكن ما قلناه آنفاً عن أصل صناعة الفندقة ، من القول الجزاف أو من إطلاق الكلام على عواهنه ، فهو قول له مستنداته : جاء فى كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) (لزيغريد هونكه) الألمانية الذى عربه فاروق بيضون ، وكمال دسوقى - ما نصه : « ففى كل الموانئ ، وفى كل منافذ الحدود أنشأ فردريك بيوتاً حكومية على نمط الفنادق العربية . وبالاسم العربىّ نفسه ، وجعلها تخدم المسافرين والتجار وتُعِدُّ لهم مبيتهم .. وكان على المسافرين أن يقدموا ما يحملونه من البضائع لموظفى الجمارك فى تلك الفنادق ، فَتُوزَن وتُقَدر عليها المكوسُ تبعاً لقيمتها ووزنها .

ثم شرحت المؤلِّفَةُ الألمانية كيف انتقلت صناعة الْفَنْدَقَةِ من مملكة صقلية وإيطالية التى نقلتها من حضارة العرب ، كيف انتقلت الْفَنْدَقَةُ إلى بلاد أُوروبا بالتسلسل ، والتدرج ، فقالت : (وبدأت الْمُدُنُ الأُوروبية الأُخرى تُقَلِّدُ ما حدث فى المدن الإيطالية وصقلية ، وانتقلت الفكرة إلى ألمانيا عن طريق المسافرين والفرسان ، وحملت معها تغيراتها العربية لتصبح كلمات ألمانية مثل فندق Fondeco ومخزن Magazin وترسانة

أو مخزن عسكرى Arseni وديوان Duane وجباية Gabelle والعوارى بمعنى عطل فى بضائع المركب Havane وقابل سلك أو حبل سميك Kabel ومخاطرة Mohatra و Risiko بمعنى مغامرة و Sechecke أى صك و Sterling استرلينى و Tara بمعنى طرحة و Tarif بمعنى تعريفة وغيرها[11] .

وهناك دليل آخر أعمق وأوسع على أن الْفَنْدَقَة كانت صناعة عربية أَصيلة رائجة ، وعلى أَنها انتقلت من العرب فى حضارتهم الإسلامية إلى أُوروبا فقد : (تأَثر المسلمون فى الأَندلس بنظام الفندق الذى كان شائعاً عند اليونان باسم Agogora والرومان باسم Horrea فاستخدموا هذا البناء فى مُدُنِهِمْ . ومن العجيب أَن الفندقَ الإِسْلامىّ فى الأَندلس ظل معروفاً فى إسبانية المسيحية ، وكان يُعرف باسم Alhondiga أَو Alfondiga ومنها اشتقت اليوم كلمة Fondu وتعنى بالاسبانية فندقاً يأْكل فيه النزلاءُ وينامون[12] .

وهذا نص آخر يشرح لنا أَعمال الفنادق ومَهَامَّهَا ووظائفها فى الحضارة العربية :

(وكان الفندق فى الأَندلس بناءًا يقضى فيه التجار الغرباءُ لياليهم ، وتُحْفَظُ فيه البضائع وتُخْزَنُ ، أَو تُباع أَحياناً بالجملة ، فكان بمثابة الخان فى المشرق بجانب وظيفته فى التخزين والبيع . وكانت هذه الفنادق تُسمى بأَسماءِ ما يُباع بها من بضائع كالحبوب والقمح والخضروات

---

(١١) كتاب شمس العرب تسطع على الغرب ، الصفحة ٤٤٤ طبع بيروت .
(١٢) كتاب دائرة معارف الشعب مادة (الفندق) الصفحة ١٤٢ جزء ٢ طبع مصر .

والقراميد والتين إلى غير ذلك . أو كانت تسمى بأسماء أصحابها كفندق (زائدة) بغرناطة

ومن هنا ندرك السّرّ في تسمية الفنادق التي ذكرها ابن جبير في رحلته بالشرق العربي بأسماء : فندق الصّفّارِ (أى صانع الصفر أو بائعه أو جاليه) وفندق أبى الثناء ، وفندق ابن العجميّ ، وخان السلطان .

والفندق الأندلسى كان يَشْغَلُ مكانة هامة في العُمران والاقتصاد ، ولذلك كثرت الفنادق فى أهم مراكز المدن أى حول المسجد الجامع ، ويؤيد ذلك ما ذكره الإدريسى عن فنادق الْمُرِّيَّة من أنها كان بها في النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادىّ الموافق للقرن السادس الهجرى ــ ما يقارب (٩٧٠) فندق .. فهذه المعلومات التى زودتنا بها المراجع التاريخية تعطينا فكرة مُحَدَّدَةً بأن صناعة الْفَنْدَقَةِ العربية كانت أكثر رواجاً وأعظم ذيوعاً وأكبر نجاحاً من زميلتها التى أقيمت بعدها وعلى ضوئها فى الغرب ، ففى مدينة الْمُرِّيَّةِ وحدها كان يوجد قرابة ألف فندق[١٣] . وقد ذكر لنا ابن جبير أن فندق أبى الثناء الذى نزل فيه ، بمصر القديمة ، كان بقرب جامع عمرو بن العاص ــ أى على غرار فنادق مدينة الْمُرِّيَّةِ الموجودة بجانب مسجدها الجامع وبالمناسبة نذكر أن أكثر الفنادق المعدة لنزول الحجاج والزوار بمكة وبالمدينة إنما توجد بقرب المسجد الحرام وقرب المسجد النبوى أيضاً فى هذه السنين ؛ على نظام الفندق العربى القديم المشار إليه آنفاً .

طراز بناء الفندق العربى

يتألف الفندق الأندلسىُّ العربىُّ ــ كما نراه اليوم فى مراكش ــ من

(١٣) دائرة معارف الشعب الصفحة ١٤٤ جزء ٢ ، طبع مطابع الشعب بالقاهرة .

بهو مستطيل أَو مربع تدور به مجنبات ، أَو ممرات تُطِلُّ على هذا البهو ، وتُوزَّعُ غرف الفندق وراءَ هذه الممرات ويخصص الطابق الأَدنى من الفندق للمخازن والاصطبلات ، أَما العلوىُّ فيشتمل على حُجُرَاتِ النزلاءِ ومخازنِ البضائع المعدة للبيع ، وتقوم عقود المجنبات حول بهو الفندق على دعائم خشبية تربطها فيما بينها أَوتار خشبية كذلك . وكانت هذه الدعائم من الفنادق الفنية تُتَّخَذُ من الآجُرِّ ، ويتوسط البهوَ عادة فوارةٌ للسقاية .

ويُصعد إلى الطابق العلوىّ من الفندق من درجتين(١٤) .

وهذا التقليد فى طراز البناءِ لا يزال متخذاً فى الفنادق الحديثة الضخمة فيوجد فيها مصعد كهربائىّ للنُّزَّالِ وضيوفِهم ، ودرج مبنىٌّ لصعود العُمَّالِ والحُمَّالِ ومن اف لفهم . فالغرب إِذن قد أَخذ هذا الطراز ولا يزال ، من طراز بناءِ الفنادق العربية .

وبرغم تطوره فى صناعة الفندقة ؛ فلا يزال هذا الطابع فى طراز فنادقه على ما كان فى الحضارة العربية الإِسلامية . وهذه المعلومات التاريخية أَرى أَنها تفيد الباحثين عامة والفندقيين العرب المحدثين خاصة وتُوقظهم إِلى أَهمية تراثهم العمرانى الحضارى فى فن الفندقة ، وتحدثنا المصادر التاريخية عن جدران الفنادق الخارجية عند العرب فتقول : إِنها خالية من أَى منفذ ، وذلك لتجنب السرقات . أَما المدخل فكان يتخذ شكل عقد متجاوز على هيئة حدوة الفرس أَو منكسر على مثال عقود المُوَحِّدين ، ويحيط به إِطار مستطيل تُزَيِّنُ بنيقَتَيْهِ – أَى خاصِرَتَيْه – بعضُ التكوينات الزخرفية والتوريقات ، وتلى المدخل ردهةٌ

(١٤) المصدر السابق الصفحة ١٤٤ جزء ٢ .

أو أُسطوان تعلوه قبوة أُسطوانية ، أو من المُقَرْنَصَات ، كما هو الحال فى فندق غَرناطة المعروف من قبل بالفندق الجديد والمعروف اليوم بفندق الفحم أَو مخزن الفحم أَو دار الفحم[١٥] .

وتقوم (غرفة الفندق) فوق ذلك الأُسْطُوَان مباشرة ، وهى غرفة مزودة بنافذة مزدوجة العقد . تُطِلّ على البوابة ، حتى يستطيع الفندق أَن يراقب عملية نقل البضائع[١٦] .

ولم يكن بفنادق الأَندلس أَسِرَّةٌ للنوم ، فكان النزلاءُ ينامون على حُصرٍ يُمِدُّهم بها الْفَنْدَقِىُّ ، كما يمدهم بالأَغْطية اللازمة . وكان النزلاءُ يشترون طعامهم من الخارج . وهذا النظام فى شراءِ النزلاءِ طعامهم من الخارج لا يزال معمولًا به فى بعض الفنادق الحديثة بمصر وبيروت وسورية ، وهى الفنادق التى أُنْشِىءَ بعضها من قِبَل فندقيين أَجانب حملوا كل تقاليد بلادهم إلى بلادنا فى طراز بناءِ الفنادق ، وتراتيبها الإِدارية وأَنظمتها السائدة . ونحن نقول فى ضوءِ هذه المناسبة : إن أَساس تطور الحضارة الإِنسانية هو الاقتباس فى البناءِ والتنظيم والتعديل إلى الأَصلح والأَفضل والأَنسب دائماً وفى ضوءِ هذه القاعدة نود من ذوى الاختصاص فى صناعة الْفَنْدقة من العرب والمسلمين أَن لا يمعنوا فى (تقليد الأَجانب) فى طراز بناءِ فنادقهم وتراتيبها وأَنظمتها بل عليهم أَن يسعوا إلى تحسين مستوى ذلك كله مهما يمكن وتعديله إلى الأَنسب لمحيطهم العربى والإِسلامى .

---

(١٥) دائرة معارف الشعب وكتاب الآثار الباقية فى أسبانيا والبرتغال لمحمد عبد الله عنان ورحلة الأندلس لحسين مؤنس .

(١٦) دائرة معارف الشعب الصفحة ١٤٤ جزء ٢ .

هذا ولشهرة صناعة الفنادق العربية فى الأندلس فإنه لا يزال هناك اسم فندق يطلق حتى اليوم على أحد شوارع اشبيلية[17] بالأندلس أو على التعبير السياسى اليوم بأسبانيا . Calle Alfnligg

ويعد الفندق الجديد بغرناطة من أروع أمثلة الفنادق الأندلسية فى القرن الرابع عشر الميلادى وبوابته من أجمل البوابات فى العمارة الأندلسية وهو يتألف من ثلاثة أدوار ويتوسط بهوه الفسيح حوض لسقاية النزلاء[18] .

وقال عبد الرحمن زكى فى هذا الفندق :

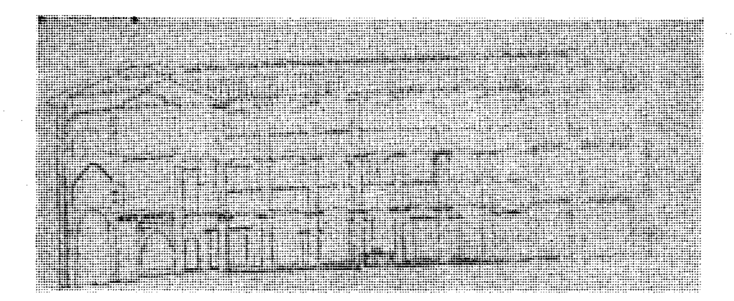
« وأكمل مبنى باق إلى اليوم فى السهل هو الفندق الجديد ، وهو واحد من عشرات الفنادق التى قامت فى غرناطة ، ويعرف اليوم باسم مخزن الفحم : Fleorrald - elcadon لأنه استخدم فى وقت ما مخزناً للفحم وقيل ذلك لأنه استخدم مسرحاً ودَيْراً . ولهذه الدار فناء تحيط به البوائك ذات الطابقين ، وتشبه عمارة هذا الفندق ما نراه فى الفنادق المرينية فى فاس . وللفندق مدخل رائع له بوابة ضخمة وكانت تعلوه النقوش فى زمانه القديم »[19] .

ويبدو أن الفندق المعروف بهذا الاسم لا يزال باقياً فى غرناطة موطن ابن جبير كما هو حتى اليوم . وقد ذكر هذا الفندق ـ كما سبق ـ محمد عبد الله عنان فى كتابه « الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال ، كما ذكره فى رحلته إلى الأندلس الدكتور حسين مؤنس.

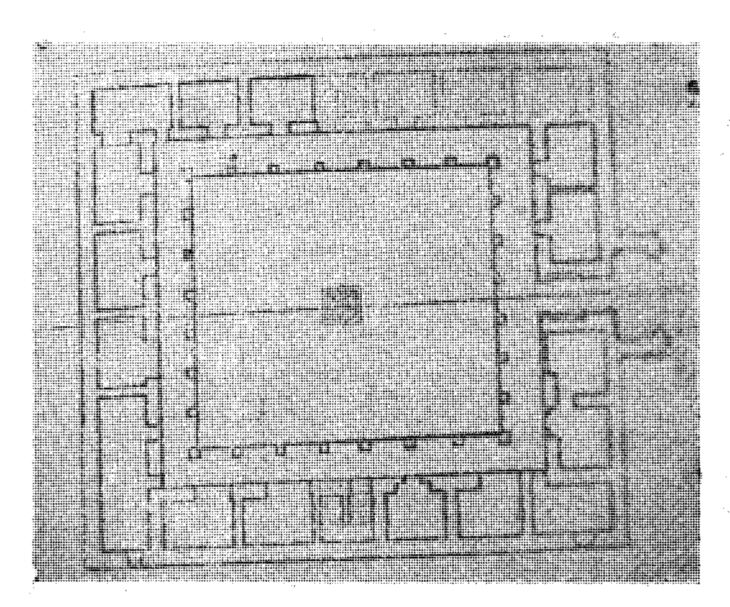
(١٧) المصدر السابق ص ١٤٤ جزء ٢

(١٨) المصدر السابق بالصفحة ١٤٤ جزء ٢ – طبع مطابع الشعب بمصر سنة ١٩٥٩

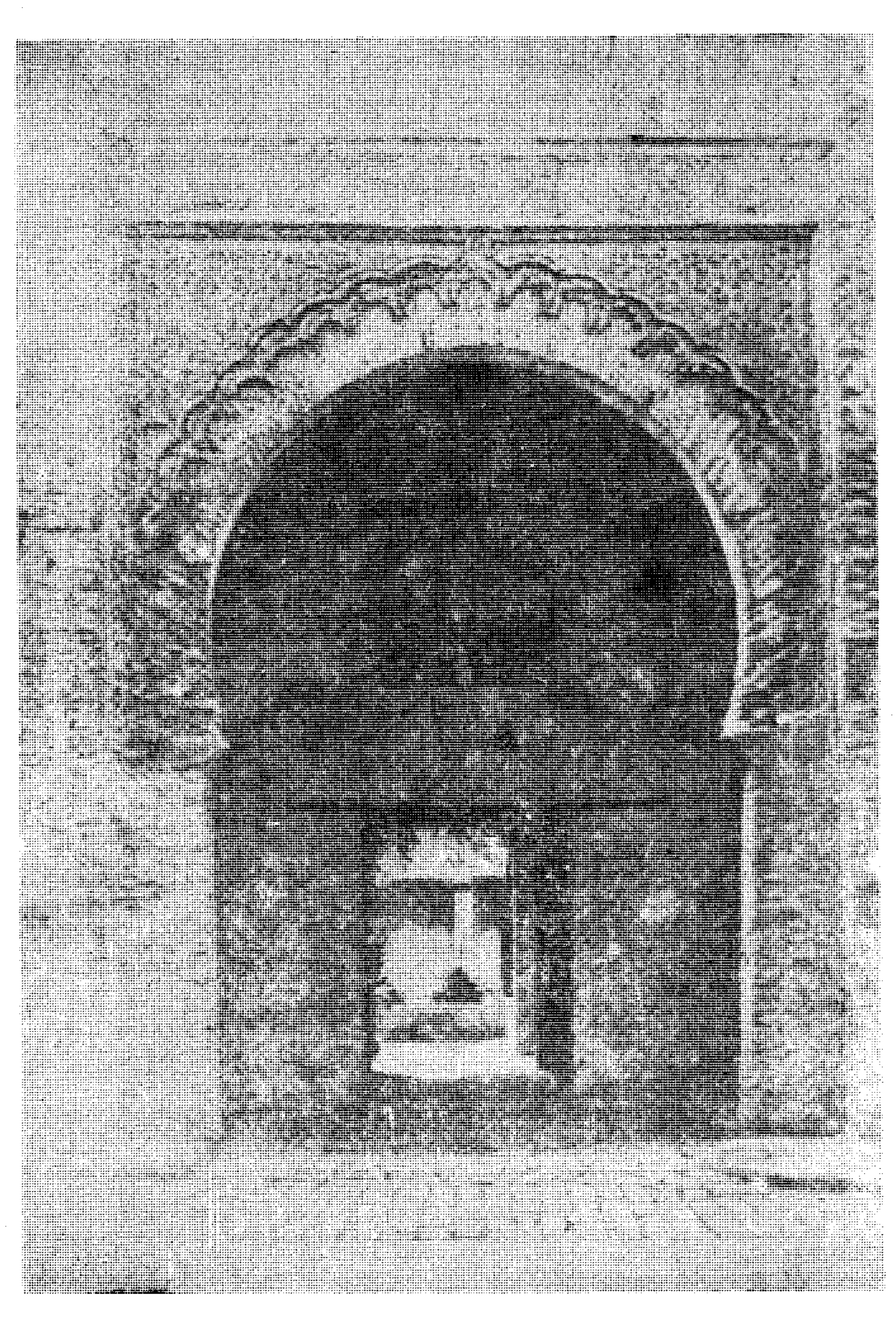
(١٩) غرناطة وآثارها الفاتنة للدكتور عبد الرحمن زكى ص ٩٩ و ١٠٠ ، ١٠١ طبع الهيئة العامة للتأليف والنشر بمصر سنة ١٩٧١ .



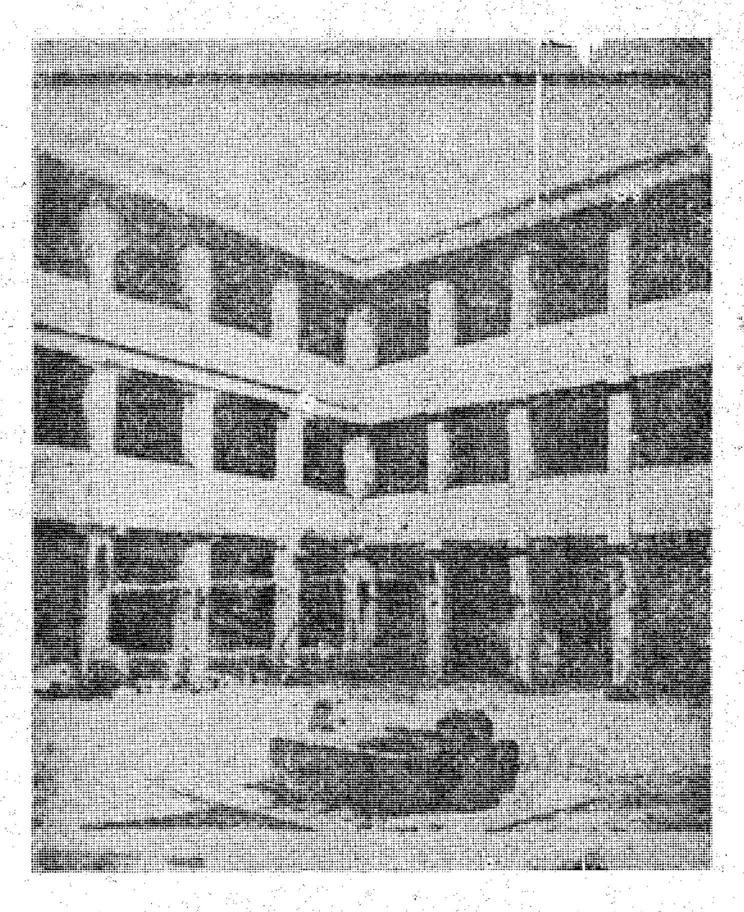
مقطع فى فندق غرناطة المعروف اليوم بربع الفحم يبين تصميمه الهندسى



مسقط لفندق غرناطة يبين هيئته العامة ، ويلاحظ المدخل إلى الفناء يتوسطه مربط الدواب



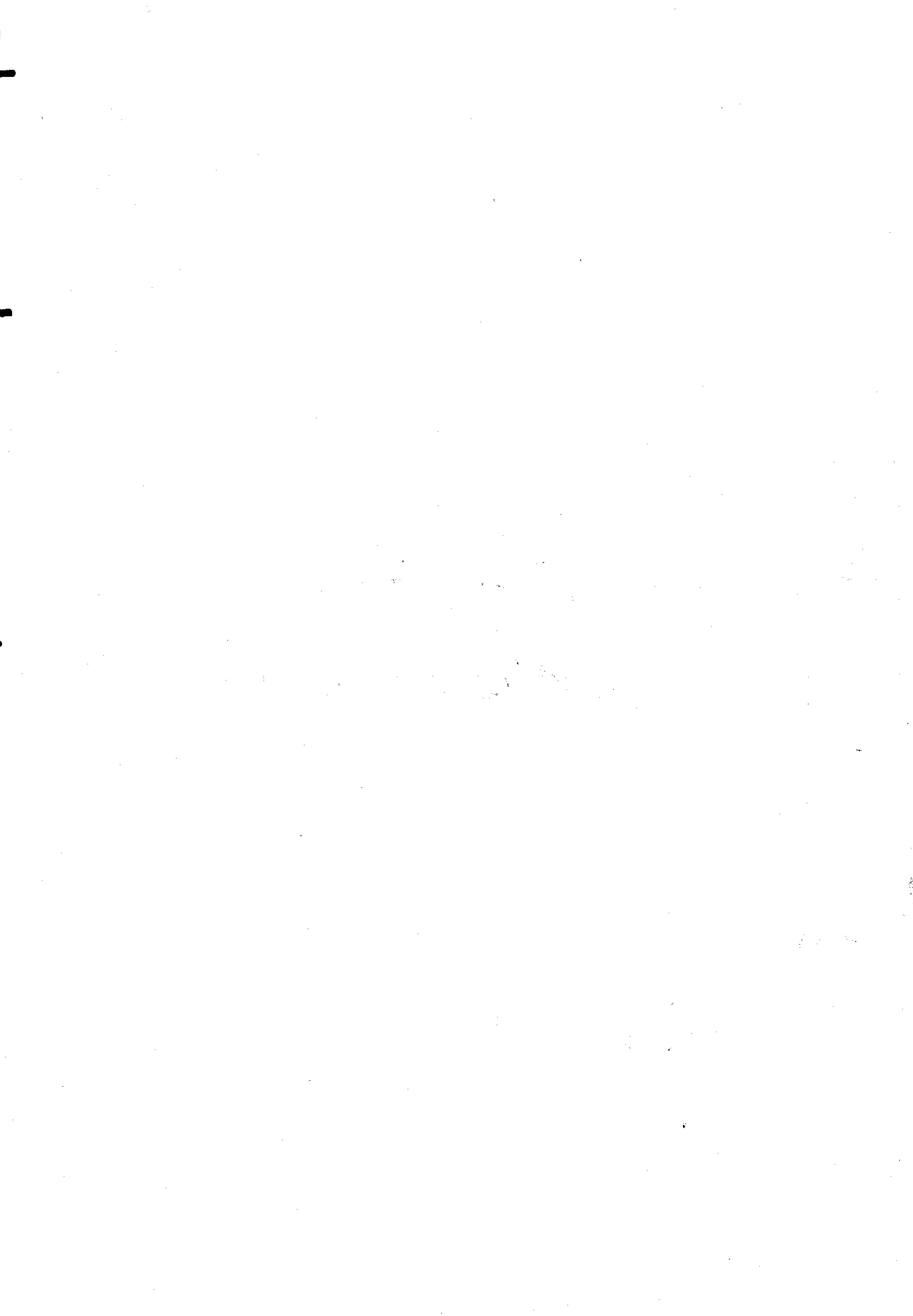
مدخل « الفندق الجديد » المسمى الآن بفندق الفحم أو مخزن الفحم أو دار الفحم بغرناطة . .
وهو نموذج للفندقة العربية فى حضارة الإسلام



جانب من بهو الفندق المعروف قديماً باسم « الفندق الجديد »
وحديثاً بأسماء أخر مذكورة فى هذا الكتاب

الفصل العاشر

مع ابن جُبير في مِصر



فى صبيحة يوم الأحد ثامن ذى الحجة ٥٧٨ هـ انفصل ابن جبير عن الإسكندرية ، فى طريقه إلى مصر بعد أن قضى فى الإسكندرية نحو عشرة أيام ، وسار إلى دمنهور ، واجتاز نهر النيل . على مُعَدِّيَة نهرية صغيرة ، بعد الموضع المعروف باسم (صا) ومر ببرمة ، فطندتة : (طنطا) وهكذا إلى أن بلغ مدينة القاهرة عاصمة السلطان صلاح الدين ، ومنها إلى مصر المحروسة . حيث نزل فى فندق أبى الثناء القريب من جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه .

ابن جبير بين آثار مصر والقاهرة

انتهز ابنُ جُبير فرصة وصوله إلى القاهرة فَعُنِىَ بمشاهدة الآثار والمآثر بها فشاهد جبَّانة القرافة ، وذَكَرَ أَوْ ذُكِرَ له أن فيها قبوراً لأنبياء قبوراً لأنبياء أورد أسماءهم ، وقبر آسية امرأة فرعون . وذَكَرَ أَوْ ذُكِرَ له أن بها من قبور بعض أهل البيت أربعة عشر رَجُلًا ، وخمس نسوة سَمَّاهم جميعاً ، وذكر كذلك أن فيها قبر جعفر بن محمد من ذرية علىّ بن الحسين وقال : إن جعفراً هذا كان رَبِيبَ الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه ، وأورد كذلك قبور شريفات هاشميات بالقرافة . .

ثم قال : (وأسماءُ أصحاب هذه المشاهد . . . إنما تلقيناها من التواريخ الثابتة عليها مع تواتر الأخبار بصحة ذلك) . ولكنه عقب على هذا النبإ بقوله : (والله أعلم بذلك) مما يُفهم من فحواه عدم قناعته التامة بذلك . وذكر أن فى مقبرة القرافة بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين والأئمة والعلماء والزهاد الخ . وعقب على هذا النبإ أيضاً بقوله : (والْمُقَيِّدُ ــ أى الكاتب ــ يعنى نفسه ــ يَبْرأُ من القطع بصحة ذلك ، وإنما رسم من أسمائهم ما وجده مرسوماً فى تواريخها) .

وذكر أيضاً أن بمقبرة القرافة قَبْرَ صاحِبَىْ مالكٍ بن أنس : أشهب وأصبغ ، وقبرَ القاضى عبد الوهاب ، وقبوراً أُخرى لرجال ونساء مشهورين . وأورد أن بقبلة : أى (جنوب) القرافة بسيطاً متسعاً يُعرف بموضع قبور الشهداء الذين استشهدوا مع (سارية)[1] ، فقال ما خلاصته : إنّ المرتبات تُجْرَى من قبل السلطان صلاح الدين فى كل شهر على المساجد والمشاهد المعمورة والمدارس بمصر والقاهرة . وتنيف جُمْلَتُهَا شهريًّا على ألفى دينار مصرية ، وهى أربعة الآف دينار مُؤْمِنِيَّة .

وأشاد بقلعة القاهرة وعَرَّفَها بأنها حصن حصين متصل بالقاهرة ، يزمع السلطان اتخاذه موضع سكناه ، ويمد سوره حتى يتصل بالمدينتين : مصر — والقاهرة ، ويَعْمَلُ فى بنيانه العلوجُ الأُسَارَى من الروم ، وعددهم لا يُحْصَى كثرة لا شريك لهم فى البناء .

كما ذكر المارستان (المستشفى) بمدينة القاهرة الذى تحدث بأنه هو وزميله التالى بيانه من ما بناه صلاح الدين . وقد وصفه بالروعة والحسن والاتساع ، وعَيَّن له أطباءَ حاذقين ووضع فيه خزائنَ العقاقير ، ووضع فى مقاصيره أَسِرَّةً كاملة الكُسَى — جمع كسوة — يضطجع عليها المرضى ، ورتب له خَدَمَةً يتفقدون أحوال المرضى بكرة وعشية . وكان ذلك « المستشفى » موضع استشفاء الرجال وبجانبه موضعٌ مماثل لاستشفاء النساء . وبمصر مستشفى مماثل لمستشفى القاهرة . ويتصل بكل من

---

(١) لم أجد فى كثير من المصادر التاريخية : فتوح البلدان للواقدى . والإصابة لابن حجر وأسد الغابة ، والأعلام للزركلى وأخبار عمر للطنطاوى وغيرها، ذكراً لاستشهاد شخص اسمه « سارية » بمصر ودفنه هو ومن استشهد معه فى مصر فى قبلة القرافة فى بسيط متسع يعرف بموضع قبور الشهداء كما يقول ابن جبير هنا . فلربما كان هذا من منقولاته عن بعضهم من غير رجوعه إلى مستند صحيح يثبت ذلك . كدأب أغلب الرحالين فى تقييد ما يروى لهم من الأقاويل بدون تثبت من المراجع الصحيحة المعتمدة .

المستشفيين فى القاهرة ومصر موضع آخر متسع الفِنَاءِ فيه مقاصيرُ عليها شبابيكُ الحديد اتُّخِذَت محابسَ للمجانين . وعلق محمد مصطفى زيادة فى محاضرته التى ألقاها يوم ١٢ ـ ٥ ـ ١٩٣٩ م بدار مكتب التبادل الثقافى للمغرب بمصر على ذلك بقوله : (ولعل ابن جبير رأى فعلاً مارستان أحمد بن طولون بين القاهرة ومصر فظنه أيضاً من مستحدثات صلاح الدين)[٢] .

ويحدثنا ابن جبير عن مسجد ابن طولون الأثرى المعروف فى القاهرة فيقول : « إن السلطان صلاح الدين جعله مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويُحَلِّقُون فيه ـ أى يعقدون فيه حلقات الدرس ـ وقد أجرى عليهم الأرزاق شهرياً » . وكأندلسى مغربى يعطف على أهل بلاده ، نرى ابن جبير يُعْنَى بذكر إكرام السلطان للمغاربة الوافدين على الديار المصرية ، فهو يُشِيد بمآثر السلطان فى ذلك ويقول : « إن من مآثره بناء المحاضر (مدارس الأطفال) وقد شرع فى بناء القناطر ذات نحو أربعين قوساً بغربى مصر على مقدارِ سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدئ به من خيِّز النيل بإزاء مصر ؛ فكأنه حبل ممدود على الأرض ، طوله ستة أميال ، حتى يتصل بتلك القنطرة المتصلة بالصحراء التى يُفْضَى منها إلى الإسكندرية أعدها السلطان لمفاجآت العدُو ، يدهمهم جهة ثغرِ الإسكندرية عند فيضانِ النيل وانغمارِ الأرض به وتعذُّر مرورِ العساكرِ بسببِه ، فأعدَّ هذه القنطرةَ العجيبةَ لتظل مسلكاً للجند الإسلامى فى أى وقت يُحْتَاجُ فيه إليها ، لمنع مُدَاهَمَةِ العدو الصليبى المتربص لمعاقل المسلمين » .

ولم يفت ابن جُبير أن يُشَاهدَ بعض الآثار المشهورة لفراعنة مصر :

---

(٢) ص ٨ و ٩

الأَهْرام ، وأَبى الهول الذى سماه « أبا الأَهوال » فلقد وصف لنا أَبا الأَهوال هَذَا بأَنه على مقربة من الأَهرام بمقدار غَلوَة (مدى رمية السهم) ووصفه بأَنَّهُ (صورة غريبة من حجر قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر ، وجهه إلى الأَهرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل تعرف بأَبى الأَهوال)(٣) .

ووصف ابن جبير آثار الخراب الذى أَحدثه الحريق الذى وقع فى زمن الفتنة عند انتساخ دولة العُبَيْدِيِّينَ سنة ٥٦٤ هـ أَى قبل قدوم ابن جبير إلى مصر بخمسة عشر عاماً .

مناقب صلاح الدين

وعدد لنا مناقبَ صلاح الدين الممثلةَ أَولًا فى إلغائه المَكْس على الحجاج . وكان هَذَا المَكْسُ قد وضعته دولةُ العُبَيْدِيين التى كانت تحكم مصر قبله . . ومقداره على كل حاج يدخل مصر خمسة عشر ديناراً مُؤمنيةً وتساوى سبعة دنانيرَ ونصفَ دينارٍ من الدنانير المصرية . وكان

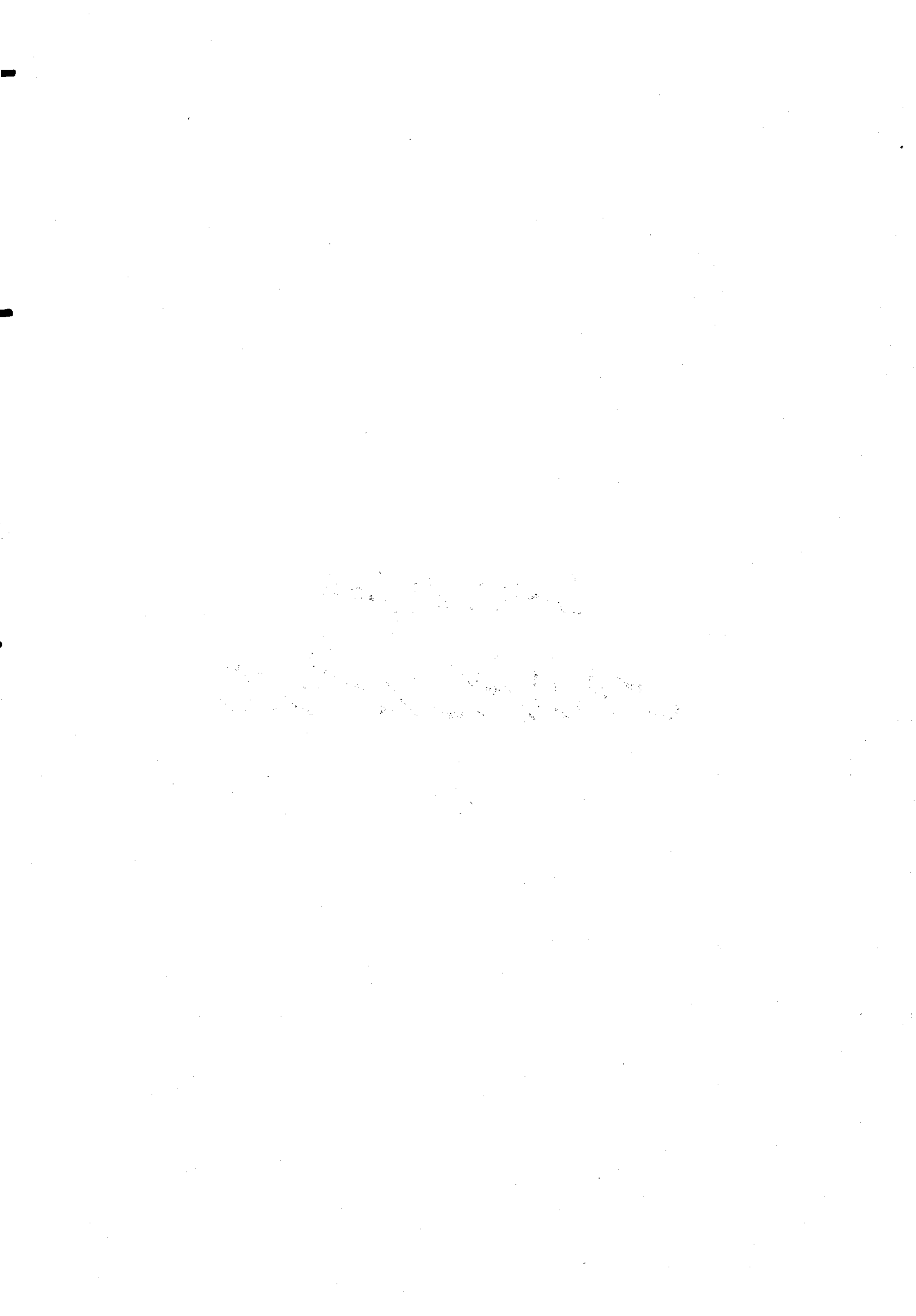
(٣) قوله : « تعرف بأبى الأهوال » ربما يفهم منه أن هذا هو اسمه فى عصره ثم عدل إلى أبى الهول اختصاراً . وهذا هو الاسم الذى يعرف به فى عصرنا الحاضر . وقد ورد هذا الاسم فى الطبعة المصرية التى حققها حسين نصار . هكذا : « تعرف بأبى الهول » ص ٢٤ . وهو شىء انفردت به هذه الطبعة المنقولة – كما يقول محققها – عن طبعة أوربا .. أما طبعة دار السعادة بمصر – ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨ م فتسميه (أبا الأهوال) ص ٢٣ وكذلك الطبعة التى نشرتها مكتبة نعمان الأعظمى ببغداد . وطبعة دار صادر مثلهما ، وبذلك قال الدكتور محمد مصطفى زيادة أيضاً فى محاضرته المنشورة فى ص ٩ منها .

هذا وقد انتقد الدكتور حسين نصار الوصف الذى كتبه ابن جبير هنا لأبى الأهوال فيما يتعلق بأن وجهه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة . فقال ما نصه (كذا فى الأصل وليس كذلك) . ونضيف إلى ذلك أن شكل أبى الهول هو صورة وجه آدمى على جسم حيوان غير آدمى جاثم على بطنه وله قوائم أربع حيوانية ، مثنية تحته .

الحاج إذَا عَجزَ عَنْ دفع هذا المكس يُعَذَّبُ فى ميناءِ عَيْذَابَ ، وينالُه العَذَابُ مضاعفاً فى ثغر جُدَّة . وقد قام السلطان بالتعويض عن هذا المكس بما يقوم مقامَهُ من أطعمةٍ وغيرها . وتكفل بترحيلِ ذلك إلى الحجاز . وربما كان لهذه المكرمة الصلاحية علاقةٌ ما ، بما يعرفُ بجرايةِ الحَبِّ التى أدْرَكْنَاهَا ترد بحراً من مصر سنوياً لأَهل الحرمين الشريفين حتى أَوائل العهد السعودىّ الحاضر .

الفصل الحادى عشر

مع ابن جُبير من مِصر إلى قوص



ركب ابن جبير متن نهر النيل صوب الجنوب قاصداً مدينة قوص. وفي طريقه إليها مَرَّ عَلى مدائن ومن هذه المدائن منية ابن الخصيب ومنفلوط وأسيوط وأبو تيج وإخميم ، ذات الهيكل العظيم، المعروف عندهم باسم (البربا) وجمعها البرابي ، وقِنا وقفط .

عودة ابن جبير إلى مراكز تفتيش الحجاج

عاد لابن جبير تأثره الشديد من جراء ما شاهده من تشديد التفتيش للحجاج بغية استيفاء الرسم المضروب على رأس كل فرد منهم .. لقد فُتِّشُوا مرة أُخرى في طول الطريق : في إخميم ، وقوص ، ومنية ابن الخصيب ، وأدخل المفتشون أيديهم إلى أوساط التجار ، بحثاً منهم عما تَأَبطوه أَو احتضنوه من دراهم أَو دنانير ، تَعَلُّلاً برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أَو ما يُدْرِكُ النصاب منها . وكان المفتشون يحضرون كتاب الله العزيز ليحلف الحجاج عليه .

وقد جزم ابن جبير (بعد استفساره) بأَن ما يعانيه الحجاج من مشقة هذا التفتيش هو (أمر يقع القطع على أَنَّ صلاح الدِّين لا يعرفه ولو عرفه لَأَمَرَ بقطعه كما أَمَرَ بِقَطْعِ أَعْظَمَ منه) ..

ونحن مع ابن جبير في استنكاره لهذا المكس وأَخذه بهذه الصورة المزعجة باسم الزكاة ، ولكن الأَمر أَكبر من ذلك حسب ما شرحناه سابقاً في هذا الشأن فلا نحتاج إلى إعادته هنا مرة ثانية .

استمر ابن جبير في مسيرته نحو قوص ، فَمَرَّ على قُرًى عديدة : أَسْكَرَ ، وأَنْصِنَا، ومنشاة السودان ، والْبُلَيْنَة الكثيرة النخيل، ودَشْنَة ،

---

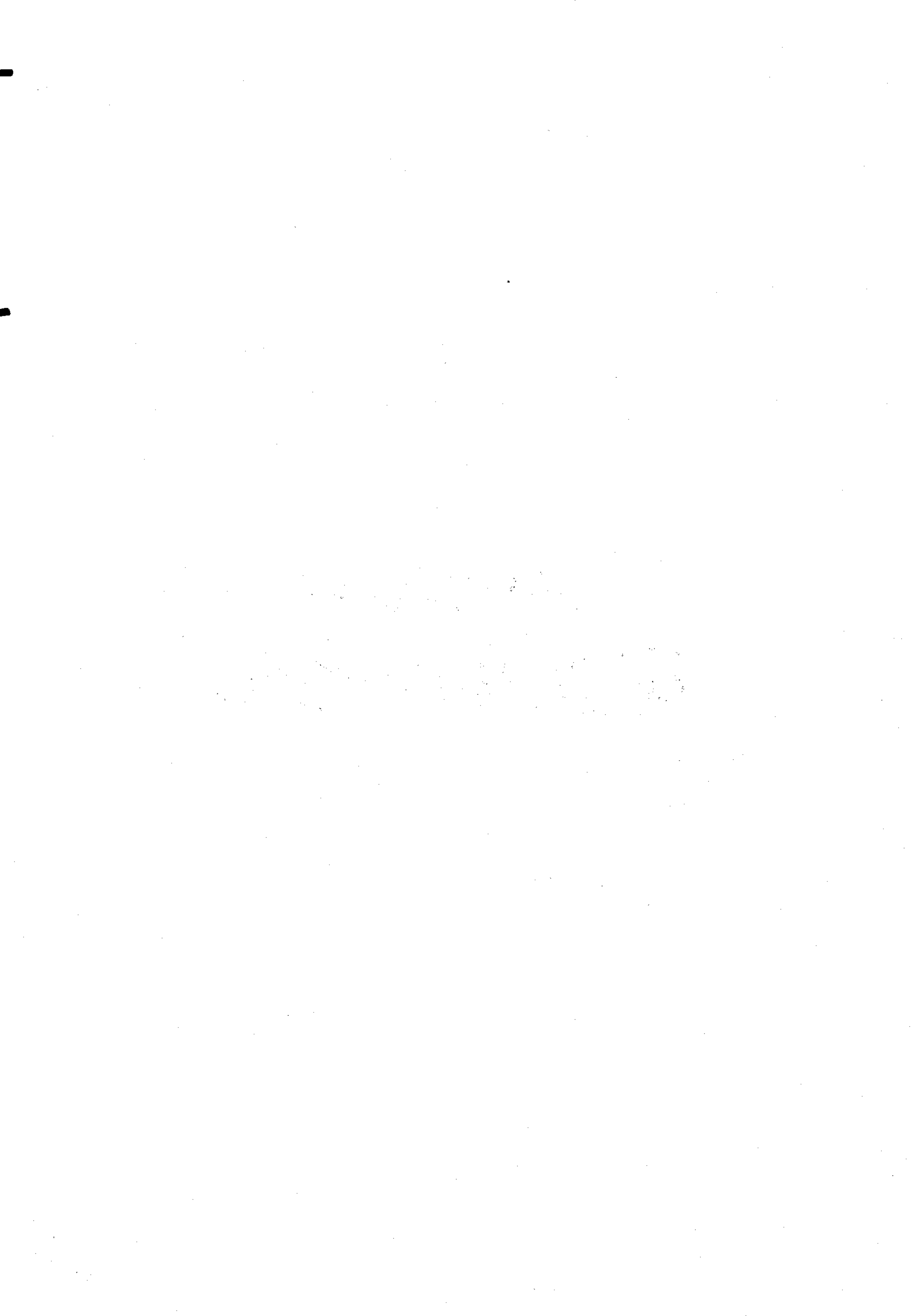
(١) البربا كلمة مصرية قديمة معناها : المقبرة وتجمع على برابي .

ومدينة دندرة المشهورة بطيب الرُّطَب ، وبها أحد البرابي (أي الهياكل العظيمة) وبعد أن مر بمدينة فنا ، وهي المدينة البيضاء ، ومدينة قفط ، وصل إلى مدينة قوص في يوم ٢٤ من المحرم ٥٧٩ هـ الموافق ١٩ مايو ١١٨٣ م ، وقد أقام بها ثمانية عشر يوماً ، ووصفها وصفاً بليغاً : فهي حفيلة الأَسواق أي (مزدحمتها) متسعة المرافق كثيرة الْخَلْقِ .

وفي قُوصَ نزل ابن جبير وصحبه من حجاج المغاربة والأَندلس بِفُنْدُقِ « ابن العجمي » بِرَبَضِ المنية وكان نزولهم فيه على بابه . .

الفصل الثاني عشر

مع ابن جُبير من قوص إلى جُدّة



ثَلَاثَ مرات ركب ابن جُبير البحر فى رحلته الأُولى ، وفى كل مرة يُلاقى من أهوال البحر وعواصفه المثيرة لأَمواجه ما يزعجه أَشد الإزعاج . وكان لاقى أَهوال البحر فى رحلته من بلدة عيذاب إلى جُدَّة أَيضاً . .

أَما سفره من قُوص إلى عيذاب فقد كان بَرًّا على ظهور الإبل ، وقد وصف لنا الشقاديف التى توضع على الإبل ، يمتطيها المسافرون ، فقال : (وهى أَشباه الْمَحَامِلِ ، وأَحسنُ أَنواعها اليمانية ، لأَنها كالأَشاكيز[١] السفرية ، مجلدة ، متسعة ، يوصل منها الاثنان ـ أَى الشطران المنفصلان ـ بالحبال الوثيقة ، وتوضع على البعير ، ولها أَذرع قد حَفَّتْ بأَرْكانها ، يكون عليها مِظَلَّةٌ فيكون الراكب فيها مع عديله فى كِنٍّ ـ أَى ستر ـ من لَفْحِ الهاجرة . ويقعد مستريحاً فى وطائه ومتكئاً ، ويتناول ما يحتاج إليه من زاد وسواه ، ويطالع متى شاء المطالعة فى مُصْحَفٍ أَو كتاب . ومن شاء ممن يستجيز اللَّعِبَ بالشطرنج أَن يلاعب عديله تَفَكُّهاً وإجماماً للنفس ، لاعبه ، وقد اختتم وصف الشقاديف التى تمتطى فى الصحراء إلى عيذاب ، بقوله : (وبالجملة فإنها مريحة من نَصَبِ السفر) . وهذا الذى قاله هو حق وواقع؛ فقد ركبنا الشقاديف على الجمال ما بين المدينة ومكة ، وكانت مريحة جِدًّا بالنسبة لمن يركبون الْجِمَالَ بدونها . ويذكر ابن جبير أَن (أَكثر المسافرين يركبون الإبل على أَحمالها فيكابدون مشقةَ سَمُومِ الْحَرِّ غَمًّا ومشقة .

طريقان إلى عيذاب

لِعَيْذَابَ طريقان : طريقُ الْعَبْدَيْنِ ، وهى الطريق التى سلكها ابن جبير إلى عيذاب ، وهى أَقرب مسافة من الطرق الأُخرى التى هى دون

(١) الأشاكيز جمع أشكز : شىء كالأديم الأبيض توثق به السروج .

قنا القرية التى هى على شاطىء النيل ، ويجتمع الطريقان بقرب ٦ ء (نقاش) . وقد مرّ ابن جبير على محطات سَرَدَهَا فى رحلته إلى عيذاب .

وكانت طريقُ قوص – عيذاب ، فى عصر ابن جبير دولية مكتظة بالقوافل التجارية ، واردة وصادرة . وقد حاول ابن جبير إحصاءها ذات مرة فلم يفلح فى ذلك والقوافل التى تصدر من عيذاب إلى قوص محملة بِسِلَعِ الهند الواصلة إلى اليمن والمجلوبة من اليمن إلى عيذاب ، وأكثرها أَحمال الفلفل – الأَسود – ولقد خُيِّلَ إلى ابن جبير – لكثرته – أنه يوازى التراب قيمة . هذا وقد دخل ابن جبير عيْذاب فى عَشِيِّ يوم السبت الثانى من شهر ربيع الأَول ٥٧٩ هـ – ١١٨٤ م .

ابن جبير يصف مدينة عيذاب

يصف ابن جبير مدينة عيْذاب بأَنها مدينة على ساحل بحر جُدَّة ، غير مسورة ، وأكثر بيوتها الأَخصاص ، (فهى مثل جُدَّة فى ذلك الزمان) وفيها بنا مستحدث بالْجِصّ وهى من أَحفل مراسى الدنيا ، لأَن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتُقْلِعُ منها ، هذا إلى مواكب الحجاج الذاهبين إلى الحج والآيبينَ منه ، وهى فى صحراء لا نبات فيها ، وكلُّ ما فيها مجلوب ، وهى بِسَبَبِ الحجاج تحت مرفق كبير ، وكانت بها وظائف لاستيفاء المكوس التى رفعها صلاح الدين عن الحجاج ، وكان أهلها يجتمع لهم مالٌ كثير من نقلهم الحجاج إلى جُدَّة ذهاباً وإياباً ، وقال : (وما من أهلها ذوى اليسار إلا من له الجَلْبَةُ والْجَلْبَتَان[٢] فهى تعود عليهم برزق واسع) . .

(٢) هذه الصيغة – الجلبة – ومشتقاتها خاصة بأهل تلك الناحية ، وقد ذكرها ابن جبير استخداماً منه للهجتهم العامية ، ولغموضها بالنسبة لأذهان القراء المعاصرين عقدنا لها ولصيغة « البجاة » الذين هم أهل عيذاب فصلا خاصاً هو الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب لشرح مفهوميهما وصيغتيهما .

ولضعف ميناء عيْذاب يومئذ لم يَكُنْ بها فنادق ولذلك نزل ابن جبير وصَحْبُهُ فى دار (مُونِحٍ الحَبَشِىّ) أَحدِ قواد عيذاب الأَثرياء مالكى الدُّور والرباع والْجِلَاب .

وفى بحر عيذاب مغاصٌ للؤلؤ يستخرج منه أهلها اللؤلؤ ووصف هذا المغاص أَنه قريب القعر ليس ببعيد . والعيذابيّون ـ كما شاهدهم ابن جبير ـ قوم منحطون فى سُلَّمِ الحضارة ، وبلدهم بائس (خلو من الرَّطْبِ واليابس ، وقد أَلِفُوا بها عيش البهائم ، وهم أَقرب إلى الوحش منهم إلى الإنس) . . هكذا يُقَوِّمُ لنا ابن جبير حياة هؤلاءِ القوم الرُّحَّل البدائيين. وهو وصف لانرتاب فى أنه قد لحقه إصلاح وتعديل فى القرون التالية كما أَشار إليه بعض المؤرخين المحدثين ما أَوردناه فى مكان آخر من هذا الكتاب .

يخوض مخاطر بحر عيذاب ويصل سالماً إلى مرسى أبحر

كانت عَيْذَابُ ميناءًا بدائيًا ، ومراكبها كذلك ، وبحرها ما بينها وبين جُدة كثير الاضْطراب والهيجان ، فلا غرو أَن يلاقى راكبوه المخاطر ، وقد منح ابن جبير هذا البحر المائج المضطرب ـ لَقَبَ (آفةِ الحجاج) كما سماه (بحر فرعون) مرة أُخرى ، فقلما يسلم أَحد منهم ، ذلك أَن الرياح الهُوجَ العنيفة ، تُلقيهم على الأَكثر فى مَراسٍ بصحارى تبعد عنها مما يلى الجنوب ، فينزل إليهم الْبُجَاةَ[٣] ، فَيُكْرُونَ منهم الجمال ، ويسلكون بهم غير طريق الماءِ فربما مات أَكثرهم عطشاً .

وقد عانى ابن جبير معاناة شديدة من هذا البحر الذى امتطى فيه

---

(٣) كما لنا كلمة حول (الجلبة والجلاب) فكذلك لنا كلمة حول البجاة أو البجة فى الفصل الثالث عشر أيضاً على ما أشرنا إليه آنفاً .

« الْجَلْبَةَ الْعَيْذَابِيَّةَ » الهشة إلى جُدَّة ، فقد ساروا بالبحر يومين وكانت الريح فاترة الْمَهَبِّ ، وفى عِشاءِ اليوم الثالث استبشروا برؤية الطير من بَرِّ الحجاز ، ولَمَعَ برقٌ من جهة الْبَرِّ الحجازىّ من جهة المشرق ، ثم نشأ نَوْءٌ أظلم له الأُفق إلى أن كسا الآفاق كلها ، فهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه ، راجعاً وراءها ثم اشتدت الرياح واشتد الظلام وعمّا الآفاق فلم يدروا الجهة المقصودة منها إلى أن ظهر بعض النجوم ، وأقاموا ليلتهم تلك فى هول مُؤْذِنٍ باليأس ، وأراهم بحرُ فرعون بعضَ أهواله الموصوفة ، إلى أن أتاهم الفرج مع الصباح ، فهدأت الريح وأقشع الغيم ، وأَصْبَحَتِ السماءُ ، ولاح لهم بَرُّ الحجاز ، على بُعْدٍ ، أبصروا منه بعض جباله الواقعة شرق جُدَّة(٤) ، وساروا حتى أرسوا بجزيرة صغيرة تسمى (عائقة السفن) وباتوا بها ليلة الجمعة ٢٩ ربيع الأول سنة ٥٧٩ هـ ـ ١١٨٣ م وركد الهواء .

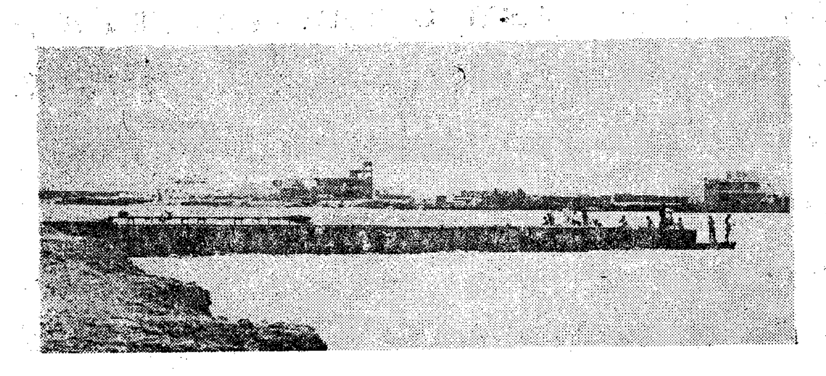
وفى يوم السبت ٣٠ منه تنفست الريح بعض تنفس ، فساروا سَيْراً رُوَيْداً ، وسكن البحر حتى يخيل لناظره أنه صَحْنُ زجاج أزرق ، ثم وصلوا إلى مُرْسَى أبحر عشية يوم الأحد ، الثانى من شهر ربيع الآخر ٥٧٩ هـ ، ومرسى أَبْحُر هذا على بَعْض يوم من جدّة بسير السفن الشراعية إذا لم يعاكسها الريح ، وعلى نحو ثلث ساعة أو أقل بسير الزوارق التى تسير بالنفط .

وقد أُعْجِبَ ابنُ جبير بِمُرْسَى أبحر كلّ الإعجاب ، وقال فيه : (وهو من أعجب المراسى وضعاً ، وذلك أن خليجاً من البحر يدخل إلى

---

(٤) لعلها جبال الرغامة الموالية لجدة من شرقها وهى التى يخترقها الطريق اللاحب المسفلت من جدة إلى مكة .

البر ، والبرُّ يُطيف به من كلتا حَافَتَيْهِ ، فَتُرْسِى الْجِلَابُ منه فى قرارة مُكِنَّةٍ هادئة)[٥] .



(مرسى أبحر القديم . ولا يزال على وضعه القديم . وترى الأوتاد الحديدية على جانبيه الموالبين للبحر ، وكانت السفن الشراعية تربط بها ، وهذا المرسى قد استكشفه المؤلف بعد بحوث متوالية)

وليس هذا المرسى ضخماً ولا واسعاً كالمراسى الحديثة ، لأَنَّ هذه المراسى الحديثة إنما وضعت لرسوّ السفن البُخاريَّة الضخمة ، وأما ذلك الْمُرْسَى فقد كان للسفن الشراعية الضئيلة الأَحجام بالنسبة للسفن البخارية الحديثة . ومن مزايا هذا المرسى ما وصفه به ابن جبير من أنه هادىءٌ لا أمواج فيه ولا رياح تزعج النُّزَّالَ . وتبعاً لوصف مُرْسَى أَبحر هذا نرى الرحالة ابن جبير يصف لنا خليج أَبحر فى قوله السابق ذِكْرُه .

مقارنة بين وصفين

مَرَّ بنا آنفاً وصفُ ابن جبير لِمُرْسَى أَبحر وخليجه وهو وصف

(٥) رحلة ابن جبير ص ٥١ طبعة دار صادر بيروت .
هذا ، ولكاتب هذه السطور كتاب مستقل خاص بأبحر ماضياً وحاضراً ومستقبلا ، سماه : (مستقبل أبحر) فلمن أراد مزيداً من المعلومات عنه – أن يراجع ذلك الكتاب عند طبعه ونشره إن شاء الله ، وقد زين بالصور والخرائط والمخططات .

يتسم بالإيجاز والجمال . . وبعد أن حجّ ابن جبير بستة عشرة ومائة عام حجّ الرحالة القاسم بن يوسف التُّجيبي السَّبتي ، وكتب عن رحلته فى كتابه الذى سماه « مستفاد الرحلة والاغتراب » فنرى القاسم فى هذا الكتاب يقتبس من كلام ابن جبير فى رحلته وينقل عنها ، يقولُ فى وصف دخوله بمركب بحرىّ من عيْذاب إلى مرسى أَبْحُر ما نصه :

(ولم يزل الحال على ذلك) أى لم يزل هبوب الريح الطيبة على سفينتهم المتجهة نحو جدة من عيْذاب مستمراً ، مع سكون البحر – إلى أن دخلنا مرسى من مراسى الحجاز الشريف يعرف بأَبحر ، ولله الحمد والشكر ، وذلك فى يوم الجمعة السابع بشهر رمضان المعظم من سنة ست المذكورة (أى سنة ٦٩٦ هـ) . فيبدو من حديث القاسم هذا ، أن مرسى أَبحر ظل قائماً بمهمته بعد أن حج ابن جبير بمائة عام ونيف . ويضيف القاسم إلى ما ذكر آنفاً قَوْلَهُ ، وهو محل الشاهد : (وهذا المرسى من أحسن المراسى وضعاً ، شِبْهُ خليجٍ من البحر يدخل فى البر ، والبر مطيف بما فيه ، ويُكِنُّ من جميع الأَرواح ، وباستقرارنا فيه عادت لأَجسامنا الأَرواح ، وأَمِنَّا فى مركبنا من اختلال الدُّسُر والأَلواح) .

فهذا الكلام من القاسم التُّجيبي هو فى واقع أمره مُجَرَّدُ شرح وتحليل وتوسعة لكلام ابن جبير فى وصفه لمرسى أَبحر وخليج أَبحر ، وقد التزم فيه جانب السَّجع بخلاف ابن جبير ، فإن حديثه عن أَبحر حديث مرسل لا سجع فيه .

هذا وقد استغرقت رحلة ابن جبير البحرية من ميناء عيْذاب إلى ميناء جُدة ، تسعة أيام فقدْ أقلع من عَيْذَاب فى ٢٥ من ربيع الأَول ٥٧٩ هـ ودخل ميناء جُدَّة فى اليوم الرابع من شهر ربيع الثانى سنة ٥٧٩ هـ . . وجملة ذلك ٩ أيام باعتبار أن شهر ربيع الأَول كان ناقصاً . .

وأما القاسم بن يوسف فقد استغرقت رحلته من ميناءِ عَيْذَاب إلى ميناءِ جُدة ٢٤ يوماً.

ملاحظات وتعليقات

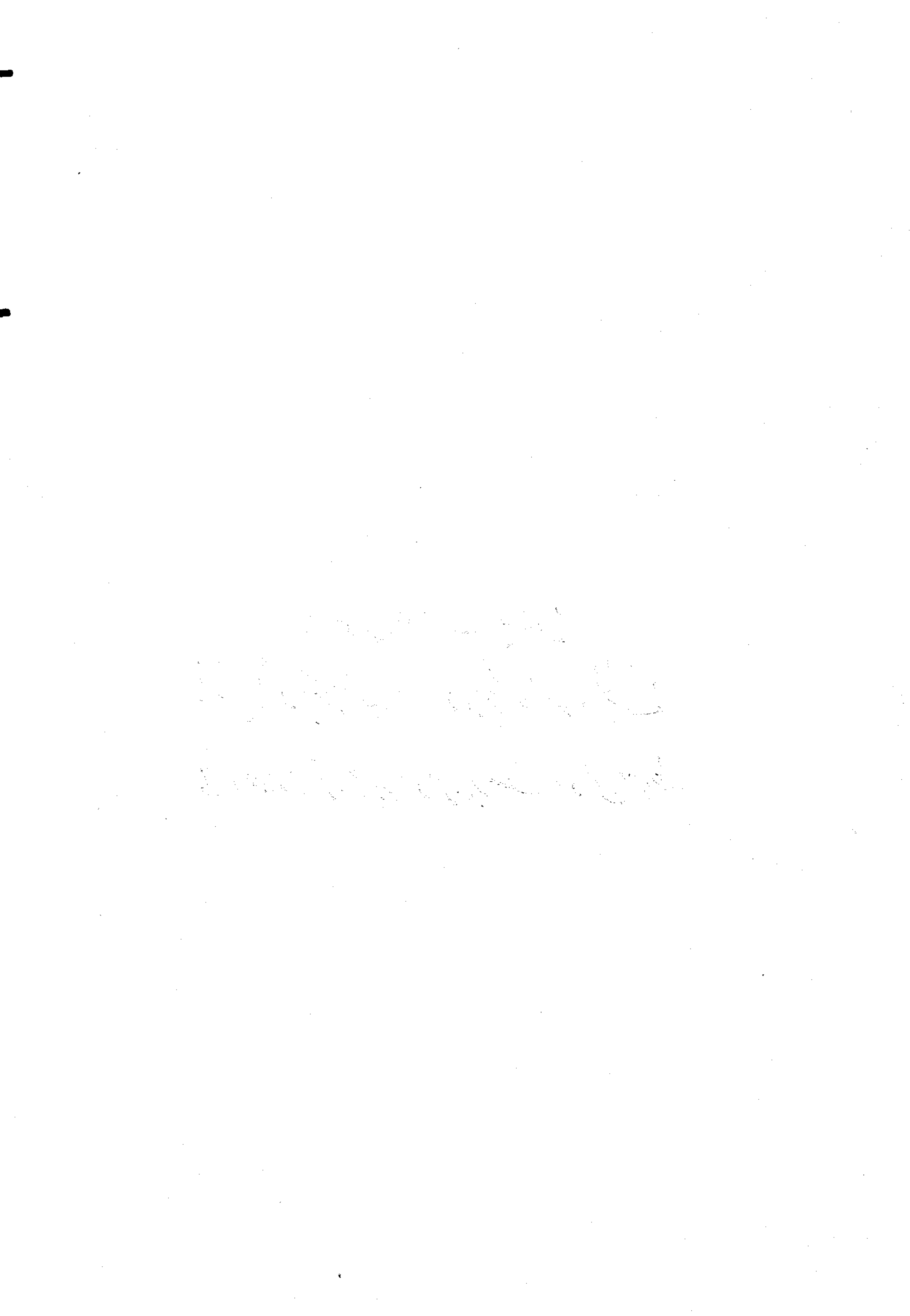
سَمَّى ابن جبير الجزيرة الصغيرة الكالحة المشؤومة باسم: (عائقة السفن) . وبعد ذلك بقرن ونيف نرى أَن هذا الاسم تغير إلى اسم (المربوطة) . وربما كان ذلك على قاعدةِ أَن أَسماءَ الأَماكن قد تتغير بتغير الظروف والسكان والعابرين إليها .

وقد انفرد ابن جبير بوصف الصعوبات التى تعانيها الْجِلَابُ عند دخولها ميناءَ جُدة لامتلاءِ هذا الميناءِ بالجبال البحرية المعروفة باسم الشعاب (جمع شِعْبٍ بكسر الشين) كما أَنه أَثنى ثناءًا عاطراً على مهارة ربابنة السفن الشراعية وسماهم (النَّواتية) وسَمَّى رئيسهم باسم (الرائس) وقد صمت ابن يوسف عن ذكر هذا كله فى رحلته البحرية من عيْذاب إلى جُدَّة .

الفصل الثالث عشر

الجَلَبَةُ والجِلاب .. والبُجَاة أو البُجَة

في رحلات ابن جبير، وابن يوسف، وابن بطوطة



وردت هذه الصيغة ومشتقاتها فى رحلة ابن جبير ، فآثرنا إلقاءَ الضوءِ على حقيقة معناها الغامض على قراءِ العصر الحاضر فنقول : فى « لسان العرب » لابن منظور : « الْجَلْبُ : سوق الشيء من موضع إلى آخر ، والجلوبة ما يجلب للبيع نحو الناب والفحل والقلوص . والجليبة والجلوبة ماجلبَ » إلى آخره (مادة جلب) .

وقد ذكر ابن جبير (الجلبة والجلاب) فى أَحد عشر موضعاً متقارباً من كتاب رحلته . وكان أَول ذكره لهما فى الفصل الذى عقده عن ميناءِ عَيْذَابَ الذى سَمَّى البحر الذى يَقَعُ عليه الميناءُ المذكور باسمين هما : (آفة الحجاج) و (البحر الفرعونىّ) . وبديعٌ « تسميته لهذا البحر باسم (آفة الحجاج) فإِنَّ هذا الاسم ذو نكهة أَدبية عبقة . أَما اسم (بحر فرعون) أَو (البحر الفرعونىّ) فله وجه صحيح ، فهو من باب المجاز المرسل ، إذ سُمِّىَ فيه الكل باسم الجزءِ ، فى الجانب الغربىّ من هذا البحر أَغرق الله فرعون .

فأَولًا – يقول ابن جبير عن أَهل عَيْذَاب : (ولهم أَيضاً من المرافق من الحاج إكراءُ الْجِلَابِ منه) وفسر لنا الجلاب بأَنها : (المراكب) .

وثانياً : ذكر صيغتى الْجَلْبَة والجَلبتين ، و (الجلبتان مُثَنَّى جَلْبَةٍ) ذَكَرَهُمَا فى قوله : (وما من أَهلها ذوى اليسار إلا من له الجَلْبَة والجَلْبَتَان)

وثالثاً : يقول : (وكان نزولنا فيها بدار تنسب لمونح ، أَحد قوادها الحبشيين الذين تأَثلوا بها الديار والرباع والجِلاب) .

ورابعاً : ثم قال : (والجِلاب التى يُصَرِّفُونَها فى هذا البحر الفرعونىّ

مُلَفَّقَةُ الإنْشاءِ لا يستعمل فيها مسمار ألبتة ، إنما هى مخيطة بأمراسٍ - أىْ حبال - من الْقِنْبَارِ[1] ، وهو قشر جَوْزِ النارجيل .

وخامساً : قالَ : (وعُودُ هذه الجلاب مجلوب من الهند واليمن وكذلك القنبار المذكور) وقال : (ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرُعَها منسوجة من خُوص شجرِ الْمُقْلِ - أى الدَّوْم .

وسادساً : يقول : (ولأهل عَيْذَاب فى الحجاج أحكام الطواغيت ، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض ، وتعودُ بهم كأنها أقفاص الدَّجاج المملوءة .

وسابعاً : يقولُ أيضاً : (وفى يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور ، وهو الثامن عشر من يوليو ، ركبنا الْجَلْبَةَ للعبور إلى جُدَّة) .

وثامناً : قال أيضاً : (وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنَّوَاتِيَّةِ - - أى البحَّارة - من التصرف بالجلبة أثناءها أمراً ضَخِماً : يُدْخِلُونَها على مضايق ، ويُصَرِّفُونَهَا خلالها تصريف الفارس لِلْجَوَادِ الرطبِ العنان السلس القياد) .

وتاسعاً : قالَ أيضاً : (وربما سَنَحَتِ الجلبة بأسْفلها على شِعْبٍ من تلك الشعاب أثناء تخللها فنسمع لها هدًّا يؤذن باليأْس) .

وعاشراً : قالَ أيضاً عن الأمير عثمان بن علىّ صاحب عدن الذى خرج فَارًّا أمام سيف الإسْلام المتوجه إلى اليمن : (وركب فى جِلابٍ

---

(١) القنبار كقنطار : الحبل من ليف جوز الهند (تاج العروس) مادة قنبر ، ويعرف فى المدينة المنورة باسم القنبار - بضم القاف .

كثيرة مشحونة بأحوالٍ – أى ثَرَوَاتٍ – عظيمة ، وأموال لا تُحصى كثرة) .

والحادى عشر : قال فى حديثه عن ثراءِ صاحب عدن : (وعند خروجه من البحر بموضع يُعْرَفُ بالصَّرِّ ، لحقت جَلْبَهُ حَرَارِيقُ – جمع حَرَّاقةٍ – سيفِ الإِسْلام فأَخذت جميع ما فيها من الأَثقال) .

ويلاحظ أَن ابن جبير فى النص السابق جمع (جَلْبة) على «جُلْبٍ» بضم الجيم وسكون اللام . والجلبتانِ تثنية جَلْبة ، والجِلاب : جمعها ، والجلبة فى لهجة الْعَيْذَابِيِّينَ التى نقلها عنهم ابن جبير ، وإن لم يذكر ذلك ، هى السفينة الشراعية . والْجَلْبَةُ فيما يبدو ، عربية الأَصل ، من صيغة (جَلَبَ) فهى تجلب البضائع والرُّكَّاب من ميناءٍ إلى ميناءٍ ، على أننا لم نلحظ استعمالها بمعنى السفينة خاصة إلا فيما أورده ابن جبير فى حديثه عن سفن البحر الأَحمر التى تسير فيما بَيْن عَيْذاب وجُدَّة وابن جبير نفسه حينما ركب البحر الأَبيض المتوسط من عَكَّة إلى غَرْنَاطَةَ لم يعرج على صيغة الجلبة هذه ، وإنما سَمَّى السفن التى تمخر عبابه باسم (المراكب) ولم ترد صيغة الجلبة ولا مشتقاتها فى رحلة القاسم بن يوسف : (مستفاد الرحلة والاغتراب) فى الجزءِ المطبوع سنة ١٣٩٥ هـ ولم يذكر سوى (المركب والسنبوق) ، كما أَن ابن بطوطة لم يذكر صيغة الجلبة ولا مشتقاتها مطلقاً . هذا وليست الجلبة وحدها هى التى التقطتها ذاكرة ابن جبير ممن مَرَّ ببلادهم ، فنحن نراه يصنع ذلك فى غير هذه الصيغة . . مثل صنيعه فى (الفندق) و (الخان) على ما فصلناه فى مكان آخر من هذا الكتاب ، ومثل صنيعه فى صيغة (الخاتون) بمعنى (السيدة أَو الأَميرة) وكان قد التقطها وضمنها رحلته حينما كان يتحدث فيها فى سيره من

مكة إلى المدينة ثم فى رِحلته من بغداد إلى الموصل مع بعض الخواتين وقد ضمَّها إلى سفر رحلته أَيضاً وشرحها فيه[٢] .

البجاة لا البجة فى رحلة ابن جبير

يعرفنا ابن جبير بالبجاة سكان عَيذاب فيقول : (إنهم نوع من السودان ، ومنهم ساكنون فى الجبال ولهم فى الحجاج أَحكام الطواغيت بشحنهم إياهم فى جِلَابِهم : (مراكبهم البحرية) . ولهم سلطان مِنْ أَنْفُسِهِمْ يسكن معهم فى الجبال المتصلة بها . وربما وصل فى بعض الأَحيان واجتمع بالوالى الذى فيها من الْغُزّ ، إظهاراً للطاعة . ومُسْتَنَابه مع الوالى فى البلد . وهم على ما يقول ابن جبير أَضلُّ من الأَنعام سبيلًا ، وأَقل عقولًا ، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التى ينطقون بها إظهاراً للإسلام ، ووراءَ ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسِيَرِهِمْ مالا يُرْضِى ولا يَحِلُّ ، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عُرَاةً إلا خِرَقاً يسترون بها عوراتهم ، وأَكثرهم لا يُسْتَرُونَ)[٣] .

ويتجاوز ابن جبير ذلك إلى وصف بلدهم الذى كل شيءٍ فيه مجلوب حتى الماءُ ، والعطش فيه أَشْهَى إلى النفس منه ، وهواؤها يذيب الأَجسام ، وماؤها يَشْغَلُ المعدة عن اشتهاءِ الطعام ، ويصل كره ابن جبير لمدينتهم

---

(٢) راجع ص ١٧١ من الرحلة تحقيق حسين نصار .

(٣) رحلة ابن جبير الصفحة ٤٨ و ٤٩ طبع دار صادر . ودار بيروت — ببيروت . ومستنابه : ربما يكون المراد منها أن محل إقامة هذا السلطان الرسمى هو عيذاب ، وربما يكون معناها : محل نيابته فى الحكم مع الوالى عن سلطان مصر مع الوالى فى البلد : عيذاب . قال بالرأى الأول حسين نصار ص ٥٤ ، وقلت بالرأى الثانى اتفاقاً مع المعلق على طبعة دار صادر من هذا الكتاب ص ٤٨ . وما ذكره ابن جبير وكرره من أن والى عيذاب هو من الغز هو من عجائبه أو أوهامه فإن صلاح الدين وبنى عمومته وجيشه ليسوا من الغز ولا تربطهم بهم أية رابطة نسب كما أوضحناه فى مكان آخر من هذا الكتاب بتفصيل كاف إن شاء الله .

إلى حد أن يلعنها . هذا ولم يرد فى رحلة ابن جبير صيغة (الْبُجَّة) مطلقاً .

البجة لا البجاة فى رحلة ابن يوسف التجيبى

تعريف ابن يوسف فى رحلته للبجاة (ويسميهم باسم : الْبُجَّة) ـ أَشمل وأَدق من تعريف ابن جبير ، ويبدو لنا أَن ابن يوسف لتأَخر زمنه عن ابن جبير أَخذ بعض بصمات تاريخ البجة من رحلة ابن جبير ، فبمثل قول ابن جبير عنهم : إنهم قوم من السودان ، يسكنون فى الجبال والصحارى المجاورة لمدينة عَيْذَاب ، وبعيذاب نفسها ـ قال ابن يوسف فى رحلته أَيضاً . .

وقد اتفق الرحالتان (على بُعْدِ المسافة الزمنية بينهما) على أَن لهؤلاء البُجَّة كانت السلطة ولكنها غير مطلقة لهم فى زمن ابن جبير المعاصر لصلاح الدين ، وأَما فى زمن ابن يوسف فى القرنين السابع والثامن الهجريين فقد استفحل أَمرهم حتى كادوا يستأْثرون بالسلطة عن الوالى القادم إلى بلدهم من مصر ، من قِبَلِ خُلفاءِ صلاح الدين يوسف بن أَيوب . وقد وَهَنَتْ عُرَا حكم الولاة على عَيْذاب ، وفترت عزائمهم فَتَنَمَّرَ الْبُجَاةُ عليهم ، وسعوا بكل قواهم لانتزاع صولجان الحكم من أَيديهم ، وقد نجحوا آخر الأَمر فى تحقيق مطلبهم أَو كادوا .

يقول ابن يوسف التُّجيبى فى ذلك فى الفصل الذى عقده عن مدينة عَيْذَابَ : (هذه الْبُلَيْدَةُ على ضفة بحر القلزم ، وليست بالكبيرة القطر ، ولا بالآهلة العامرة بالْخَلْق ، وأَهلها قوم من البُجَّة سود . والبجّة من ولد حام بن نوح عليه السلام ـ فيما يقال) .

وقيل : من ولد كوش بن كنعان بن حام ، نزلوا بين بحر القلزم والنيل وتشعَّبُوا هناك شعوباً ، ومَلَّكُوا ملوكاً ، وقيل : بل هم من الحبشة : وقيل هم قوم من فزارة نفاهم أبوبكر الصديق رضى الله عنه ، ونزلوا عَيْذَابَ . وقيل غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وتحدث ابن يوسف عن مساكنها فقال كما قال ابن جبير : (إن أكثر بيوتها أَخْصَاصٌ ، وفيها آدُرٌ – أى دُور قليلة – يسيرة مجصصة ابتناها التجار الْمَدْعُوُّونَ بالأكارم ، ويقول ابن يوسف أيضاً كما قال ابن جبير عن جَدْب عَيْذَاب : (وليس يوجد بهذه البليدة شئٌ تنبته الأَرض منها ، ولا يوجد ذلك مما حولها ألبتة غير مجرف حول البئر المعروف بالجنيب)[٤] .

وكما قال ابن جبير إن (عَيْذَاب هى صحراءُ لا نبات فيها) كذلك قال ابن يوسف : (وكل شئ فيها مجلوب إليها حتى الماءُ) وكرر ابن يوسف أقوال ابن جبير عن سوء الماءِ فيها وضرره بالصحة . وكما وصف ابن جبير طقسها بالالتهاب فإن ابن يوسف أطنب فى هذا الوصف حيث قال : (وهى من أشد البلاد التى رأَيناها حَرًّا ، لا يكاد الإِنسان أن يتنفس فيها إلا ويخيل إلَيْهِ أن أَحداً قد أَمسك بأَنفه ، وكأَنَّ النَّار ، نعوذ بالله منها، تلفح وجه الإنسان فيها) . (ومن العجب أَن ماءَ بحرها حارٌّ أَيضاً ، يُخيل إليك أَنه سُخِّنَ بالنَّار ، حتى صار كأَشد ما يوجد فى الحمامات) إلى أَن قال : (وهى مع ذلك فى وسط الصحراءِ لا تتصل بها عمارة من جهة من الجهات . وإنما سُكِنَتْ من أَجل مُرساها الجيد الذى يُكِنُّ من الرياح وهو مُرْسَى كثير الحط والإقلاع يقصده أَرباب السفن

---

(٤) هكذا ذكرها ابن يوسف فى رحلته (بئر الجنيب) بالجيم وقال : هى بموضع مرآى العين من عيذاب إلى جهة قوص وماؤها غزير جار ص ٢٠٤ من (مستفاد الرحلة والاغتراب) وسماها ابن جبير فى رحلته : (ماء الخبيب) - بالخاء - ووصفها وصف التجيبى لبئر الجنيب تقريباً . راجع الصفحة ٤٥ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر -- دار بيروت فى بيروت .

من عدن وغيرها بالبضائع الهندية[٥] . وهكذا يعطينا ابن يوسف فائدة جديدة تتمثل فى أن ارتباط المواصلاتِ بِعَيْذَابَ يعود إلى طبيعة مينائها الذى يستر المسافرين إذا هم دخلوه ، من الرياح . وهذا ما لم يشر إليه ابن جبير فى رحلته ، وكم ترك الأول للآخر . وإذن فميناءُ عَيْذَاب فى هذا الشأن يضارع مُرْسَى أَبْحُر قرب جُدَّة . .

وكما وَصَمَ ابن جبير سكان عَيْذَاب من البُجاة بالهمجية والْعُرْيِ ، فكذلك وَصَمَهُمُ ابن يوسف وزاد أن شعور نسائهم بادية ، وثُدِيَّهُنَّ كذلك ، ولا يُعاقِبون على الزنا ولا يُعَارَون عليه[٦] . وإذا كان ابن جبير يقدم وصفاً مجملًا عن والى عيذاب الغزىّ كما ينسبه ، وعن سلطان البُجاة فى عَيْذَاب فابن يوسف يفصل لنا ما أجمله ابن جبير ويقول : (وبهذه الْبُلَيْدَةِ عامل من قبل السلطان الأَجَلّ ملك الديار المصرية والشامية ، وآخر من قبل ملك الْبُجَّةِ الساكن فى جزيرة سواكن من جزر بحر القلزم المذكورة ، يقتسمان جبايتها نصفين[٧] .

ولم يذكر لنا ابن جبير أن تفتيشاً يجرى على الحجاج فى ميناء عيذاب وذلك بسبب أن صلاح الدين كان قد رفع الوظائف المكوسية التى كانت قبل اليوم[٨] . أما القاسم بن يوسف فقد ذكر أنه (جرى فيه عليهم تفتيشٌ شنيع ويُبْحَثُ عن رحالهم وأزوادهم وأمتعتهم ويؤخذ منهم ضرائب بحسب أحوالهم) . ويعطف على ذلك أن الله تعالى رفع ذلك بمكتوب وصل فى قافلتهم مِنْ قِبَلِ الملك الأَجَلِّ حسام الدنيا والدين

---

(٥) مستفاد الرحلة والاغتراب ، الصفحة ٢٠٦ .
(٦) مستفاد الرحلة والاغتراب ، الصفحة ٢٠٦ .
(٧) المصدر السابق بنفس الصفحة ٢٠٦ .
(٨) ص ٤٥ من رحلة ابن جبير ط دار صادر – دار بيروت .

أبى الفتح المنصورى قرئ على منبر جامعها الأعظم بأن لا يتعرض أحد من عُمَّاله ولا من نُوَّابِه لأحد من الحجاج . وبالجملة فإن المعلومات الجغرافية والتاريخية التى زودتنا بها رحلة القاسم التجيبى أهم من معلومات رحلة ابن جبير فيما يتعلق بِعَيْذَابَ وبحرها وأهلها .

يقول القاسم : (وبحرها – يعنى بحر بُلَيْدَةِ عَيْذَابَ – من بحر الهند وهو البحر الحبشىّ ، وهو خليج منه ينتهى إلى مدينة القلزم) . ثم يقول : (إن طول هذا البحر ألف ميل وأربعمائة ميل ، ثم لا يزال يضيق حتى يُرَى من بعض جوانبه الجانب الآخر ، وأوسع مكان فيه حيث مدينة القلزم . ثم يقول : والمسافرون فيه إلى اليمن وغيرهم لا يكون سيرهم أبداً إلا بالنهار فقط ، وأما الليل فلا يمكن لأحد أن يسير فيه لصعوبة طرقه ، وتعاريج مسالكه ، وكثرة معاطبه ، وهو وحش الجزائر ، لا خير فى ظاهره ولا خير فى باطنه) . ثم يقول : (ومراكب هذا البحر بجملتها فى غاية من ضعف البنية) ثم يَصِفُ كيفية إنشائها من الألواح الْمَشْدُودِ بعضُها إلى بعض بحبال الْقِنْبَار ، وهو ليف يكون على الرانج وهو الجوز الهندىّ .

وقال : (إن العرب تقول لحبل السفينة الْجُمَّل – بضم الجيم وتشديد الميم – وقرئ (حتى يلج الْجُمَّلُ فى سَمِّ الخياط) . ويقال له أيضاً القلس – بإسكان اللام – والكُرّ – بضم الكاف – وهو واقع عليه ، وعلى الذى يُطْلَعُ به النخل . وبعد أن أفاض فى وصف تركيب أجزاءِ المراكب وما إلى ذلك قرر أنه لا ينبغى لأحد أن يركب مركباً من هذه المراكب مختاراً لما يُتَّقَى من غررها وخطرها ، لضعف بنيتها ، وكثرة الازدحام بها .

وكما أَثْنَى ابن جبير على رُبَّانِ مركبهم فى بحر عَيْذَاب أَثْنَى ابنُ يوسف على رُبَّانِ مركبهم فيه ، وذلك بعد دخولهم مرسى من مراسى عَيْذاب على مقربة من جزيرة (سواكن) يُدْعَى بالمربوطة بعد أَن لاقوا من أَهوال البحر الفرعونىّ ما يشيب لهوله الْوِلْدَانُ بحيث عاينوا الموت عياناً ، وأَيقنوا بالتلف لا محالة[9] .

ولشدة انزعاج ابن يوسف مما لاقاه من أَهوال البحر الفرعونىّ قال : (إنه عند نزوله بِجُدَّة سَنحَتْ له ذِكْريَانِ سوداوان مزعجتان هما : البحر الوحش الفرعونىّ ، ورؤية السودان البُجَّة . الذين لا يفقه أَحد ما يقولون) وبالمناسبة ذكر (الريح الأَزيب) وفسر الأَزْيَبَ بأَنه (اسم ريح من الرياح الأَربع) .

ويقول كاتب هذه السطور : لا تزال كلمة الأَزْيَب مستعملةً فى بعض أَنحاءِ المملكة العربية السعودية وبخاصة فى جُدَّة ، وضبباء ، وحقل ، بشمال المملكة ، ويقصدون بها الريح التى يكون مَهَبُّهَا من الجنوب ، وهى كثيراً ما تتسم بالحرارة والرطوبة وتشتمل على الغبار فى بعض الأَحيان .

البجاة فى رحلة ابن بطوطة

فى شهر رجب سنة ٧٢٥ هـ – ١٣٢٤ م بدأَ الرحالة العربىّ المغربىّ الشهير أَبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللَّواتىّ المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين – بدأَ رحلته إلى بيت الله الحرام حاجًّا ، وذلك بعد مُضِىّ ٢٩ سنة على بدءِ القاسم التُّجيبىّ رحلة حجه التى كتب عنها كِتَابَهُ : (مستفاد الرحلة والاغتراب) .

---

(٩) المصدر السابق الصفحة ٢١٣ .

وكان خروج ابن بطوطة من بلدة طنجة بالمغرب العربى وعمره اثنان وعشرون عاماً ، وكما قام ابن جبير بثلاث رحلات إلى المشرق كذلك فعل ابن بطوطة فقد استغرقت رحلاته زُهَاءَ ٢٩ سنة وأطولها الرحلة الأُولى التى لم يترك فيها ، تقريباً ، ناحية من نواحى المشرق والمغرب إلا زارها .

ولحسن حظه كانت رحلته الأُولى إلى الحج رحلة برية لم يَخُضْ فيها بحراً هائجاً ولم ير شيئاً من أهوال البحر الأَبيض المتوسط ولا البحر الأَحمر ، كما عانى منه زميلاه اللذان سبقاه إلى هذا العالم ، فقد صرفه صارف اضطرارىٌّ عن ركوب البحر من عيذاب إلى جُدَّة وذلك أَنه اتفق عند وصوله إلى عَيْذَاب أَن وجد سُلْطَان البُجَاة الحَدْرَبىَّ يحارب الأَتراك[10] .

فقد خَرَّقَ المراكب ، وهرب التركُ أَمامه ، فتعذر سفرُ الرحالة فى البحر الأَحمر ، فباع زاده وعاد مع العرب الذين استأْجر منهم جمالَهم إلى صعيد مصر . ولما وصل إلى مدينة قوص ، وهو فى طريقِ عودتِه انحدر منها إلى النيل فى وقت مَدِّهِ ووصل بعد مسيرة ثمانٍ ، ومكث بها ليلة واحدة ، وقصد بلاد الشام فى منتصف شعبان سنة ٧٢٦ هـ — ١٣٢٥ م

---

(١٠) يقصد بالأتراك جيش أحد ملوك مصر من خلفاء السلطان صلاح الدين ويسميهم ابن جبير الغز .
هذا وليس مؤلف هذا الكتاب مع ابن جبير فى وصفه لقوم صلاح الدين يوسف بن أيوب ابن شادى بأنهم من « الغز » ولا مع ابن بطوطة فى وصفه لهم بأنهم من « الترك » فصلاح الدين كردى الأصل ولد فى تكريت . أما الغز فهم طائفة تركية كانوا يعيشون فيما وراء النهر ويقال إنهم مسلمون ويقال إنهم نصارى ويقال إنهم بادية كانوا يسكنون بيوت الشعر . فليسوا من قوم صلاح الدين وليس قوم صلاح الدين منهم مطلقاً .
راجع كتاب تاج الإسلام أبى سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير لمنيرة ناجى سالم بإشراف الدكتور ناجى معروف ص ٤٣٤ و ٤٣٥ طبعة بغداد ، وراجع تواريخ صلاح الدين القديمة والحديثة .

ووصل مدينة بلبيس ، وذهب حتى بلغ (قَطْيَا) وواصل السفر بَرًّا حتى وصل المدينة المنورة ومكة المكرمة وحج بسلام .

وقد أمدنا ابن بطوطة بوصفٍ مُقْتَضَبٍ لمدينة عَيْذاب وقال إنها : (مدينة كبيرة وفيرة الحُوت واللَّبَن ، ويُحْمَلُ إليها الزرعُ والتمرُ من صعيدِ مصر). وكِبَرُ عَيْذَاب الذى وصفه ابن بطوطة هو أمر حادث لها من بعد زمن ابن جبير وابن يوسف ، فقد وصفاها بعكس ذلك .

وكما وصف سلفاه : ابن جبير وابن يوسف ، قَوْمَ البُجَاة وصفهم ابن بطوطة أيضاً فقال : (وأهلها البجاة ، وهم سود الألوان ، يلتحفون ملاحف صُفْراً ، ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعاً ، وهم لا يُورِثُون البنات ، وطعامُهم أَلْبَانُ الإبل ، ويركبون المهارى ، ويسمونها (الصُّهُب) . وثلث المدينة للملك الناصر ، وثلثاها لملك الْبُجاة ، وهو يعرف باسم (الْحَدْرَبِىّ)[11] .

هذا ومما لاحظته هنا أن ابن بطوطة وافق ابن جبير فى تسمية (الْبُجَاةِ) بهذا الاسم وخالف تسمية ابن يوسف لهم ؛ إذ سماهم فى رحلته باسم (الْبُجَّةِ) . وهذا مع أن ابن بطوطة أقرب زمناً إلى ابن يوسف ، منه إلى ابن جبير ، وخالف ابْنُ بطوطة ابْنَ يوسف فى وصف مدينة عيذاب ، فابن يوسف سماها (بُلَيْدَة) بالتصغير ، وابن بطوطة قال إنها (مدينة كبيرة) . . وكُلٌّ من الرحالتين يصف ما رأى ولستُ أدرى هل حدث شيءٌ من التطور لهؤلاءِ القوم المتوحشين فيما بعد زمن ابن جبير ، وعهد ابن يوسف وذلك بالنسبة لزمن ابن بطوطة . فقد أشار هذا إلى أن سلطانهم أصبح ذا نفوذ أكبر وإلى أنه طرد الترك ، إذ خرَق

---

(١١) رحلة ابن بطوطة الصفحة ٥٣ طبعة دار صادر بيروت .

السفن البحرية فعطلها بذلك عن الحركة فصار ثلثا مدينة عَيْذَاب له ، والثلث للملك الناصر ، وصار قومه يعتجرون بالعصائب ، وصاروا يلبسون ملاحف صُفْراً . . فيبدو أنهم خرجوا عن دَوْرِ الْعُرْيِ الذى كانوا عليه فى الزمن السابق . هذا وتسمية سلطان البجاة باسم « الْحَدْرَبِىّ » يومئ إلى وجود عَلَاقَةٍ مَا ، بين البُجاة والعرب ، فهذا الاسم عربىّ السمات ، ولعله مركب تركيباً مزجيًّا من (حَدب) و (حَرب) . . وهو فى ذلك مثل اسم (عَبْشَمِىّ) المركب تركيباً مزجياً من (عبد) و (شمس) . وقد سجل لنا التاريخ ـ كما سيأْتى ـ وجود علاقة تمازج وصهر بين قوم البجاة والعرب المسلمين بعد معارك، وكَرٍّ ، وفَرٍّ ، ولا صلح إلا بعد الحرب . .

تعريف بحقيقة البجاة وتاريخهم

الْبُجَاة أَو الْبُجَّةُ اسمان يطلقان على قوم رُحَّلٍ يتبعون الكلأ ويقيمون فى أَخْبِيَةٍ من جلود ، وهم طوائف عديدة منهم :

« الْحَدَارِبُ » الذين منهم السلطان الحدربىّ ، والدَّنَافِخُ ، واليشارية ، والشرافة ، والحدندوة ، الذين هم الْهَدَنْدَوَةُ الذين رأَيناهم فى مدينة بورت سودان رَأْىَ الْعَيْن، طوال الأَجسام نحاسيو الأَلوان، طوال الوجوه ، ذوو شعر كثيف مفلفل مبعثر مضطرب كالقباب السود فوق جماجمهم الكبيرة ولهم سهام صغيرة ولا يزالون ، عُرَاةُ النصف الأَعلى من أَجسامهم ، وعيونهم نفاذة كسهامهم ، وكلامهم ليس بعربىّ ، ويقيمون بربض بورت سودان ، فى أَخصاص لهم مزدحمة بهم ، ويدهنون رؤوسهم وأَجسامهم بالسمن أَو بالزيت ومنهم (الجلنقة) وغيرهم . . هذهِ بطون البُجَاة ، ولكل بطن منهم رئيس ، وأَنسابهم من جهة النساءِ ، ويُورِثُونَ ابن البنت

وابن الأُخت دون ولد الصُّلْب، لأَنهم يرون أَن النسل لا شك فيه من ناحية الأُم، أَمّا الأَب فأَمر مشكوك فيه . ولا ريب فى أَن هذا من آثار الوثنية المظلمة بقيت فيهم .

وكما أَشرنا إليه آنفاً فإن البجاة يركبون النُّجُبَ الصُّهْبَ(١٢) وتُنْتَجُ عندهم، وعندهم الجمال العربية كثيرة، ولديهم المواشى من البقر والمعز والضأْن . وغذاؤهم اللحم النَّيِّءُ واللَّبَنُ ويشربون دم الضأْن سخناً ويأْكلون مُخَّ الجمال نيئاً، وهم صحاح الأَبدان خِمَاصُ البطون، وأَلوانهم مشرقة الصفرة وتقاطيعهم غليظة، ووجوههم طويلة عريضة، وأُنوفهم بارزة قليلًا، وشعورهم فلفلية غير متلبدة وذلك دليل اختلاط، وسحنهم شنيعة، وهم عَدَّاؤُونَ مثل جِمَالِهِمْ الصُّبُرِ على الْعَدْوِ، وعَلَى العطش، وهم يسابقون عليها، ويقاتلون عليها، ولهم ذمة، فإذا غدر أَحدهم رفع المغدور به ثوباً على حربة، وقال : هذا عرش فلان، يعنى أَبا الغادر، فتصير سُبَّةً عليه حتى يترضاه، وهم مضيافون . وسلاحهم الحراب السباعية، طول النصل ثلاثة أَذرع، وطول العود أَربعة أَذرع، والحديدة فى عرض السيف، لا يخرجونها من أَيديهم إلا فى بعض الأَوقات، وتَصْنَعُ هذه الحرابَ النساءُ الْبُجَاوِيَاتُ، ولهم درق يصنعونه من جلود البقر مشعرة، ودرق مقلوبة تعرف بالأَكسومة تُتخذ من جلود الجواميس، وقِسِيُّهُمْ عربية كبار غلاظ من السدر والشوحط، يرمون عليها بنبل مسموم، ويُصْنَعُ سَمُّها من عروق شجر العلف يُطبخ على النار حتى يصير مثل الغراء لزُوجَةً وتماسكاً .

---

(١٢) الأَصهب : ذو اللون القريب من البياض أو لون « شاهى بحليب » كما تسميه عاميتنا الحاضرة فى المملكة العربية السعودية .

ويقال : (إن رجالهم منزوعو الخصى الْيُمْنَى ، وإن النساء كن يقطعن أَشفارهن بسبب أن ملكاً حاربهم وشرط عليهم قطع ذكور الرجال وثُدِىِّ النساء قاصداً بذلك قطع نسلهم)، فقبلوا الشرط وعَدَّلُوه إلى قطع أَشفار النساء ويُمْنَى خصى الرجال ، ومنهم فئة يَقْلَعُونَ ثناياهم قائلين : لا نريد أن نتشبه بالحمير ، وطائفة يقال لهم (البازة) تُسَمَّى نساؤهم باسم واحد ، ورجالهم كذلك . وهم سريعون إلى الشر وإيذاء أعدائهم .

وقد عانوا كثيراً فى القرون المتوسطة فى البلاد المجاورة لهم ولاسيما صعيد مصر حتى القاهرة[١٣] . وكان فراعنة مصر يغزونهم ويوادعونهم أَحياناً ، لحاجتهم إلى معادن بلادهم . وكذلك فعل الروم حين ملكوا مصر .

وفى صدر الإسلام كان أَول من هادنهم عبيد الله بن الحبحاب السَّلُولىّ ، وذكر أنه وجد فى كتاب ابن الحبحاب : (لهم ثلاثمائة بَكْرٍ فى كل عام ، حين ينزلون الريف مجتازين ، تُجَّاراً غير مقيمين على أَن لا يَقْتُلُوا مسلماً ، ولا ذمياً ، فإن قتلوا فلا عهد لهم ، وعلى أَن لا يُؤْوُوا عبيد المسلمين ، وأَن يَرُدُّوا الآبقين منهم إذا دُفِعُوا إليهم ، وإذا أَخذ الْبُجاوىُّ شاة فعليه أَربعة دنانير وللبقرة عشرة) وكان وكيلهم مقيماً بالريف رهينة بيد المسلمين .

وحينما كثر المسلمون هناك وتزوجوا منهم أَسلم كثير من الْحَدَارِبِ إسلاماً ضعيفاً كما قرره لنا الرحالة العرب الذين دخلوا أَرضهم .

(١٣) مر بنا ما أورده ابن بطوطة من ثورتهم العارمة على عامل سلطان مصر فى عيذاب بالقرن الثامن الهجرى ، وخرقهم للمراكب البحرية حتى يعطلوها لكى يمنعوا الجيش المصرى من استعمالها والعبور عليها إليهم أو عنهم .

والْحَدَارِبُ شوكة البجاة ووجوههم والدَّنافخ تَبَعٌ لهم وخفراؤهم، وهم كالعبيد لهم، يتوارثونهم، وقيل: إن البجاة أسلموا قبل ذلك فى إمارة عبيد الله بن أَبى سرح.

وقد كثرت إذايتهم للمسلمين فيما بَعْدُ، فأَرْسل إليهم المأْمون العباسىُّ عبدَ الله بن الجهم، فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم، وكتب بينه وبين رئيسهم كتاباً فيه عدة شروط، منها: أَن تكون البلاد للمأْمون وأَهْلُها عبيداً له، ويكونَ هذا الرئيس مُقَرًّا على ملكه، يؤدى الجزية (٦٠٠) من الإبل أَو (٣٠٠) دينار، حسب اختيار الخليفة، كان ذلك سنة ٢١٦ هـ.

وقد أَقام البُجَاة على هذه الشروط مدة ثم غزوا الريف من صعيد مصر، وكثرت الشكاوى منهم إلى الخليفة المتوكل على الله العباسىّ، فأَرسل إليهم جيشاً بقيادة محمد بن عبد الله الْقُمِّى، فأَتاهم من مصر، وعلق أَجراساً فى أَعناق الخيل، وشغلهم بشىءٍ، اجتمعوا عليه ثم كثرت عليهم الخيل، فنفرت إبلهم، وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وقُتِلَ رئيسهم، فقام ابنه بعده مَقَامَهُ، وطلب الصلح فصالحوه كان ذلك سنة ٣٤١ هـ وشرط القائد محمد بن عبد الله الْقُمِّى عليهم أَن يشتغل المسلمون فى استخراج المعادن من بلادهم، وأَقام بأَسوان، والياً عليهم، وخلفه ولاة بعده حتى تكاثر المسلمون فضعفت شوكة البجاة.

والبُجَاة الداخلون فى صحراءِ علوة أَقل شجاعة وأَكثر شرًّا من الْحَدَارِبِ، وليس لهم دين، ولهم كبار، ولكل بطن منهم كاهن يضرب قبة من أَدَم، معبدهم فيها، فإذا أَرادوا أَن يستخبروه عمَّا يحتاجون إليه تَعَرَّى ودخل القبة مستديراً ويخرج إليهم وبه أَثر جنون وصَرْع

فيقول : (الشيطان يقرئكم السلام ، ويقول لكم : ارحلوا عن هذه الحلة فإن الرهط الفلانىّ يقع بكم ، وسَأَلْتُمْ عن الغزو إلى بَلَدِ كَذَا فسيروا فإنكم تظفرون وتغنمون كذا وكذا ، والجمال التى تأْخذونها من موضع كذا هى لى ، والجارية الفلانيَّة التى تجدونها فى الخباءِ الفلانىّ ، والغنم التى من صفتها كذا وكذا ونحو هذا القول .. فيزعمون أنه يَصْدُقُهُمْ فى أكثر من ذلك ، فإذا غنموا أَخرجوا من الغنيمة ما ذكر ودفعوه إلى الكاهن) .

هذا وقد بقى من الْحَدَارِبِ جماعة على هذا المذهب .

هذا ملخص ما أَخذه المقريزى عن عبد الله بن أَحمد مؤرخ النُّوبة وما وجد فى كتب أُخرى عربية وإفرنجية[١٤] .

مزيد من المعلومات عن تاريخ البجة :

هذا وقد أَمَدَّتنا بعض المصادر الحديثة بمزيد من المعلومات التاريخية عن قبائل « البُجاة » أَو « البُجَّة » أَو البِجة » (بكسر الباءِ) كما رسمت تلك المصادر ، التى أَفادت بأَن هذه الصيغة الأَخيرة هى التى نُقِلَتْ إلى اللغة الإِفرنجية ببعض تحريفٍ مزيد فيه : (بِيجَا) « Beia »

وقد اختلف الكُتَّابُ فى أَصل سُلالة الْبُجَّة ، فمنهم من يعيدهم إلى الأُصول الساميَّة، ومنهم من يعيدهم إلى الأُصول الحاميَّةِ .. ولكل رأْى أَسبابه ودلائله ودوافعه .

وكانت هذه القبائل موجودة قديماً بشكلها المستقل فى مناطقها المختصة . وكان تكتلها الأَول فى المنطقة الشرقية من نهر النيل المشتملة

---

(١٤) دائرة المعارف للبستانى ، الصفحات ٤٩٦ و ٤٩٧ و ٤٩٨ — م ٥ طبع مطبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٨١ م .

على وادى عطبرة وجانب من وادى النيل الأَزرق حتى حدود الحبشة عند كَسَلَا . . وكانت تُتَاخِمُ حدُودَ مصر من الشمال ، ممتدة إلى البحر الأَحمر عند طوكر وسواكن .

وتذكر تلك المصادر نظريةً فى أَصل قبائل البجة فتعزوهم إلى قبائل عربيّة ، هاجرت من شِبْهِ جزيرة العرب ، حيث اتصلت بالمصريين القدماءِ بادئَ ذِى بَدْءٍ ، بحكم الجوار الناشئ من الهجرة ، ولكنهم ظلوا بادية لأَسباب طبيعية مناخية محضة ، ولما وصلتهم الفتوح الإِسلامية وكان الجفاف قد دقت أَصابعه أَبواب بلادهم المطرة فيما مضى نزحوا إلى الشرق زرافات ووحداناً ونزلوا بالمرتفعات الجبلية من شرق السودان إلى شاطئ البحر الأَحمر ، مُسْتَوْلِين على بلاد أَبو غوص « اريتريا » وشمال الحبشة ، وبذلك أَتمت قبائل البجة عزلة الدولة الحبشية المسيحية. وقد ذهب اليعقوبى المؤرخ الإِسلامى القديم إلى إطلاق اسم « مملكة الْبُجَّة » على جميع الأَراضى التى كانت تمتد من جنوبى أسوان إلى البحر الأَحمر .

وقد اتصل البجة بالعرب منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) من طريق البحر الأَحمر ووادى النيل معاً . وكان هذا الاتصال تجاريًّا واجتماعيًّا . وكان العرب قد ساقوا أَول حملة حربية منذ القرن الهجرى الأَول على مملكة النوبة المسيحية ووصلت جيوشهم عاصمتها فعقدت معهم معاهدة اقتصادية عرفت باسم « معاهدة البقْط » وكانت هذه المعاهدة الاقتصادية قد استهدفت تبادل التجارة بين الجانبين كما عقد العرب عهداً مع قبائل البجة فى صدر الإِسلام ولكنهم لم يحافظوا على الوفاءِ بهذا العهد الذى قطعوه على أَنفسهم فكثرت غاراتهم على جهات أَسوان ، مما حَمَلَ الخليفة العباسى « المأْمون » على تجْريد حملات

تـأْديبية عليهم على ما فصلناه فيما سبق ، ثم نقضوا العهد مرة أُخْرى فجرد عليهم الخليفة المتوكل حملة عسكرية بقيادة محمد بن عبد الله القمى ، على ما مضى تفصيله آنفاً أَيضاً .

وبعد استتباب الأَمن فى بلاد البجة وغيرها بنى المسلمون فى العاصمة « هجر » وفى « سنكات » .

وقد دخل « الْحَدَارِبُ » وهم قسم من البجة – فى دين الإسلام بتـأْثير المسلمين الذين كانوا يعملون فى المناجم الموجودة فى منطقة البجة ، وذلك منذ القرن الهجرى الرابع : (العاشر الميلادى) كما انتشر الإسلام تدريجياً فى جميع مناطقهم حتى عمّ آفاقهم أَخيراً .

ويذكر التاريخ الحديث أَن الحكم المصرى الذى ساد تلك الجهات فى القرن الهجرى الثالث عشر – التاسع عشر الميلادى – كان له أَثر كبير فى تغلغل الدين الإسلامى بقوة ، من كَسَلَا فى الغرب ، ومصوع فى الشرق .. وذلك برغم قِصَرِ مدة ذلك الحكم ، كما يعود تغلغل الإسلام فى أَريتيريا إلى الأُسَرِ الدينية المشهورة وهى : أُسرة الشيخ الأَمين بن حامد القرشى ، وأُسرة السيد الميرغنى ، وقد اعتنقت قبائل مسيحية الإسلامَ مثل قبائل تاكليته Takles وهبتية Haptes (عطية يسوع) وتياريام Temaryam (عطية مريم) . وكانت قبيلة مَنْسَاع Mansaa مسيحية بـأَسرها حول منتصف القرن التاسع عشر الميلادى (الثالث عشر الهجرى) ثم دَانَ السواد الأَعظم منها بالإسلام ، فى مستهل القرن العشرين الميلادى (الرابع عشر الهجرى) . وقد التقت موجة التغلغل الإسلامى فى أَرتيريا بالجموع الإسلامية التى وصلت أَيضاً من الشاطىء الشرقى من سواكن ، ووصلت إلى وادى بركة . هذا وقد قُدِّر

عدد نفوس البجة أو البيجا المُنْضوين تحت الحكم الحبشيِّ المعاصر بتقدير إيطالى فى سنة ١٩٣٩ م (١٣٥٧ هـ) بـ « ٢,٤٠٠,٠٠٠ نسمة » وبلغ عددهم فى التقديرات الإيطالية أَيضاً فى سنة ١٩٦٥ م — (٣,٨٤٠,٠٠٠)[١٥] نسمة .

وقد عرض الدكتور أَحمد عطية الله ما توصل إليه عن قبائل البجة فقال : (بجة : قبائل حامية الأَصل تعيش حياة بدوية فى الصحراءِ الشرقية (أَى لمصر) بين وادى النيل وساحل البحر الأَحمر ، وتنتشر فى مصر والسودان على السواءِ ، قد امتزجت مع مر العصور بالقبائل العربية القادمة من الجزيرة (أَى شبه جزيرة العرب) . وتقوم على رعاية الإِبل والأَغنام وتسيير القوافل .. ومن أَهم بطونها : العبابدة ، والبشارية ، والهدندوة ، وبعضها أَصبح يمارس حياة مستقرة على أَطراف الوادى (أَى وادى النيل)[١٦] .

---

(١٥) الإسلام والحبشة عبر التاريخ ، للمهندس فتحى غيث ص ٢٠ و ٢٣ و ٢٤ و ٧٧ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣٤٩ .

(١٦) دائرة المعارف الحديثة للدكتور أحمد عطية الله ص ٢٨٢ المجلد الأول الطبعة الثانية بمصر .

الفصل الرابع عشر

مع ابن جُبير من جُدّة إلى مكّة

ابن جبير فى جدة :

لم ينزل ابن جبير وصاحبه أَحمد بن حسان القضاعىّ فى مدينة جُدَّة بفندق ، وإنما نزلا فى دار قائد مدينة جُدَّة : علىٍّ بن موفق ، المُعيَّن من قِبَل صاحب مكة المكرمة : مُكثر بن عيسى الحسينى ، وقد أَعطانا ابن جبير وصفاً لتلك الدار فقال : (وكان نزولنا فى صرح من تلك الصروح الْخُوصِيَّة التى يبنونها – يعنى أَهل جدة – فى أَعالى ديارهم ، ويخرجون منها إلى سطوح يبيتون فيها) ؛ ويتضح من هذا النص أَن ابن جبير قدم إلى جدة فى فصل الصيف ، ثم وَصَفَ جُدَّة فقال : (وجُدَّة هذه قرية على ساحل البحر المذكور ، أَكثر بيوتها أَخصاص وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين ، وفى أَعلاها بيوت من الأَخصاص كالغُرَفِ ، ولها سطوح يُستراح فيها بالليل من أَذى الحر) ، ثم قال : (وبهذه القريةِ آثار قديمة تدل على أَنها كانت مدينة قديمة) ثم قال : (وأَثر سورها المحدق بها باق إلى اليوم) .

ووجود الفنادق فى جدة على ما تحدث به ابن جبير يدل على أَنها كانت مدينة تقلص ثمَّ عُمْرَانها فأَصْبحت قرية على ما شاهدها عليه فى أَواخر القرن السادس الهجرىّ .

ومما أَورده قوله : (وبها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة (قيل) إنه كان منزل حواء أُم البشر « صلى الله عليها وسلم » عند توجهها إلى مكة) . وقد عقب على هذه الرواية بقوله : (والله أَعلم بذلك) مما يُشْتَمُّ منه أَن هذا القول غير موثوق لديه ، وابن جبير هنا يَذْكُر ما ذُكِرَ له فى جُدَّة من أَن البناء الذى رآه بجدة كان منزلًا لحواء ، ولم يذكر أَنه كان قبراً لها كما هو شائع .

أَما القاسم بن يوسف التجيبيّ السِّبْتى فقد أنكر إنكاراً قاطعاً وجُودَ أُم البشر حواءَ بجدة . ويَعْزُو (أَن البناءَ كان موضع نزولها من الجنة) إلى أَهل العلم ، ولكنه قد نقل مع ذلك قول ابن إسحاق : إن مهبط آدم وحواءَ عليهما السلام كان على جبل يقال له (واشم) ـ بالشين المعجمة ـ وفي معجم البلدان : (واسم) ـ بالسين المهملة ـ الذى وصفه ياقوت بأَنه جبل بين الدهنج والمندل ، من أَرض الهند ، وأَضاف ابن القاسم إلى ذلك ما قاله بعضُ أَهل العلم من أَن آدم عليه السلام أُهْبِطَ بِسَرَنْدِيبَ من الهند بجبل يقال له (بوذ) وأَهبطت حواءُ عليها السلام بِجُدَّة ، وأُهْبِط إبليسُ بـ (الْأُبُلَّةِ) وأُهبِطَتِ الحية بِبَيْسَانَ ، وقيل بسجستان أَكْثَرِ بلادِ العالم حيَّاتٍ والله أَعلم(١) .

وذكر ابن جبير أنواع سكان جدة ، وقال ما ملخصه : إن أَكثرهم أَشراف علويون حسَنيون وحُسَيْنِيُّونَ وجعفريون . وقال إنهم فى شَظَفٍ من العَيْش يستخدمون أَنفسهم فى إكراءِ الجمال ، إن كانت لهم ، أَو بَيْعِ اللَّبَنِ أَو الماءِ أَو التمر الذى يلتقطونه ، أَو الْحَطَبِ الذى يحتطبونه ، وربما تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأَنفسهن .

وشَنَّ حملة شعواءَ على (مُكْثِرٍ) أَمير مكة وذلك أَنه برغم أَن صلاح الدين قد رفع المكوس عن الحجاج ، وعَوَّضَ عن ذلك أَميرَ مكة هذا بالمال والطعام فإنه متى أَبطأَ عنه ذلك عاد إلى ترويع الحجاج بأَخذ المكوس منهم . وقد حَدَثَ لابن جبير وصحبه الترويعُ والإمساكُ بهم حينما وصلوا إلى جُدَّة وظلوا على ذلك حتى ورد أَمْرُ الأَمير إلى عامله بِجُدة بأَن يضمن الحجاجُ بعضُهم بعضاً ، ومن ثم يدخلون إلى حرم

---

(٢) مستفاد الرحلة والاغتراب الصفحة ٢١٩ .

الله فإن ورد المال والطعام اللذان رسمهما له صلاح الدين فبها ونعْمَتْ ، وإلا فهو لا يترك مَالَهُ قِبَلَ الحجاج .. ويعلق ابن جبير فى رحلته على هذا العمل، بالاستنكار له .. وقد حَدَّدَ لنا ابن جبير مقدار المال والطعام الذين قررهما صلاح الدين للأمير مكثر ، بدلًا عن مكس الحاج ، وقَدْرُ ذلك العوض (ألفا دينار) .. و (ألفا إرْدَبٍّ من القمح) .. حاشا إقطاعات أقطعها بصعيد مصر وبجهة اليمن لهم بهذا الرسم، وعَلَّل ابنُ جبير تَجَاسُرَ الأميرِ مكثر على ما فعل ، من فرض المكوس على الحجاج ، بغياب السلطان صلاح الدين بجهة الشام فى حروب له هناك مع الإفرنج ..

انفصال ابن جبير من جدة إلى مكة

انفصل ابن جبير من جُدَّةَ قاصداً مكة المكرمة هو وزميله أحمد ابن حسان القضاعىّ ومن معهما من الحجاج المغاربة ، ونزلوا بالمحطات التى تقع بين جدة ومكة . ومن هذه : محطة (القرين الواقعة بمنتصف الطريق بين البلدين) ، وربما انطبق اسم هذا الموقع على قرية بَحْرَةَ التى كانت فى العقد الرابع من هذا القرن الهجرىّ قرية صغيرة جداً من الأخصاص واللَّبنِ ، وكان بها مسجد صغير كان له إمام سودانىٌّ اسمه (ياسين) ..

وكما تَعَوَّدَ ابنُ جبير فى التعبير عن مغادرته أىّ بلد بِالْبَرِّ أن يقول : (انفصلنا) .. و (كان انفصالنا) . فكذلك كان ابن يوسف يصنع فى كتاب رحلته إلى الحج . ونرى أن ابن يوسف مُقْتَبِسٌ لهاتين العبارتين من ابن جبير ، وليست أسماءُ المحطات التى ذكرها ابن جبير فيما بين جُدَّة ومكة هى أسماءَ المحطات التى وردت فى رحلة ابن يوسف..

فابن جبير يذكر أن أول محطة لهم من جُدَّة إلى مكة ، اسمها (القرين) . وأما ابن يوسف فسمَّى أول محطة (البرابر) . ودخل ابن جبير مكة فى الساعة الأُولى من يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هـ = ١٣٨٣ م من باب العمرة ، وكان القمر بَدْراً ، والأَصوات تَصُكُّ الآذان بالتلبية فى كل مكان ، ودخل المسجد الحرام ، وشاهد الكعبة الحرام (عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان محفوفة بوفود الرحمٰن) فطاف طواف القدوم ، وصلى بمقام إبراهيم ، وتعلق بأَستار الكعبة ، عند الملتزم ، ودخل قبة زمزم ، وشرب من مائها ، ثم سعى بين الصفا والْمَرْوَةِ ، وحلق ، وأَحَلّ ، وحمد الله على إكرامه بالوفادة عليه .

وكان نزوله مع صحبه بدارٍ تعرفُ بالنسبة إلى الحلال قريبة من الحرم ، ومن باب السُّدَّةِ أَحدِ أَبوابه فى حجرةٍ كثيرةِ المرافق الْمَسْكَنِيَّةِ مُشْرِفَةٍ على الحرم وعلى الكعبة المقدسة ، وقد وصف لنا الكعبة بقوله : (والبيت العتيق مَبْنِيٌّ بالحجارة الكبار الصُّمِّ السُّمْرِ ، قد رُصَّ بعضُها على بعض ، وأُلصِقت بالعقد الوثيق إلصاقاً لا تحيله الأَيام ، ولا تقصمه الأَزمان) .

ووصف البلاط المفروش بداخل الْحِجْرِ ، بكلمة خاصة يقول فيها : (وداخل الحرم بلاط واسع ينعطف عليه الحجر كأَنَّه ثُلُثَا دائرة ، وهو مفروش بالرخام الْمُجَزَّع المقطع فى دَوْرِ الْكَفِّ إلى دَوْرِ الدينار إلى ما فوق ذلك ، ثم أُلصق بانتظام بديع وتأْليف معجز الصنعة ، غريب الإتقان ، رائقِ الترصيع والتجزيع ، رائع التركيب والرصف ، يبصر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخواتم والأَشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف أنواعها وصفاتها ما يُقَيِّدُ بصره حُسْناً فكأَنه يُجيلُه

فى أزهار مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف الْقِسِيِّ ، وداخِلَها هذه الأشكال المرصوفة والصنائع المذكورة وبإزائها رخامتان متصلتان بجدار الْحِجْرِ المقابل للميزاب ، أَحْدَثَ الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتقضيب[٢] مالا يحدثه الصَّنَعُ اليدين فى الكاغد[٣] قَطْعاً بالْجَلَمَيْنِ[٤] . مرآهما عجيب ، أَمَرَ بصنعتهما إمام المشرق أبو العباس أحمد الناصر ابن المستضيء بالله أبى محمد الحسن ابن المستنجد بالله أبى المظفر يوسف العباسى[٥] كما خص ابن جبير الرخامة المقابلة للميزاب فى وسط الْحِجْرِ بوصف يقول فيه : (ويُقَابِلُ الميزاب فى وسط الْحِجْرِ وفى نصف جداره الرخامىّ ، رخامةٌ قد نقشت أبدع نقش وحُفَّتْ بها طُرَّةٌ منقوشة نقشاً مكحلًا عجيباً فيه مكتوب : (مما أمر بعمله عبد الله وخليفتُه أبو العباس أحمد الناصر لدين الله أمير المؤمنين وذلك بسنة ٥٧٦ هـ) . وإذَنْ فوضعُ هذه الرخامة فى هذا المكان ، حَدَثَ قبل ابتداءِ ابن جبير لرحلته الأُولى إلى المشرق للحج ، بعامين اثنين فقط .

وخَصَّ الرخامتين الخضراوين الموضوعتين علامةً لقبر إبراهيم عليه السلام بقوله : (وتحت الميزاب فى صحن الْحِجْرِ بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل صلى الله عليه وسلم وعلامته رخامة خضراءُ مستطيلة قليلًا بشكل المحراب تتصل بها رخامة خضراءُ مستديرة .. وإلى جانبه مما يلى الركن العراقى ، قبر أُمّه هاجر رضى الله عنها .. وعلامته رخامة خضراءُ سعتها مقدار شبر ونصف) .

---

(٢) التوريق : نحت صور أوراق الشجر ، التشجير : نحت صور الأشجار ، التقضيب : نحت صور القضبان .

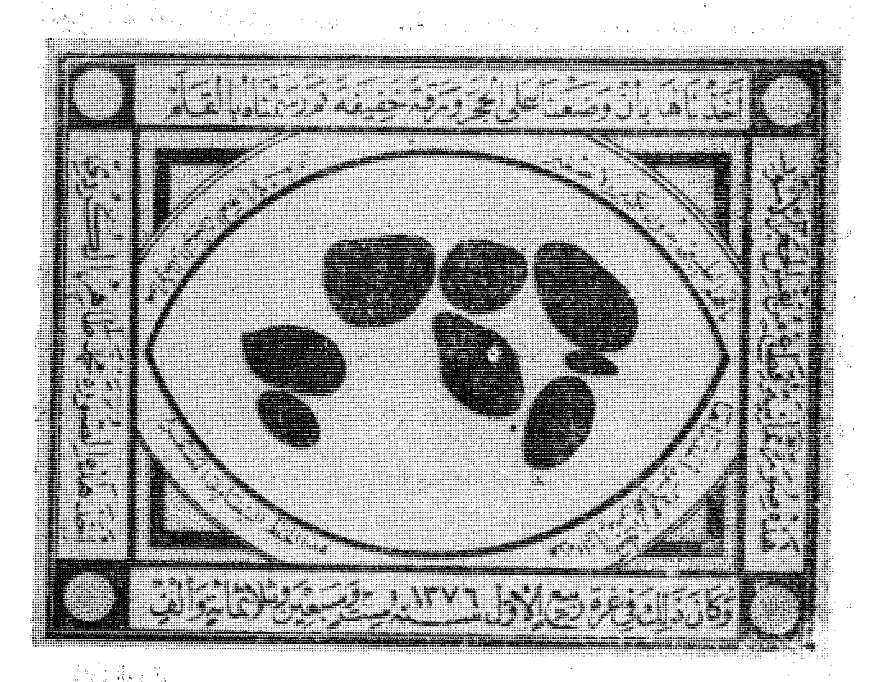
(٣) الورق .

(٤) المقص .

(٥) رحلة ابن جبير الصفحة ٦٤ طبعة دار صادر بيروت .

ويصف الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ المبارك بأَنه ملصق فى الركن الناظر إلى جهة المشرق ولا يُدْرَى قَدْرُ ما دخل فى الركن ، وقيل : إنه داخل فى الجدار بمقدار ذراعين ، وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد ، وفيه أَربع قِطع ملصقة ويقال إن القرمطى[6] ـ لعنهُ الله ـ كان الذى كسره ، وقد سدت جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الْحَجَر ورونقهِ الصقيل ، فيبصر الرائى من ذلك عجباً هو قيد الأَبصار .

وَوَصْفُ ابنِ جبير للحجر الأَسود بأَنه أَربع قطع يخالف واقع عدد هذه القطع الحالى ، فعددها كما حققه محمد طاهر الكردى الخطاط المكىّ هو ثمانى قطع منتظمة على شكل حرف الواو المعكوس ، خمس منها كبار الحجم نسبيًّا ، واثنتان متوسطتا الحجم نسبيًّا ، وواحدة هى أَصغرهن حجماً ، وذلك حسب الصورة التالية التى أَخذ أَصلها محمد طاهر الكردىّ المذكور :



الحجر الأسود فى شكله الحالى بقطعه الثمانى وبإطاره الفضى المحيط به

---

(٦) هو طاهر الجنابى وقد أغار على مكة وقتل الحجاج وقلع الحجر الأسود وحمله إلى البحرين ثم أعاده .

مما وصفه لنا ابن جبير خزانة المصحف العثمانىّ على رأيه . وفى هذا يقول : (وفى القبة العباسية المذكورة خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع ، وفيه مصحفٌ أَحد الخلفاءِ الأَربعة ، وبخط زيد بن ثابت رضى الله عنه منتسخٌ سنة ثمانى عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينقص منه ورقات كثيرة ، وهو بين دفَّتَىْ عُودٍ مجلد ، بمعاليقَ من صُفْرٍ ، وكبيرُ الورقات ، واسعُها ، عَايَنَّاهُ وتَبَرَّكْنَا بتقبيله ومَسْح الخدود عليه[7] . وأَرإنى لا أَستطيع أَن أُؤيد قول ابن جبير بأَن هذا المصحف هو المصحف الذى كتبه زيد بن ثابت رضى الله عنه ، إذ ليس من المعقول أَن يكون هذا الحجم الكبير من الورق . وقل مثل ذلك فى المصاحف الأُخرى المماثلة فى المدينة والشام .

كسوة الكعبة كانت خضراء

ويُعَرِّفُنا بأَن كسوة الكعبة فى زمنه كانت خضراءَ اللَّون من الحرير ، وهى أَربع وثلاثون شقة .

فتح باب الكعبة

ويقول : إن الكعبة تُفْتَحُ للناس كل يومِ اثْنَيْنِ ويومِ جمعة ، ماعدا شهر رجب ، فإنها تُفْتَحُ فيه يوميًّا أَول بزوغ الشمس .

أبواب المسجد الحرام وأبواب مكة

كانت أَبواب المسجد الحرام يومئذ تسعة عشر باباً ، وأَبواب مكة ثلاثة ، هى : باب المعلى ، وباب المسفل ، وباب الزاهر ، المعروف بباب العمرة حينذاك .

---

(٧) المصدر السابق الصفحة ٨٠ .

جبال مكة

ويُوردُ لنا أَسماءَ جبال مكة التى هى : جبلُ أَبى قُبَيْسٍ ، وجبل حراء، وجبل ثور ، وسَمَّى جبل ثور باسم (جبل أَبى ثور) . وجبل قعيقعان .

زعم غير صحيح

رَدَّ ابن جبير الخرافة التى تتحدث بأَن عتبات باب السلام من أَبواب المسجد الحرام ، هى أَصنامُ قريشٍ التى كانت تعبدها فى الجاهلية . . وكبيرُها (هُبَل) بينها ، وأَن هذه الأَصنام قد كُبَّتْ على وجوهها ، وجُعِلَتْ عَتَبَاتٍ للمسجد الحرام ، لتطأَها الأَقْدَامُ مَهَانَةً لها ، فقال : (والصحيح فى أَمر تلك الحجارة أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، أَمَرَ يوم فتح مكة بكسر الأَصنام وإِحراقها . وهذا الذى نُقِلَ إِلينا غير صحيح ، وإِنما تلك التى على الباب حجارة منقولة ، وعُنِىَ القومُ بتشبيهها إِلى الأَصنام لعظمتها)[٨] .

على جبل ثبير ، وليس على جبل حراء

يقول ابن جبير : (ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أَبى قُبَيْسٍ ، جبل حِرَاء ، وهو فى الشرق على مقدار فرسخ أَو نحوه ، مشرف على مِنًى ، وهو مرتفع فى الهواءِ ، عالى القمة ، وهو جبلٌ مباركٌ كان النبىُّ صلى الله عليه وسلم كثيراً ما ينتابه ويتعبد فيه واهتز تحته . فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم « اسكن حراءُ فما عليك إلا نبىٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدٌ» .

---

(٨) عبارة : « وعنى القوم بتشبيهها إلى الأصنام » هى التى وردت فى رحلة ابن جبير المطبوعة ببيروت وقد ظهر لى من سياق الكلام أنه ربما كانت صحة العبارة : « وعنى القوم بنسبتها إلى الأصنام » .

وكان معه أَبو بكر وعمر ، ويُرْوَى : (اثْبُتْ فما عليك إلا نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدَانِ) . وكان عثمان رضى الله عنه معهم[9] .

والذى فى المعجم المفهرس لأَلفاظ الحديث النبوىّ هو ما نصه : (اسْكُنْ ثبير فإنما عليك نبيٌّ) وعزا هذا الحديث إلى سنن النسائى . وفى روايةٍ : (إنه ليس ما عليك؛ إلا نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيد أَو شهيدان) ونسب هذا إلى صحيح البخارى فى فضائل أَصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم[10] .

أشراف مكة

ومما أَورده ابن جبير قوله عن أَشراف مكة إذ ذاك : « وأَشراف أَهل هذه البلدة على مذهبهم ، وهم يزيدون فى الأَذان « حى على خير العمل » إثر قول المؤذن : حى على الفلاح .. الخ » .

مشاهد مكة وآثارها

لم يسلط ابن جبير كشاف نقده على بعض هذه المشاهد والآثار التى أَوردها . على أَن من المشاهد المعروفة فى مكة التى ذكرها دارَ الخيزران التى كانت تسمى فى صدر الإسلام، بدار الأَرقم بن أَبى الأَرقم . والتى كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعبد فيها سراً هو ومن أَسلم من أَصحابه وتقع بقرب جبل الصفا .

وذكر دار أَبى بكر الصديق رضى الله عنه وهى دارسة الأَثر على ما يفيدنا به .

---

(٩) المصدر السابق الصفحة ٩٠ — ٩١ .

(١٠) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الصفحة ٣٣٢ — ٣٣٣ الجزء السادس طبع مطبعة بريل فى مدينة ليدن سنة ١٩٦٧ م .

وذكر مسجداً منسوباً لأبى بكر الصديق بجنوب مكة بالمسفل (محلة المسفلة) .

وذكر آثاراً أُخرى ، بعضها يحتاج إلى إعادة نظر . وإلى دقة حساب .

الرخاء الاقتصادى بمكة

فى سنة حج ابن جبير كان الرخاءُ الاقتصادى يسود أجواءَ مكة ، فالمتاجر الموسمية كانت تنتشر فى مكة فى موسم الحج آنذاك . ويقول ابن جبير فى ذلك الرخاءِ الشامل ما نصه : « فكنا نظن أن الأَندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد ، حتى حَلَلْنَا بهذه البلادِ المباركة فألفيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأُتْرُجّ والموز والمُقْل والبطيخ والقثاء والخيار وجميع البقول كلها كالباذنجان واليقطين والسَلْجَم – اللفت – والجزر والكرنب » .

وقد استرعى انتباه ابن جبير رائحةُ البطيخ الحجازى فى مكة ، وهو – على ما أرى – ما يسمى فى الحجاز إلى اليوم باسم البطيخ ، ويخرج عنه ما يسمونه (الحبحب) الذى يعرف فى مصر والشام باسم (البطيخ) لأن الحبحب هذا لا رائحة عَبِقة له هكذا ، حتى فى مكة وإنما تنبعث هذه الرائحة العَبِقَة التى أعجبت ابن جبير فوصفها بـ (أنها من أعطر الروائح وأطيبها ، يدخل بها الداخل عليك فتجد رائحتها العَبِقَة قد سبقت إليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه عن أكلك إياه ، حتى إذا ذقته خيل إليك أنه شيب بسكر مذاب . أو بِجَنْىِ النحل اللباب) ويعلق فيقول : (ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن فى الوصف بعض غُلُوٍّ ، كلا لعمر الله . إنه لأَكثرُ مما وصَفْتُ ، وفوقَ ما قُلْتُ) ، وهذه

الرائحة التى هى بهذا الطراز لا تنطبق إلا على البطيخ والخِرْبِز حسب لهجة هذه البلاد .

وقد عُنِينَا بهذا التحليل العلمى واللغوى لكى يدرك القراءُ أن العامية الحجازية لا تزال بخيرٍ وذات صلة وثيقة باللغة العربية الفصحى حتى اليوم .

صناعة الحلوى فى مكة

كانت هذه الصناعة رائجة فى مكة عندما حج ابن جبير ، وما كان الناس يومئذ يستوردون إلى هذه البلاد أنواع الحلوى بكثرة على ما أَدركناهُ ، وقد ظل هذا الأَمر سارياً حتى قام شابان أَحدهما من المدينة والآخر من مكة فأَنشآ أَول مصانع وطنية للحلوى بين جدة ومكة على النمط الجديث فحدث شيءٌ من الاكتفاء الذاتى فى هذه الصناعة وأَرخصا أَسعار الْحَلْوَى وأَراحا الناس من بعض التوريد . وقد نالا تشجيعاً طيباً من الحكومة السعودية وأَخيراً توقف مصنع الحلوى الذى كان أُقِيمَ بقرب حَدَّاءَ عن الإنتاج ، وهو للشاب المدنىّ ، فى الوقت الذى توسع المصنع الآخر الْمُقَام بقرب الرغامة القريبة من جُدَّة إلى الشرق منها وهو للشَّاب المكىّ .

عود على بدء

يقول ابن جبير : (إن صُنَّاع الحلوى المكيين فى وقت قدومه إلى الحج قد تفننوا فى صناعتهم حتى إنهم يصنعون بها حكاياتِ جميعِ الفواكهِ الرطْبَةِ واليابسة . وفى الأَشهر الثلاثة : رجب ، وشعبان ، ورمضان ، يتصل أَسْمِطَةٌ ــ جمع سماط (أَى موائد) ــ بين الصفا والمروة ، ولم يشاهد

أحد أكمل منظراً منها ، لا بمصر ولا بسواها . قد صورت فيها تصاوير إنسانية وفاكهية ، وجُلِّيَتْ فى منصات كأنها العرائس ونُضِّدَتْ بسائر أنواعها المنضدة الملونة فتلوح كأنها الأزاهر حُسْناً فَتُقَيِّدُ الأبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار) .

هذه قصة صناعة الحلوى بمكة يقدمها لنا الرحالة الأديب محمد بن جبير على أطباق من دُرِّ بَيَانِهِ المتوهج ، فيعرفنا بذلك بما كان عليه الأسلاف من نشاط صناعىّ تفوقوا فيه من هذه الناحية على مصر وغيرها من الأقطار المجاورة ، والتاريخ يعيدُ نفسه بأشكال وألوان .

لحوم الضأن

ومما أُعْجِبَ به ابن جبير بمكة أشدَّ الإعجابِ لحومُ الضأْن ، فيقول : (وأما لحوم ضَأْنِها فهناك العجب العجيب قد وقع القطع من كل من تَطَوَّفَ على الآفاق وضرب نواحى الأقطار ، أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا) . وأقول : ربما كانت لحوم الضأْن التى يعنيها من نوع الضأْن المعروف فى هذه البلاد باسم « الْحُبصِىِّ ، أو الْحَرِّىّ »[11] .

الفواكه فى مكة

توصل ابن جبير إلى أن الفواكه الموجودة بكثرة فى مكة يومئذ هى مجلوبة من الطائف ، ومن قُرًى حولها . وقال : إن أقرب هذه المواضع يعرف (بأدم) وهو من مكة على مسيرة يوم ، أو أزيد قليلًا ، ومن غيره من أودية الطائف وما يقرب منها .

---

(١١) فى اللغة : بعير حرى يرعى فى الحرة ، والحرة هى الأرض ذات الحجارة السود النخرة المحترقة . وكما ترعى الإبل فى الخرار كذلك يرعى الضأن فيها مما يجعل لحمه لذة لا توجد فى غيره .

يظهر من فحوى كلام ابن جبير أن الرطب لا يعرفه أهل الأندلس فى زمنه ويقول : (ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته ، ولا سيما لكوننا لم نعهده : الرُّطَبُ ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره يُجْنَى ويؤكل وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة ، لا يُسْأَمُ التفكه فيه وإبَّانُه عندهم عظيم ، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضَّيْعَةِ أو كخروج أهل المغرب لِقُرَاهُمْ أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه يُبْسَطُ على الأرض قدر ما يَجِفُّ قليلًا ثم يُرْكَمُ بعضه على بعض فى السِّلال والظروف ويرفع)[١٢] .

ونقول : إن ركم الرطب بعضه على بعض فى السّلال والظروف فى هذه البلاد ، لا يزال متبعاً إلى أمد قريب فى مكة المكرمة ، وفى جدة ، وفى المدينة المنورة . وفيما يتعلق بالأمن العام فإنه ليبدو أنه لم يكن

(١٢) رحلة ابن جبير طبيروت بالصفحة ١٠٠ .. هذا ، وإنى لأعجب من ابن جبير كيف يقول : إنهم فى الأندلس لا يعهدون الرطب ، مع أنه من المعلوم تاريخياً وواقعياً كثرة وجود النخيل بالأندلس قديماً وحديثاً . وكان عبد الرحمن الداخل قد أشار إلى وجود النخيل بالأندلس فى مقطوعتين له وذلك عندما نزل بجنينة الرصافة بقرطبة واتخذها له فنظر إلى نخلة مفردة فهاجت شجنه ، وتذكر بلاد المشرق فقال بديها :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى	وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيه غريبة	فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى
سقتك الغوادى المزن من صوبها الذى	يسح ويستمرى السماكين بالوبل

وقال أيضاً فيها :

يانخل أنت غريبة مثلى	فى الغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى مكبسة	عجماء لم تطبع على خبل
لو أنها تبكى إذن لبكت	ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلنى	بغضى بنى العباس عن أهلى

راجع « الحلة السيراء » لمحمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار ص ٣٧ ج ١ طبع القاهرة تحقيق الدكتور حسين مؤنس .

مُسْتَتِبًّا فى مكة والمشاعر يومئذ فقد هجم الْحَرَّابَةُ – حاملو الحِرَاب – من الأَعراب المتلصصين على الحجاج فيختلسون ما بأَيديهم ، فكانوا آفة الحرم الشريف لا يغفل أَحد ، طرفة عين ، إلا اخْتُلِسَ من يديه ، ومن وسطه بِحِيَلٍ عجيبة ، ولطافة عجيبة ، وهؤلاءِ اللصوص هم المعْرُفون فى عصرنا الحاضر بمصر خاصة باسم (النشالين) .

ماء زمزم

يقول ابن جبير يصف ماءَ زمزم وأَثره الصحى لمن شربه : (وهذا الماءُ المبارك فى أَمره عجب ، ذلك أَنك تشربه عند خروجه من قرارته ، فتجده فى حاسة الذوق ، كاللَّبَنِ ، عند خروجِه من الضرع دفيئاً ، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية ، وبركته أَشهر من أَن تحتاج لوصف واصف ، وهو لما شُرِبَ له ، كما قال صلى الله عليه وسلم) .

جمال الدين الأصفهانى الموصلى

جمال الدين الأَصفهانى أَحد رجال الخير والإحسان فى عصره ، وقد عُنِيَ بعمران الآثار والمآثر ، وصنع بِرًّا كثيراً للمحتاجين .. واخْتط صهاريج للماءِ ووضع جِبَاباً – صهاريج ماءٍ – بالطرق يستقر فيها ماءُ المطر ، وجدّد آثاراً ومبانى فى الحرمين الشريفين ، وجلب الماءَ إلى عرفات ، وجعل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسط سورين عتيقين جيدين ، وأَنفق فيهما أَموالًا كثيرة ، وجدد أَبواب الحرم ، وجدد باب الكعبة وغشاه بفضة مذهبة ، وجلَّل العتبة المباركة بلوح ذهب إبريز ، وأَخذ الباب القديم ، وأَمر أَن يُصْنع منه له تابوت يدفن فيه . فلما حانت وفاته أَوصى بأَن يوضع فى هذا التابوت ويحج به ميتاً فسيق إلى عرفات وَوُقِفَ به على بُعْدٍ ، وكُشِفَ عن التابوت فلما أَفاض الناس أُفِيضَ به وقُضِيَتْ

له المناسك كلها ، وطِيفَ به طوافَ الإفاضة ، وكان لم يحج فى حياته ، ثم حُمِلَ إلى مدينة الرسول ، ودُفِنَ فيها بجوار المسجد النبوىّ فى الناحية الشرقية منه ، وكان له آثار كريمة ، وكان أشرافها يحملونه على رؤوسهم ، وَوُضِعَ قبره بإزاء روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفتح فيها موضع يلاحظ الروضة وأُبِيحَ له ذلك على شدة الضنانة بمِثْله . وقد ابتنى من المدن المتصلة من العراق إلى الشام فَنَادِقَ عَيَّنَهَا لنزول الفقراء أبناء السبيل ، وأجرى على قومه بتلك الفنادق والمنازل ما يقوم بمعيشتهم ، وقد بقيت تلك الرسوم على حالها إلى زمن قدوم ابن جبير حاجًّا ، وجدد مسجد قُبَاء ، هذا إلى خيرات ومبرات له وفيرة فى العراق والحجاز والْمَوْصِلِ .

العمرة الرجبية

أشاد ابن جبير بالاحتفال الذى يقيمه أهل مكة بالعمرة الرجبية وأفاض فى وصفه وصفاً شيقاً مسهباً يُغْرِى القارىء إلى مطالعته فى كتاب رحلته[(١٣)] .

يوم خاص بطواف النساء

أفادنا ابن جبير بأن النساء بمكة عُيِّنَ لطوافهن يوم خاص بهن دون الرجال فيجتمعن من كل صوب ولا تبقى امرأة بمكة إلا حضرت المسجد الحرام ، ثم لا يبقى به بعد فتح البيت الحرام أحد من الرجال فى ذلك اليوم .

وبعد ذلك يصف لنا ابن جبير كيف تطوف النساءُ بالبيت الحرام فى يومهنَّ فيقول : (وتسلسل النساءُ بعضهن ببعض وتشابكن حى

(١٣) رحلة ابن جبير الصفحة ٢٠٦ — ٢٠٧ طبعة دار صادر ببيروت .

تواقعن، فمن صائحة ومُعْوِلَةٍ ومُكَبِّرَةٍ ومُهَلِّلَةٍ ...... وانفسحن فى الطواف والْحِجْرِ ، وتشفين من تقبيل الْحَجَرِ واستلام الأَركان ، وكان ذلك اليوم عندهن الأَكبر ، ويومَهُنَّ الأَزهر الأَشهر) . وقد عقب ابن جبير على الوصف المذكور بما يدل على عطفه على أُولئك النسوة فى هذا الشأْن (وبالجملة فَهُنَّ مع الرجال مسكينات مغبونات، يَرَيْنَ البيت الكريم، ولا يَلِجْنَهُ ، وَيَلْحَظْنَ الْحَجَرَ المبارك ولا يستلمنه ، فحظهن من ذلك كله النظر والأَسف المستطير المستشعر ، فليس لهن سوى الطواف على الْبُعْدِ ، وهذا اليوم الذى هو من عام إلى عام يرتقبنه ارتقاب أَشرف الأَعياد ، ويكثرن له من التأَهب والاستعداد والله ينفعهن فى ذلك ، ويحسن النية والاعتقاد ، بمنه وكرمه) .

غسل البيت بماء زمزم

كان الشيبيون يُبَكِّرُونَ إلى غسل الكعبة بماءِ زمزم تطهيراً له ، وذلك فى ثانى يوم لخروج النساءِ من البيت الحرام . وسبب الْغَسْلِ فى ذلك اليوم أَن كثيراً من نساءِ مكة كُنَّ يُدْخِلْنَ أَبناءَهن الصغار والرُّضَّع مَعَهُنَّ ، فَيُتَحَرَّى غسله تكريماً وتنزيهاً وإزالة لما يحوك فى النفوس من هواجس الظنون ، فيمن ليست له ملكة عقلية من أَن تصدر عنه حادثة نجس فى ذلك الموضع الكريم المخصوص بالتقديس والتعظيم .

ليلة النصف من شعبان

كان أَهل مكة يستقبلون هذه الليلة باحْتفاءٍ عظيم ، وَيُصَلُّونَ فيها أَفراداً وجماعات فى المسجد الحرام . وتبسط الحُصُر ، وتوقد الشموع ، وتشعل المشاعل ، وتسرج المصابيح ، ويكون مصباح السماءِ الأَزهر الأَقمر

قد أفاض نوره على الأرض وأفاض شعاعه عليها وتتلاقى الأنوار فى ذلك الحرم الشريف الذى هو نور بذاته[14] .

حج أخى صلاح الدين

إبَّانَ وجود ابن جبير فى مكة حضر إليها حاجًّا ، سيف الإسلام طغتكين أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب . وقد احتفل « مكثر » أمير مكة بمقدمه احتفالًا بالغاً ولا يزال ابن جبير يسمى قوم صلاح الدين (بالغز)[15] وكانوا قد أظهروا خشوعاً وتواضعاً لله عند وصولهم إلى بيت الله الحرام .

ليالى رمضان فى مكة

استوعب ابن جبير فى رحلته كل ما تمكن من استيعابه عن مكة فى آثارها ومشاهدها وأخبارها وتاريخها ، وقد وصف صلاة التراويح والاحتفال بليلة ٢٧ رمضان وإيقاد صبيان مكة لِكُرَاتِ مَشَاعِلِ السَّلِيط ـ الزيت ـ بِشُرُفَاتِ المسجد الحرام قبل صلاة العشاء بليلة ٢٧ رمضان .

خطبة تثير نقد ابن جبير

كثيراً ما يستعرض ابن جبير مختلف الأحداث بدون أن يبدى انفعاله أو تفاعلها فى ذهنه بيد أن حادثة واحدة أثارت انتباهه وأيقظت روح النقد فيه فأبدى اعتراضه عليها واشمئزازه منها ، إذ تقدم أحد أئمة التراويح من المالكيين (أتباع مذهب الإمام مالك) فصدع بخطبة

---

(١٤) بقيت هذه العادة إلى زمن ابن بطوطة الذى وصفها مثل وصف ابن جبير لها وذلك فى سنة ٧٢٦ هـ = ١٣٢٥ م . وكان حج ابن جبير فى سنة ٥٧٩ هـ = ١١٨٣م قبل حج ابن بطوطة بـ ١٤٦ سنة .

(١٥) يبدو لى أن سبب ذلك هو وقوع التباس فى ذهن ابن جبير فى هذا الموضوع وقد سيطر عليه هذا الالتباس باستمرار .

منتزعة من خطبة الصبيّ ابن الإمام الحنفي، فأرسلها معادة إلى الأسماع، ثقيلًا لحنها على الطباع[16].

مظاهر عيد الفطر

ومما وصفه ابن جبير في رحلته مظاهرُ عيد الفطر في مكة وصلاةُ العيد بالمسجد الحرام، ولكنه لم يعرج على وصف ملابس الناس في ذلك العيد، فقد اكتفى بالإجمال المقتضب عن البيان المسهب في هذا الشأن فقال: (لبس الناس أثواب عيدهم) فما هى هذه الأثواب ؟ وما أشكالها؟ وما ألوانها؟ وما تفصيلها ؟ أسئلة تظل بدون إجابة . وانبرى بعدئذ يتحدث حديثاً فضفاضاً عن تحركات الأمير مكثر في العيد، وتحركات بنيه ووزيره وحاشيته. كما أعطانا وصفاً دقيقاً لمعايدات الناسِ بعضِهم لبعضٍ في عيد الفطر بمكة قال: (وأقبل الناس بعضُهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتَّغافُرِ والدعاء مسرورين مبتهجين فرحين بما آتاهم الله من فضله وبادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام) . ومضى إلى أن قال: (وأخذ الناس عند انتشارهم من مصلاهم وقضاء سنة السَّلام بعضِهم على بعضٍ في زيارة الْجُبَّانَةِ بِالمعلى) .

وهكذا قدم لنا ابن جبير في كتابه صورة واضحة عن مظاهر عيد الفطر استقبالًا واحتفالًا بمكة المكرمة .

ابن جبير في منى

قبل الحج وفي ١٩ شوال ٥٧٩ هـ صعد ابن جبير وصحبه إلى مِنًى ، ليشاهدوا المناسك بها عياناً وليروا منزلًا استؤجر لهم للإقامة فيه أيام

(١٦) المصدر السابق الصفحة ١٣٢ - ١٣٣ .

التشريق . وقد مُلِئَ ابن جبير بهجة وسروراً ، بمرأى مدينة منى من كَثَب ، وقدم لنا صفتها هذه : (مدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط عتيقة الوضع قد درست إلا منازل يسيرة متخذة للنزول ، تحف بجانبي طريق كأنه ميدانٌ انبساطاً واتساعاً ممتد الطول) ، وشاهد بمقربة منها مسجد البيعة المباركة أول بيعة فى الإسْلام ، وجمرة العقبة بأول منى ، ثم قال : (فلما قضينا معاينة هذه المشاهد الكريمة أخذنا فى الانصراف مستبشرين بما وهبنا الله من فضله فى مباشرتها ووصلنا مكة قريب الظهر) .

ثم ذهب ابن جبير إلى جبل ثور ليشاهد الغار الذى أوى إليه النبىُّ صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق وقد وصفه بأنه (صعب المرتقى جِدًّا وبأنه على مقدار ثلاثة أميال) ، وقاس طول الغار فإذا هو ثمانية عشر شِبْراً وسعته بالوسط منه أحد عشر شبراً وفى حافتيه ثلثا شبر وعلى الوسط منه الدخولُ . وسعةُ الباب الثانى المتسع مدخله خمسة أشبار أيضاً).

دار الخيزران

ودخل ابن جبير دار الخيزران التى كانت تسمى فى صدر الإسلام بدار الأرقم وهى الدار التى نشأ فيها الإسلام وهى دار صغيرة يصفها ابن جبير فى عصره بقوله : (يجدها الداخل إلى الحلق المذكور — الحائط المستدير — عن يساره ، وقد جدد بناءها جمالُ الدين الأصفهانى بنحو ألف دينار) .

شهر ذى الحجة ٥٧٩ هـ

لإهلال هذا الشهر فى مكة أهمية بالغة لأنه شهر الحج ، وقد اهتم ابن جبير اهتماماً كبيراً فى رحلته بهذا الإهلال ، وحدَّث عما شاهد وعما

سمع من شهادات التزوير التى قام بعضهم بها فى محاولة إثبات دخول شهر ذى الحجة الحرام وكشف أَمرها بدقة ثم أَظهر اغتباطه البالغ بظهور الهلال حقيقة خلال السحاب فى ليلة الجمعة فقال : (ولما كانت ليلة الجمعة المذكورة ظهر الهلال خلال فُرَج السَّحاب ، وقد اكتسى نوراً من الثلاثين ليلة ، فزعقت العامة زعقات هائلة وتنادت بوقفة الجمعة . وقد انتقد ابن جبير موقف العامة هذا فقال : (كأَنهم قد صح عندهم أَن الوقفة إذا لم تكن توافق يوم الجمعة ليست مقبولة ، ولا الرحمة فيها من الله مرجوة مأْمولة ، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً) .

الاطمئنان إلى حكم قاضى مكة

وبعد أَن فصّل لنا المحاولات التى حدثت لإثبات هلال ذى الحجة بيوم الجمعة قال : (ثم إنهم – أَى عامة مكة – اجتمعوا يوم الجمعة المذكور إلى قاضى مكة (جمال الدين) فأَدوا شهادات بصحة الرؤية تُبْكِى الحق ، وتُضْحِكُ الباطل ، فردَّها وقال : يا قوم حتام هذا التمادى فى الشهوة ؟ وإلَامَ تستنون فى طرق الهفوة ؟ وأَعلمهم أَنه قد أَستأْذن الأَمر مُكْثِراً فى أَن يكون الصعود إلى عرفات صبيحة يوم الجمعة فيقفوا عشية بها ثم يقفوا صبيحة يوم السبت بعده ويبيتوا ليلة الأَحد بمزدلفة ، فإن كانت الوقفة يوم الجمعة فما عليهم فى تأْخير المبيت بمزدلفة بأْس ، إذ هو جائز عند أَئمة المسلمين ، وإن كانت يوم السبت فَبِهَا ونِعْمَتْ ، وأَما أَن يقع القطع بها يوم الجمعة فتغرير بالمسلمين وإفساد لمناسكهم ، لأَن الوقفة يوم التروية عند الأَئمة غير جائزة كما أَنها عندهم جائزة يوم النحر . فشكر جميع من حضر للقاضى هذا المنزع من التحقيق : ودَعَوْا له وأَظهر من حضر من العامة الرضا بذلك ، وانصرفوا

عن سلام ، والحمد لله على ذلك) ، ولكن الأمر لم ينته عند ما قرره قاضي مكة الذى أَلقى الماء على النار المشتعلة فأَطفأَها بحكمته . يقول ابن جبير فى ذلك : (وبقيت الشهادة مضطربة فى أَمر هذا الهلال المبارك الميمون إلى أن تواصلت الأَخبار برؤيته ليلة الخميس الذى يوافق الخامس عشر من مارس . شهد بذلك ثِقَاةٌ من أَهل الزهد والورع يمنيون وسواهم من الواصلين من المدينة المكرمة ، لكن بقى القاضى على ثباته وتوقفه فى القبول وإرجاءِ الأَمر إلى وصول الْمُبَشِّرِ الْمُعْلِمِ بوصول الأَمير العراقى ، ليتعرف – أى القاضى – من قِبَلِهِ – أَى مِنْ قِبَلِ الْمُبَشِّرِ الْمُعْلِمِ بوصول الأَمير العراقى – ما عند أَمير الحج فى ذلك) ثم وصل المبشر وسكنت النفوس حيث أَعْلَمَ برؤْية الهلال ليلة الخميس المذكور وتواترت الأَنباءُ بذلك فصحّ الأَمر عند القاضى بذلك صحةً أَوجبت خطبته فى ذلك اليوم « السابع من ذى الحجة » بعد صلاة الظهر ، وأَعلم الناس فيها برؤية الهلال ليلة الخميس المذكور .. ثم أَعلمهم أَن غدهم هو يوم الصعود إلى منى ، وهو يوم التروية وأَن وقفتهم يوم الجمعة) ، ويفهم من فحوى كلام ابن جبير أَن إمارة مكة مع ارتباطها السياسى الوثيق ، بصلاح الدين فإنها مرتبطة أَيضاً بالخليفة فى بغداد ارتباطاً دينياً . . ويؤيد هذا ما ورد فى رحلة ابن جبير بالصفحة ٧٣ من طبعة دار صادر ببيروت من دعاءِ الخطيب بالمسجد الحرام للخليفة العباسى أَحمد الناصر ثم لأَمير مكة مكثر ثم لصلاح الدين وولى عهده أَخيه أَبى بكر بن أَيوب . وبعد فتلك « وثيقة » تاريخية موثوق بها ، فى الشكل والترتيبات الشرعية والإِدارية المبنية على قواعد الشرع الإِسْلامى ، حيال إثبات قضاة مكة فى ذلك العهد ، لرؤية هلال ذى الحجة الحرام التى ينبنى عليها تقرير ابتداءِ أَيام الحج وبقية أَيامه الميمونة .

لقد آن لقلب ابن جبير أن يفرح وأن يرتاح وأن يطمئن ، فها هو ذا يستعد للذهاب إلى عرفة ، ويستمر فى طريقه إليها عبر المشاعر العظام ، ويكمل فريضة حجه فى موسم حج عام ٥٧٩ هـ وهو الأمر الذى كان أُمنية أَمانيه ، وبشعور المؤمن المخلص لإيمانه العريق يصف لنا ابن جبير كل ما شاهده أَو سمع به أَو علمه . أثناء قيامه بفريضة الحج ذهاباً وإياباً وقد استرعى انتباهه بصفة خاصة أُبَّهَةُ مُخَيَّمِ الأَمير العراقى فى عرفات فأَطنب فى مدحه فأَطرب وأَتى بالبيان الرائع والوصف البليغ المعجب .

وبعد قضاءِ الناس لمشاعر الحج ومعهم رحالتنا عادوا إلى مكة وقد قَدِمَ أَميرُ الحج العراقى إلى مكة بكسوة الخليفة السوادية والرايات على رأْسه والطبول تصخب وراءه ، وقدمها إلى القاضى الجديد . وقد أُلْبِسَتِ الكعبةُ كسوتَها فى مراسم معلومَة . وكانت خضراءَ اللَّون ، فى أَعْلاهَا رسم أَحمر واسع مكتوب عليه بعد البسملة : (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ) الآية . وفى سائر الصفحات اسم الخليفة والدعاءُ له إلى غير ذلك . وقد وصف لنا ابن جُبير مشهد الكعبة بقوله : (فلاح للناظرين منها أَجمل منظر كأَنها عروس جُلِيتْ فى السندس الأَخضر) . ومن الْبَدَهِيّ المشاهد اليوم أَن لون كسوة الكعبة قد تغير فيما بَعْدُ من اللون الأَخضر إلى اللون الأَسود .

هذا ويمكننا أن نأْخذ من فحوى كلام ابن جبير أَن للخليفة العباسى ببغداد علاقة دينية بشؤون مكة المكرمة كبيرة فأَمير الحج العراقى ـ الموفد منه لإمارة الحج العراقى ـ له مكانته واعتباره الأَول فى إقرار ليلة إهلال

ذى الحجة وهو الذى جلب معه كسوة الكعبة الخضراء من بغداد : تلك الكسوة التى طُرِّزَتْ باسم الخليفة العباسى . وقد وصل أيضاً خطيب مسجد الخيف من العراق مع هذا الأمير العراقى مُقَدَّماً من عند الخليفة للخطبة والقضاءِ بمكة ويعرف بتاج الدين . ولم يسلم هذا الخطيب القاضى المقدم من عند الخليفة ببغداد من لذعات نقد ابن جبير له ، لقد قال فيه ما نصه : (وظاهر أمره البلادة والبَلَهُ لأَن خطبته أعربت عن ذلك ولسانه لا يقيم الإِعراب)[17] .

ثناء بعد ذم

وإذا كان ابن جبير قد رشق خطيب منى قاضى مكة العراقى الجديد بسهام نقده اللاذعة فالأَمر على العكس من ذلك بالنسبة لخطيبين آخرين من العراق أضفى عليهما ابن جبير ، ثناءً عاطراً جَمًّا ؛ فقد حرك هذان الخطيبان هواجع القلوب بوعظهما الدينى المؤثر البليغ مع سعة الصدر واتساع العلم وحضور البديهة ، وقد أَثنى ابن جبير على أَحدهما وهو يسند حديثه المسلسل إلى خمسة من أَجداده .

أول لقاء بين ابن جبير ومشايخ العراق

وكان أَول لقاءٍ لابن جبير مع مشايخ العراقِ ووُعَّاظهم ، فى البلد الحرام ، وقد استأْنس بوعظهم المرتجل ، وسرَّى بيانهم المعجب المتفتح عن فؤاده أَكداساً من هموم الغربة وفراق الأَهل والوطن ودخلت أَصداؤه إلى شغافِ فؤاده ، فملأَته إعجاباً وتقديراً وإقبالًا . وسوف نراه يلتقى بآخرين منهم من ذوى المكانة العالية فى الإرشاد والوعظ المرتجل المنسجم ، وقد عَرَّفنا بمكانتهم وعلمهم فى العلم والدين والبيان .

(١٧) المصدر السابق الصفحة ١٥٦ .

وكشف لنا ابن جبير عن استنكاره البالغ إقامة سوق (بالمسجد الحرام إبَّان موسم الحج حيث يصبح المسجد كله سوقاً عظيمة يباع فيها من الدقيق إلى العقيق ، ومن الْبُرِّ إلى الدر ، إلى غير ذلك من السلع المعروفة وقد كان الدقيق يباع بدار الندوة إلى جهة باب بنى شيبة ، ومعظم السوق المقامة بالمسجد الحرام كانت بالبلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ، وفى البلاط الآخذ من الشمال إلى الشرق) وهكذا سيطرت الفوضى والشراهة وعدم الضرب على أَيدى هؤلاءِ التجار الفجّار الذين حولوا المسجد الحرام المقدس إلى سوق عالمية رائجة تُعْرَضُ فيها البضائع المنوعة ويشتد اللَّدَدُ والخصام فيها بين البائعين والشارين ، ولذلك أَخرجوا حرم الله من القدسية والعبادة إلى ممارسة شؤون التجارة والبيع . وقد علق ابن جبير على هذا الوضع الشاذِّ الشائن بقوله : (وفى ذلك من النهى الشرعى ما هو معلوم ، والله غالب على أَمره لا إِلّه سواه)[18] .

---

(١٨) المصدر السابق الصفحة ٢٩١ .

الفصل الخامس عشر
السَّمرُ والمائرونَ في مكّة

جمعنا فى هذا الفصل أَشتاتاً من كلام ابن جبير عن هؤلاءِ (السرو المائرين بمكة) . وكان ابن جبير قد كرر حديثه عنهم مراراً فى كتاب رحلته لما أَدْركه من أَهميتهم بالنسبة لتموين مكة المكرمة فى عهده . . . .

وكانت عبارة (السرو المائرون) التى استهل بها أَحاديثه عنهم بدت لى غامضة لأَول وهلة . ولما عدتُ إلى تحليلها لُغَوِيًّا تكشف لى بِأَخَرَةٍ أَن (السَّرْوَ) من (سَرُوَ) بمعنى « شَرُف » . و « مائر » من « المَيْرِ » بمعنى « جَلْبِ المِيرة » التى هى الطعام من بلد إلى بلد . وبهذا المفتاح انكشف لى المراد من العبارة السابق ذكرها . وكانت هذه الصيغة : « السَّرْوُ » فقد بقيت على غموضها لأَول مرة حتى تتبعتُ حديث ابن جبير ، فأَدركت أَصلها اللُّغوى المشار إليه آنفاً ، وعرفتُ من سياقه أَيضاً أَنه يقصد بالسرو أَهل جبال السَّراةِ . جبال الحجاز الجنوبية « بالنسبة للمملكة العربية السعودية » واختصر الكلمة بالسَّرْوِ ، وكان من حقه أَن يقول : (السَّروِيُّون) . .

وإذن فقد تجلى أَن معنى عبارته التى هى عنوان هذا البحث هو (أَهل جبال السراة الذين يأْتون بالمِيرة إلى مكة) .

وجبال السراة معروفة ، وسكانها معروفون ، وكثير منهم من قبائل زَهْران ، وغَامِد ، وعسير وقحطان وغيرهم ، ومنهم أَهل منطقة الباحة ومنطقة أَبهى[(١)] . وقد شاهدنا فى العقد السابع من هذا القرن الهجرىّ ،

---

(١) آثرت أن أكتب كلمة (أبهى) بالياء مثل « أعلى » و « أحلى » باعتبار أنها صيغة تفضيل أى إنها أبهى وأجمل من غيرها ، ولأن قاعدة الخط العربى أن ما زاد على ثلاثة أحرف يكتب ألفه بالياء مطلقاً : (مقدمة كتاب) الفتح على أبى الفتح (لابن فورجه . طبع بغداد ص ٢١ : يقول الدجيلى : ومن المعروف أن الكلمة الثلاثية تكتب على صورة ألف إذا كان أصلها واواً ، وعلى صورة ياء إذا كان أصلها ياءاً — وأما غير الثلاثى فعلى صورة ياء مطلقاً) . .

إتيانهم بالمِيرة من بلادهم إلى مكة والطائف على قوافلهم من الإبل . وكان من هذه الميرة الشيءُ الكثير من القمح الممتاز ذى الحبات الكبيرة الحجم وهو الحب المعروف بالهَمِيسِ ، وقد شاهدْتُ فى سوق الحبوبِ بالطائفِ ، كما شاهد غيرى فى تلك الأَيام ، الكثيرَ الوفيرَ من أَكياسِ القمحِ الملقاةِ فى شارعِ سوقِ الحنطة والحبوب ، وكان يُبَاعُ بثمن معتدل ، وكان طَعْمُهُ لذيذاً ، ورائحته عبقةً إذا ما أُنْضِجَ خُبْزُه فى الأَفران المَحَلِّية ، بالحطب على ما كان عليه الأَمر يومئذ فى إنضاج الخبز إذ لم يكن دخول الكهرباءِ إلى المدن الرئيسية عاماً شاملًا على ما حدث بعدئذ .

ونرى أَن استعمال ابن جبير لعبارة « السَّرْوِ » فيه ما فيه من الناحية اللغوية ، لأَن السَّرْوَ إما مفرد (السراة) أَو نوع من الشجر ، وأَما سُكَّانُ هَذِه الناحية الجنوبية من المملكة العربية السعودية فينسبون إلى جبال السراة التى هى مقرهم وموطنهم ، فيحسن أَن يقال فى تسميتهم : « سَرْوِيُّون » على القاعدة اللغوية فى النسبة إلى الجمع بإعادته إلى المفرد . وهذه الْمِنْطَقَةُ معروفة بالخصب وطيبِ المُناخ ، ويُزرع فيها القمح على هيئة « مَدْرَجَات » وغيرها ، ويوجد فيها أَنواع الفواكه والنُّقُلِ والخضراوات . . ومن أَهمها اللوز البَجَلِىّ ، نسبة إلى قبيلة بَجِيلَة .

وابن جبير حينما تحدث عن هؤلاءِ السَّرْوِيِّين المائرين لم يَرَهُمْ فى الطائف التى هى أَقرب إلى بلادهم ، كما رأَيناهم نحن بعده بثمانية قرون ، وإنما شاهد قوافلهم تَقْدُمُ أَرتالًا إلى مكة ، وكان سببَ ذلك شدةُ حركة وسم الحج فيها ، وحاجةُ مكةَ إلى مزيد من الأَرزاق والأَطعمة ، ثم حاجةُ السرويين أَنفسهم إلى مزيدٍ من الربح ، مع رعايتهم لأَحوال السكان والحجاج المحتشدين ببلد الله الحرام .

وقد عَرَّفَ ابن جبير « السَّرْوَ المائرين » بأَنهم : قبائل من اليمن تعرف بالسرو ، وأَنهم أَهل جبال حصينة باليمن تعرف بالسرة كأَنها مضافة لسراة الرجال على ما أَخبر به فقيه من أَهل اليمن ، اسمه : (ابن أَبى الضيف) رَحَالتَنَا ابن جبير فصدقه ونقل الخبر إلينا بأَمانة كما سمعه ، وعزاه إلى الرجل حتى لا يلحقَ به عتْبٌ أَو نقد فيما إذا كان النبأُ غير مطابق للحقيقة .

ونقول : إن أَصل التسمية ليس على ما قاله ابن أَبى الضيف لابن جبير ، بل الأَصل هو على ما أَوردناه آنفاً ، فإن الاسم مأْخوذ من السروات التى هى الجبال العالية المعروفة بالجهة الجنوبية للمملكة العربية السعودية .

ويتحدث لنا ابن جبير عن قبائل السراة هؤلاءِ فيقول : إنهم (يَسْتَعِدُّونَ للوصول إلى هذه البلدة المباركة – مكة – قبل حلولها – أَى قبل حلول العمرة – بعشرة أَيام ، فيجمعون بين النية فى العمرة ، ومِيرَةِ البلد بضروب من الأَطعمة كالحنطة وسائر الحبوب إلى اللوبياء وما دونها ويجلبون السمن والعسل والزبيب واللوز . فَتَجْمَعُ مِيرَتُهُمْ بين الطعام والإِدام والفاكهة ، ويَصِلُونَ فى آلاف من العدد رِجالًا وجِمالًا مُوقَرةً بجميع ما ذكر ، فَيُرْغِدُونَ معايش أَهل البلد والمجاورين فيه ، يَتَقَوَّتُونَ ، ويدخرون ، وتَرْخُص الأَسعارُ وتَعُمُّ المرافقَ ، فيُعِدّ النَّاس ما يكفيهم لعامِهم ، إلى مِيرَةِ أُخرى ، ولولا هذه الميرة لكان أَهل مكةَ فى شظفٍ من العيش) .

وقد عرَّفنَا ابنُ جبير عن نوع بيعهم وما يقبضونه مقابل مبيعاتهم المشار إليها آنفاً فيقول : (ومن العجب فى أَمر هؤلاءِ المائرين أَنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم ، إنما يبيعونه بالخِرَقِ

والعباءات والشمل[٢] . فأَهل مكة يُعِدُّونَ لهم من ذلك مع الأَقنعة والملاحف المِتَان – جمع متينة – وما أَشبه ذلك مما يلبسه الأَعراب ويبايعونهم به ويشارونهم) .

عروبة السروين

ومما سجله لنا ابن جبير عن هؤلاءِ القوم قوله : (والقوم عَرَبٌ صرحاءُ فصحاءُ جفاة أَصحاءُ ، لم تَغْزُهُم الرِّقَّة الحضريةُ ، ولا هذبتهم السِّيَرُ المدنية ، ولا سددت مقاصدَهم السننُ الشرعية ، فلا تجد لديهم من أَعمال العبادات سوى صدق النية ، فهم إِذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأُم الْمُشْفِقَةِ ، لائذين بجوارها ، متعلقين بأَستارها فحيثما علقت أَيديهم منها تمزقت لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها . وفى أَثناءِ ذلك تصدع أَلسنتهم بأَدعية تتصدع لها القلوب ، وتتفجر لها الأَعين الجوامد ، فتصوب) – أَى تَنْصَبُّ دموعها .

كما وصف ملابسهم . وأَضاف إِلى ذلك قوله : (وهم مع ذلك أَهل بأْس ونجدة ، لهم القِسِيّ العربية الكِبَار ، كأَنها قِسِيُّ القَطَّانِين ، لا تفارقهم فى أَسفارهم ، فمتى رحلوا إِلى الزيارة هاب أَعراب الطريق المسكون لِلْحَاجّ – مَقْدَمَهُم ، وتَجَنَّبُوا اعتراضهم ، وخَلَّوا لهم الطريق ، ويصحبُهُم الحجاج الزائرون فيحمدون صحبتهم) .

هذا من ناحية شهامتهم وشجاعتهم ، وأَما من ناحية عقيدتهم فيقول ابن جبير . (وعلى ما وصفنا من أَحوالهم فهم أَهل اعتقادٍ للإِيمان صحيحٍ)

---

(٢) الشمل جمع شملة : والمفهوم الذى أدركناه لهذه الصيغة أنها نوع من البسط منسوج محلياً بألوان وينسج من الصوف غالباً ، على أنه ربما يقصد بالشمل الحى المعروفة بـ (البيدى) بكسر الباء الموحدة – نسبة إلى البيد . ويتراءى لى أن الاحتمال الثانى أرجح لأن أهل عسير يسمون هذه العباءات باسم الشمل كما حدثنى به بعضهم ، ولأن ابن جبير قرن العباءات بالشمل وعطفها على العباءات فهى نوع خاص منها وهو البيدى أو ما أشبه البيدى .

ثم قال ابن جبير : « وذُكِرَ أَن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يحترم وقت طوافهم فيتحرى الدخول فى جملتهم) .

ثم أَشاد ابن جبير بذكائهم فقال : (وشاهدنا منهم صَبِيًّا فى الْحِجْرِ قد جلس لأَحد الحجاج يُعلمه فاتحة الكتاب وسورة الإِخلاص : فكان يقول له : (قل هو الله أَحد) ، فيقول الصبى : (هو الله أَحد) فيعيد عليه المعلم فيقول له : (أَلم تأْمرنى أَن أَقول : هو الله أَحد ؟ قد قُلْتُ ؟ ! ! فكابد فى تلقينه مشقة ، وبَعْدَ لأْى ما عَلِقَتْ بلسانه . وكان يقول له : (بسم الله الرحمٰن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين) فيقول الصبى : (بسم الله الرحمٰن الرحيم والحمد لله) فيعيد عليه المعلم ، ويقول له : لا تقل والحمد لله . وإِنَّما قل : الحمد لله . فيقول الصبىّ : (إِذا قلتُ « بسم الله الرحمٰن الرحيم » أَقول : (والحمد لله) للاتصال ، وإِذا لم أَقل : (بسم الله) وبدأْتُ قلت : (الحمد لله) . فعجبنا من أَمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم)(٣) .

واختتم ابن جبير هذه الفقرة من أَحاديثه عنهم بقوله : (وأَما فصاحتهم فبديعة جداً ، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس) .

مكة تبتهج بقدوم السرويين

أَشاد ابن جبير فى حوادث شهر شوال ٥٧٩ هـ باستبشار الناس بقدوم السَّرْوِيِّين استبشاراً شاملًا ، حتى إِنهم (أَقاموا قدومهم عوض نزول المطر) . ويفهم من هذا القول أَن أَهل مكة لم يُسْقَوْا مطراً بعد استسقائهم فى أَواخر شهر شوال وأَنهم اعتبروا قدوم السَّرْوِيِّين بالميرة إِلى مكة بعد

---

(٣) رحلة ابن جبير الصفحة ١١٠ - ١١٣ .

ثلاثة أيام من استسقائهم — اعتبروا قدومهم هذا تعويضاً من الله تعالى لهم عن إنزال المطر على مكة .

ونقول تعليقاً على ما سلف ذكره عن ابن جبير حول أوضاع السَّرويين في عصره : لا جَرَمَ أن جُلَّ ذلك قد تغير وأصبح السَّرْوِيُّونَ على حالٍ أحسنَ بكثيرٍ مما كانوا عليه قبلًا ... لقد فُتِحَت المدارسُ العديدةُ في بلادهم في العهد السعودي الحاضر وصار منهم المثقفون والمتعلمون ، وصار منهم التجارُ الكبارُ ، والصناعيون ، وتغيرت أوضاع ملابِسِهِمْ وأحوال عباداتِهِمْ إلى أحسنَ من ذي قبل وتثقف كثير منهم ، وانتظمت شئون بلادهم ، وذُلِّلَتْ طُرُقُهَا ، واتصلت بالمدنِ الأُخرى بطرقٍ معبدةٍ مُزَفَّتَةٍ ، كما صار منهم موظفون كثيرون في دواوين الحكومة ، ومديرون عامون وخاصون ، وقد اتصلت الآن عاصمةُ منطقة عسير ، التي هي مركزُهم من قديم الزمان ، بنجد والحجاز وبجازان[4] وأما منطقة الباحةِ وهي من منازلهم أيضاً فقد اتصلت فعلًا بالمناطق المذكورة آنفاً[5] ولكن شيئاً واحداً قد توارى عن الأنظار ألا وهو إتيانهم أو بعثهم بالمِيرة من حبوب منوعة ، وفواكه إلى مَكة والطائف . ولقد اختفت غرائرُ قمحهم المعروف بقمح

---

(٤) في شهر شعبان ١٣٩٦ = ١٩٧٦ م افتتح جلالة الملك خالد بن عبد العزيز الطريق الموصلة بين الطائف وأبهى عاصمة عسير ، ومن الجدير بالذكر — للتاريخ — أنه كان للجهود التي بذلها ويبذلها سمو الأمير خالد بن فيصل بن عبد العزيز أمير منطقة عسير أثر كبير في تطورها ثقافياً واجتماعياً وعمرانياً واقتصادياً وصحافياً فنحن نكتب هذا الهامش وقد قرر أن تصدر مجلة شهرية في أبهى تحمل اسم (الفيصل) على أن تكون مثالية في شئون الأدب والثقافة والاقتصاد والتكنولوجيا والعلم وتتخذ الاستعدادات الآن لصدورها .

(٥) وللتاريخ نذكر أن التطور قد شمل منطقة الباحة التي أميرها معالي الشيخ سعود بن عبد الرحمن السديري ، فقد اتصلت بسفلتة الطرق المؤدية إليها والصادرة منها — اتصلت بالطائف ومكة وبسائر مدن المملكة ذوات الأسفلت الشامل في الطرق العامة بها — كما تطورت عمرانياً واجتماعياً وثقافياً وقد وصل إلى أيدينا بعض صحفها المدرسية فإذا هي تدل على تطور وعي وتفتح تفكير في أساتيذها ومديريها وطلابها .

الهميس من أسواق الطائف ومكة بيد أن حركة زراعية جديدة لحبوب الغذاء وغيرها قد بدأت من جديد بتوجيهات من الملك الشهيد فيصل ابن عبد العزيز رحمه الله وقد شملت بلادهم الخصبة .. واستمرت هذه الحركة الزراعية التى تستهدف الاكتفاء الذاتى الشامل للبلاد حتى بلغت ذَرَوَاتِ السَّرَوَاتِ بدفعٍ من جلالة الملك خالد المعظم وسمو ولى عهده الأمين الأمير فهد وبما تدعم به الدولة السعودية المزارعين السعوديين من إعانات مادية وفنية كبيرة مجزية ومساعدات جمة مالية وإدارية شاملة، من طريق البنك الزراعى السعودىّ وغيره .

الفصل السّادس عشر

مع ابن جُبير من مكّة فالمدينة

يبدو من مُخطط سير رحلة ابن جبير الأُولى ، فى هذا الكتاب أن ابن جبير لم يعرج فى طريق عودته إلى غرناطة ـ على أى جزءٍ من أجزاءِ القارة الإِفريقية ، وإنما اتخذ خط سير آخر يحاذيها فى أَواسطه وأَواخره .. وهذا الخط الآخر يتمثل أَوله فى رحلته إلى المدينة من مكة مباشرة. ثم استمرار سيره صوب الشمال إلى بغداد فالموصل فالشام فَصِقِلِّيَّة التى أَفضى منها إلى غرناطة .

وهكذا أَدركنا أَن ابن جبير لم يكن عبوره لما عبره من بلاد إفريقية ، مقصوداً لذاته وبغرض اجتماعى أَو ثقافى خاص ، وإنما عبر ذلك بقصد أَدائه لفريضة الحج ، ليس غير . فأَجزاءُ إفريقية التى مر بها فى طريقه إلى مكة هى « وسيلة » لا « غاية » .. وما سلكه من أَجزاءِ إفريقية وتحدث عنه كان غير مجهول من قبل .. ولهذا لا يصح لنا أَن نعتبره علمياً من الرواد الذين جابوا ما جابوه من أَقطار إفريقية بقصد الاستكشافات كابن حوقل وابن بطوطة مثلًا .

وفى هذا المعنى يقول الدكتور زاهر رياض ما خلاصته : إن ابن جبير برغم ما حوته رحلته من معلومات زاخرة فإنه لا يصحّ أَن نطلق عليه لفظُ رحالة جاب إفريقية إذ أَن الجزءَ الذى سلكه منها كان معروفاً من قبل ، ولم يسلكه رغبة فى اكتشافه أَو حُبًّا فى ارتياد المجهول ، وإنما كان ذلك لأَنه الطريق الوحيد الموصل إلى أَدائه لفريضة الحج .. وقد وضعه الدكتور زاهر رياض فى نطاق الرَّحالة المؤرخين ، لا الرحالة المستكشفين .(١)

---

(١) كشف أفريقيا – للدكتور زاهر رياض ص ٦٢ و ٦٣ و ٦٤ طبع مصر .

وهذا الذى قرره زاهر رياض هو رأى وجيه وصائب وموفق وحصيف يستحق التسجيل بعد هذه الكلمة التمهيدية ، التى رأينا أن نأتى بها بمناسبة رحلة ابن جبير صوب المدينة فى طريق عودته إلى الأندلس ونعود إلى هيكل الرحلة فنقول :

أقام ابن جبير فى مكة ثمانية أشهر وثلث شهر ، وهى أكبر إقامة أقامها فى أىّ بلد ، ثم انفصل من مكة إلى المدينة ، وكما دخل مكة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هـ خرج منها فى يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة ٥٧٩ هـ ومَرَّ فى طريقه إلى المدينة على وادى مَرٍّ، فعسفان ، فخُلَيْص ، ثم بَدْرٍ ، فالصفراءِ ، ثم بئر ذات العلم ثم نزل على شِعْبِ عَلِىّ، ومنه إلى تربان ، فالبيداءِ التى يبصر منها زوار المدينةِ ، المدينة . وكان موضع مشاهدة المدينة منها يسمى بِالْمُفَرِّحَاتِ ، ثم نزل أولًا بالقسم الغربىّ من وادى العقيق . وفى عشى يوم الاثنين الثالث من المحرم ٥٨٠ هـ، دخل هو وصحبه المدينة ومن ثم دخل المسجد النبوى وصلى بالروضة بين القبر والمنبر ، ورأى أعواد المنبر القديمة التى كانت موطىء أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشاهد القطعة الباقية من الْجِزْعِ الذى حَنَّ إليه ، وهى مُلْصَقَةٌ بعمود قائم أمام الروضة ، وصلى المغرب مع الجماعة فى المسجد النبوىّ وسلم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وسلم عَلَى صاحبيه أبى بكر وعمر الفاروق رضى الله عنهما . ولم ينس أن يصف لنا شعوره فى تلك اللحظات فقال : (ولم يبق لنا أمل من آمال وجهتنا المباركة ، ولا وطرٌ إلا وقد قضيناه ، ولا غرض من أغراضنا المأمولة إلا وبُلِّغْنَاه) . ومعنى ذلك أنه بزيارته للمسجد النبوى وسلامه على المصطفى قد حقق كل أهدافه من رحلته ، ولم يبق له مطمح فى حياته إلا أن يعود إلى وطنه فى سلامة وأمن .

عُنِيَ ابنُ جبير بالغَ العناية بإضفاءِ وصف دقيق وشامل للمسجد النبويّ على الحالة التى رآه فيها فقال : عنه (مستطيل وتَحُفُّهُ من جهاته الأَربع بلاطاتٌ مستديرة به) . وقد أدركناه كذلك ، فالجهة الْقِبْلِيَّةُ منه لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهةُ الْجَوْفِيَّةُ(٢) لها أَيضاً خمسة بلاطات على الصفة المذكورة والجهةُ الشرقية لها ثلاثة بلاطات ، والغربيةُ لها أَربعة ، ووسط المسجد كله صحن مفروش بالرمل والحصى والقبر الشريف مع آخر الجهة القبلية(٣) مما يلى الشرق . وفى جنوب الحجرة الشريفة جزءٌ كبير من المسجد متصل بباب السلام ، ومنه يتوجه الْمُسَلِّمُونَ على المصطفى صلوات الله وسلامه عليه إلى المواجهة الشريفة مستقبلين الوجه الكريم للسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم . وللحجرة الشريفة خمسة أَركان بخمس صفحات والصفحات الأَربع محرفة عن القبلة تحريفاً بديعاً لا يتأَتى لأَحد معه استقبالُهَا فى صلاته ، لأَنه ينحرف عن القبلة . وقد رأَى ابن جبير المنبرَ مُغَشًّى بعود الآبنوس ، ومقعد النبيّ من أَعلاه ظاهراً وعلى رأْس رِجْلِ المنبر الْيُمْنَى حلقة فضة مجوفة تشبه حلقة الْخَيَّاط التى يضعها فى أَصبعه : (الكشتبان) وقاس ابن جبير المسجد النبوى فكتب أَن طوله مئة خطوة وست وتسعون خطوة ، وسعته مئة وست وعشرون خطوة ، وعدد سواريه مئتان وتسعون ، وهى

---

(٢) يقصد ابن جبير بالجهة الجوفية الجهة الشمالية . وهذه الصيغة حملها معه فى رحلته من بلاده التى تسمى جهة الشمال جوفاً .

(٣) يقصد ابن جبير بالجهة القبلية الجهة الجنوبية ، وهذا على تعبير أهل المدينة المنورة ومن فى شمالها من المدن ، لأن القبلة تقع فى جنوبهم فيسمون ما يقع جنوبهم باسم (القبلة) تسمية للمحل بكم الحال فيه فهو من باب المجاز المرسل . ويبدولنا أن هذه الصيغة من ملتقطات ذاكرة ابن جبير من لهجة أهل المدينة ولا تزال .

أَعمدة متصلة بالسُّمْكِ دون قِسِيٍّ ، تنعطف عليها ، فكأَنها دعائم قوائم وهى من حجر منحوت قِطَعاً قِطَعاً مسلسلة مثقبة توضع أُنثى فى ذكر ، ويُفْرَغُ بينهما الرَّصَاصُ الْمُذَابُ إلى أَن تتصل عموداً قائماً وتكسى بغلالة جيار[٤] .

وكما شاهد ابن جبير أَحد مصاحف عثمان بن عفان فى المسجد الحرام بمكة ، كذلك ذكر أَنه شاهد مصحفاً كبيراً فى غشاءٍ مُقْفَلٍ عليه وقال : هو أَحد المصاحف الأَربعة التى وَجَّهَ بها عثمان رضى الله عنه إلى البلاد ، وسيأْتى أَنه رأَى أَيضاً فى الجامع الأَموىّ مصحفاً من هذه المصاحف التى وجه بها عثمان إلى البلاد[٥] .

وشاهد كذلك بالمسجد النبوىّ إزاءَ المقصورة – أَى الْمُكَبَّرِيَّة – إلى جهة المشرق خزانتين كبيرتين محتويتين على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك . ورأَى فى الجهة الشرقية من المسجد بيتاً مصنوعاً من عُود يبيت فيه سَدَنَةُ المسجد الحارسون له ، وهم فتيان أَحابيش وصقالب طِوَالُ الهيئات ، نظاف الملابس (والشارات) .

وشاهد فى جهة جَوْفِ الصَّحْن – أَى فى شمال صحن المسجد – قبة كبيرة محدثة جميلة تُعرف بقبة الزيت هى مخزن لجميع آلات المسجد ولوازمه ، وبإِزائها فى الصحن نخلة .

وذكر أَن أَبواب المسجد النبوىّ تسعة عشر باباً ، فهى – تماماً – مِثْلُ عدد أَبواب المسجد الحرام[٦] . ولكن أَبواب المسجد النبوىّ لم يبق

---

(٤) الجيار : يقصد به الجير المعروف .

(٥) راجع ص ٢٤٢ طبعة دار صادر ببيروت . وقد سبق أن أبديت شكى فى صحة نسبة مصحف من هذه المصاحف إلى عثمان رضى الله عنه . وهو المصحف الذى قال ابن جبير أنه فى المسجد الحرام بمكة .

(٦) راجع الصفحة ٨٢ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر ببيروت .

مُفَتَّحاً منها عند مقدم ابن جبير إلى المدينة سوى أَربعة : فى الغرب منها اثنان ، يعرف أَحدهما بباب الرحمة والثانى بباب الخشية . وفى الشرق اثنان ، أَحدهما باب جبريل عليه السلام ، والثانى باب الرجاءِ ، ويقابل بابَ جبريلَ دَارُ عثمان رضى الله عنه ، وهى التى اسْتشهدَ فيها .

وللمسجد ثلاث صوامع – أَى مآذن – إحداها فى الركن الشرقىّ المتصل بالقبلة ، واثنتان فى ركن الجهة الجوفية أَى الشمالية وهما صغيرتان .

مشاهد المدينة

أَقام ابن جبير خمسة أَيام فقط بالمدينة ، لأَن الشوق إلى بلاده قد بَرَّح به ، حسب ما أَشار إليه فى رحلته ، ومع ذلك فقد دَوَّنَ ما رآه من مشاهدها المأْثورة كضريح حمزة رضى الله عنه ، ويقيعِ الغرقد ، وقريةِ قُبَاء التى فيها أَول مسجد أُسِّسَ على التقوى ، وهو مسجد قباءِ ، وأَولُ مسجد صُلِّيَتْ فيه الجمعةُ . وشاهد دار بنى النجار : دار أَبى أَيوب الأَنصارى التى نزل فيها النبىُّ صلى الله عليه وسلم أَولَ دخوله المدينة فى هجرته من مكة . ويقول ابن جبير : إنها يليها دار عائشة رضى الله عنها ، وإن بإِزائها دار عمر ، ودار فاطمة ، ودار أَبى بكر رضى الله عنهم ، وإن بجانبها بئر أَرِيسَ حيث تفل النبىُّ صلى الله عليه وسلم فعاد ماؤها عذباً بعد أَن كان أُجَاجاً ، وهى التى وقع خاتمه فيها من يد عثمان رضى الله عنه فى خلافته ... ذلك ما يقوله ابن جبير فى كتاب رحلته ، وهو قول لا يخلو من اضطراب وتخليط وعدم دقة فى تحديد المواقع ، فدار أَبى أَيوب تقع فى الجهة الجنوبية الموالية للشرق من المسجد النبوىّ ، وهى من دُورِ بنى النجار أَخوالِ النبىّ صلى الله عليه وسلم . لأَن جدته

سَلْمَى أُمّ والده عبد الله كانت منهم ، وكذلك دار عمر ، ودار فاطمة إن كان لها دار أُخرى ، ودار أَبى بكر فهذه الدور ليست بجانب بئر أَريس مطلقاً ، وذلك لأَن هذه البئر إنما تقع فى قرية قُباء أَمَامَ مسجد قُباء ، وبينها وبين المسجد النبوىّ نحو ثلاثة أَميال .

وذكر أَن للمدينة أَربعة أَبواب تحت سُورَيْنِ فى كل سُورٍ بابٌ يقابله آخر ، وأَحد هياكله حديد ، ويعرف باسم باب الحديد .

وقد أَدركنا أَبواب سور المدينة الحديديّة وهى على كل حال ليست تلك التى وصفها ابن جبير ، ويبدو أَن جَعْلَ هذه الأَبواب حديدية كان سببه الخوف والاحتراس من هجمات الأَعراب المجاورين للمدينة وَفِتَنِهِمْ التى ما كانت لتنقطع ، فَعَمِدَ ذوو الشأْن يومئذ إلى وضع هذه الأَبواب الحديدية لِتَصُدَّ الأَعراب المهاجمين ، كما وُضِعَتْ أَبواب أَبواب حديدية ضخمة على الفنادق فى ديار الموصل وديار الشام فى ذلك العهد ، لتقوم بنفس المهمة كما سيأْتينا فى محله .

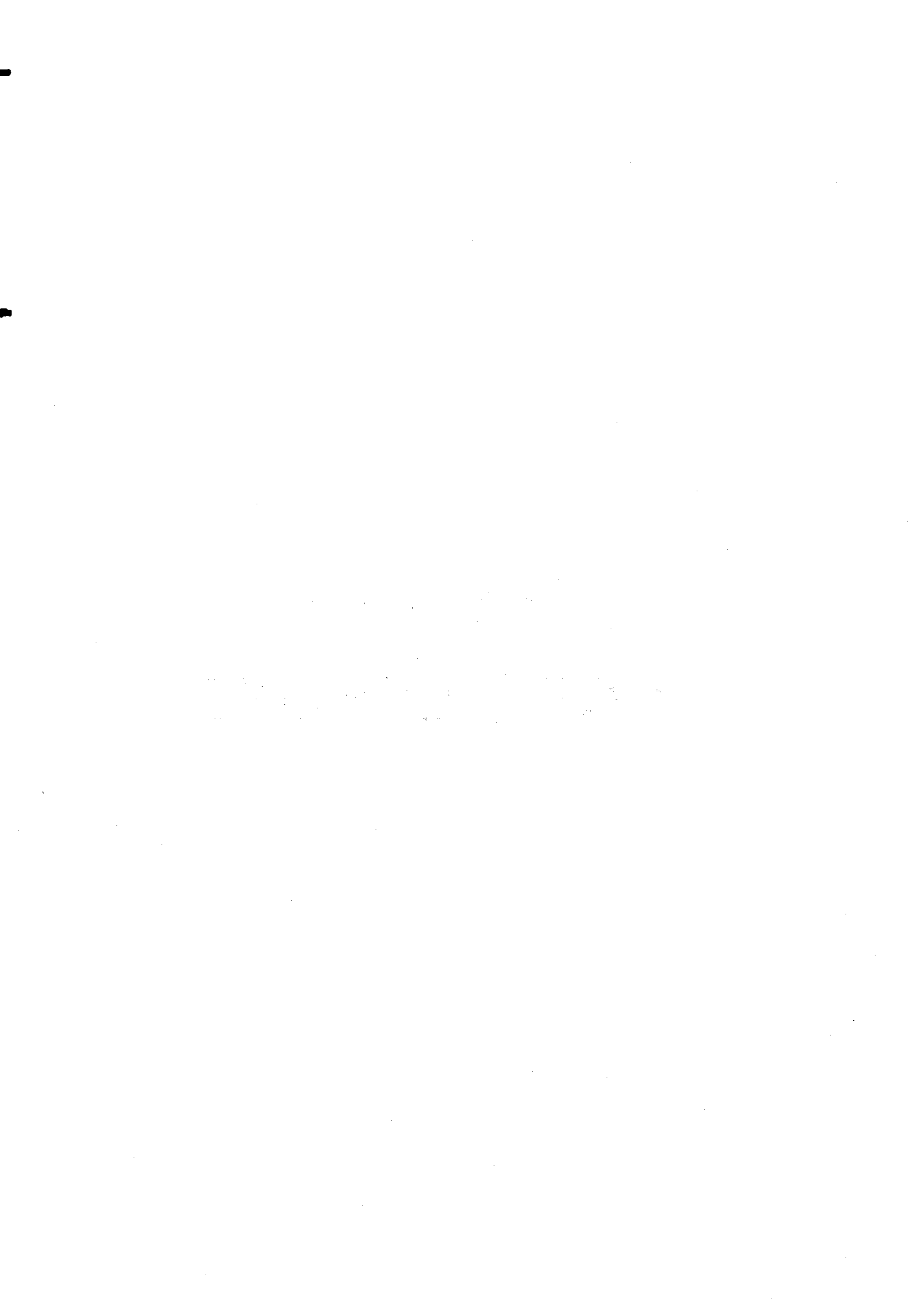
ومما أَورده ابن جبير من مَشَاهِدِ المدينةِ ، العينُ المنسوبةُ للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقد وصفها فى موقعها ، ومنبعها ، وفيما يلابسها . على أَن هذه العين لم يثبت تاريخياً ولا أَثرياً نسبتُها للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وابن جبير نَاقِلٌ لما رُوِىَ له شفويًّا . ومع ذكره لها فإنه لم يكن جازماً بصحة نسبتها إليه صلى الله عليه وسلم ، يدلنا على ذلك هذا النص الذى جاءَ فى رحلته عن تحديد موقع العين : (عن يمين الطريق العينُ المنسوبةُ للنبىّ صلى الله عليه وسلم) . فكلمة : (العين المنسوبة للنبىّ صلى الله عليه وسلم) تدل على عدم جزمه بأَنها عين النبى صلى الله عليه وسلم حقيقة . . ويتركز الشك هنا فى قوله : (المنسوبة) .

وكنتُ أَغْفَلْتُ ذكر هذه العين فى كتابى : (آثار المدينة المنورة) لهذا السبب الذى لَمَّحَ إليه ابن جبير . وذَكَرَ ضمن مشاهد المدينة مسجدَ علىّ ، ومسجدَ سلمان ، ومسجدَ الفتح ، وقال عن هذه المساجد الثلاثة إنها (فى طريق أُحُدٍ) . والذى نعرفه بالمشاهدة أَن هذه المساجد تقع على سفح جبل سَلْع الموالى للجهة الغربية الشمالية للمدينة فهى من هذه الناحية ، بالنسبة لطريقِ جبل أُحُدٍ المعروفة لنا اليوم ، شبهِ المستقيمة إليه – بعيدةٌ عن هذه الطريق . وليس لأَسماءِ هذه المساجد أَساس تاريخى صحيح وإنما كان النبى يتنقل فى صلاته من مسجد إلى مسجد ، ثم جاء المتأَخرون ووضعوا هذه الأَسماءَ لهذه المساجد من (عندياتهم) . ومسجد الفتح لم تنزل به سورة الفتح ، كما قال ابن جبير . ولم يَفُتِ ابنَ جبير ذكرُ دارِ إمامِ مذهبه : مالك بن أَنس إمام دار الهجرة فَحَدَّد موقعها[7] الذى شاهده فقال إنها (بقبلىّ هذا الحرم المكرم) .

(٧) راجع الصفحة ١٧٦ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر ببيروت .

الفصل السّابع عشر

مع ابن جُبير من المدينة إلى بغداد



كان لسان حال ابن جبير وهو يُوَدِّعُ مدينة الرسول ينشد قول الشاعر :

مَحَبتى تَقْتَضِى مُقَامِى وَحَالَتِى تَقتَضِى الرَّحِيلَا

فى ضحْوة يوم السبت ثامن المحرم ٥٨٠ هـ - ٢١ أَبريل ١١٨٤ م انفصل من المدينة متجهاً إلى العراق من طريق نجد ، فنزل فى محطة وادى العروس ، فأَرض نجد ، فمحطة العسيلة ، فالنقرة . وهكذا واصل سيره من محطة إلى محطة حتى بلغ الجبل الْمَخْرُوق الذى وصفه بقوله : (جبل فى بيداءَ من الأَرض وفى صفحه - أى جانبه - الأَعلى ثُقْبٌ نافذ تخترقه الرياح[1] .

ولسائلٍ أَن يسأَل : أَين يقع الجبل المخروق هذا فى نجد ؟ وهل له علاقة بالجبل المعروف فى مدينة الرياض بأَبى مخروق الذى فيه أَيضاً ثقب نافذ تخترقه الرياح فَسُمِّىَ لذلك بأَبى مخروق ؟ فإن يَكُنْهُ فهذا موضوع تاريخىٌّ مهم يضع بين أَيدينا شيئاً من تاريخ موقع قديم فى هذه المملكة ، وإلَّا يَكُنْهُ وهو الأَمثل فما أَكثر اتفاق أَسماءِ الأَماكن ببلاد العرب مع اختلاف الْمُسَمَّيات . وأَخيراً تحقق لدى كاتب هذه السطور أَن الجبل المخروق المشار إليه آنفاً ليس هو (جبل أَبى مخروق) بالرياض بالنظر لقربه من فَيْد القريبة من جبلى طيّئ بشمال المملكة الشرقى[2] وإذن فلنا فى بلاد نجد جبلان مخروقان تخترق الرياح ثقبيهما : أَحدهما بالرياض ، والآخر فى شمال نجد . أَو بالتعبير الحديث أَحدهما بالمنطقة الوسطى والآخر بالمنطقة الشمالية . .

---

(١) نفس المصدر السابق ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) راجع صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٥٨ و ٥٩ طبعة بيروت سنة ١٣٩٤ هـ = ١٩٧٤ م .

وبعد هذا الجبل المخروق وصلت قافلة ابن جبير إلى (فَيْد) فى ١٦ من المحرم ، و (فيد) حصن كبير ذو أبراج ، وذو شُرُوفَاتٍ يقع فى بسيط من الأَرض يمتد حوله رَبَضٌ يطيف به سور عتيق البنيان ، وهو معمور بِسُكَّانٍ من الأَعراب ينتعشون مع الحجاج فى التجارات والمبايعات وغير ذلك من الْمَرافق .

وتقع فَيْد فى منتصف الطريق بين بَغْداد ومكة عَبْرَ المدينة . وقد استمرت القافلة فى مسيرتها مَارَّةً بمحطة إثر محطة حتى وصلت أخيراً ، الْعُذَيْب ، فالرحبة ومنها إلى القادسية التى انتصر فيها المسلمون بقيادة سعد بن أَبى وقاص على جيوش الفرس بقيادة رستم ، وقد شاهدها ابن جبير قرية كبيرة فيها حدائق النخيل ومَشَارِعُ ماءِ الفرات ، وصَبَّحُوا النَّجَفَ القريبة من الكوفة . ومع طُلوع الشمس من يوم الجمعة ٢٨ المحرم ٥٨٠ هـ كان وصولهم إلى الكوفة .

مدينة الكوفة

وصفها ابن جبير ، كدأْبه مع كل المدن المهمة التى يمر بها فى رحلته وصفاً لطيفاً فقال : (وهى مدينة كبيرة عتيقة البناء قد استولى الخراب على أَكثرها فالغامر منها أَكثر من العامر) الخ .

وذكر أَن من أَسباب خرابها اعتداءَات قبيلة بنى خَفَاجة عليها . وذكر آثارها حسب ما تلقاه من أَلْسِنَةِ أَشياخها ، ولم يجزم بصحة ما نقلوه إليه فى شأْن تلك الآثار فعقب على مَرْوِيَّاتِهم بقوله : (والله أَعلم بصحة ذلك كله) . وبهذا تحاشى أَن يقال عنه فى هذا النقل « حاطب ليل » .

انفصل ابن جبير من الكوفة فى طريقه إلى مدينة الحلة ووصفها كعادته فقال : (وهى مدينة كبيرة عتيقة الوضع مستطيلة لم يبق من سورها إلا حَلَقٌ[٣] من جدار ترابىّ مستدير بها . وتقع على شط الفرات ، وبها أَسواق حفيلة – أَى مزدحمة – جامعة للمرافق المدنِيَّة والصناعات الضرورية . وتقع دُورها بين حدائق النخيل ، وبها جسر معقود على مراكب كبار متصلة من الشطِّ إلى الشط تَحُفُّ بها من جانبيها سلاسلُ من حديد كالأَذْرُعِ المفتولة عِظَماً وضخامة ، ترتبط إلى خُشُب مثبتة فى كلا الشطين ، أَمَرَ الخليفةُ بعقده على الفرات اهتماماً منه بالْحَاجّ واعتناءً بسبيله) ، وقد عَبَرَ ابن جبير ومن معه هذا الجسر ، ونزلوا بشط الفرات على مقدار فرسخ من البلد . وقد أُخِذَ ابن جبير بجمال طريق الحلة فأَضْفى عليه وصفاً رائعاً ثم نَزَلَ هو وصحبه ، بقرية القنطرة فى طريقهم إلى بغدادَ مدينةِ السلام ، ومنها إلى الْفَرَاشِ التى بها خان كبير – أَى فندق – يُحْدِقُ به جدار عالٍ له شُرفات صغار ، ورحلوا منها إلى قرية زريران : أَحسن قرى الأَرض وأَجملها منظراً وأَفسحها ساحة ، وأَوسعها اختطاطاً ، وأَكثرها بساتين ورياحين وحدائق نخيل . وبإزاءِ هذه القرية شرقاً (إيوانُ كسرى) . وأَمامها بِيَسِيرٍ ، مَدَائِنُه . وقد وصف ابن جبير الإِيوان الْكِسْرَوِىّ بأَنه بناءٌ عالٍ فى الهواءِ ، شديد البياض ، لم يبق من قصوره إلا البعض ، (وهناك نَفَحَتْهُمْ نوافح هواءِ بَغداد فأَحسوا من نفوسهم – على حال وحشة الاغتراب – دَواعِىَ من الإطراب ، واستشعروا بواعث فرح كأَنه فرحة الْغُيَّابِ بالإِياب ، وهبتْ بهم محركات

(٣) الحلق هنا بمعنى جدار دائرى .

من الإطراب ، أَذْكَرَتْهُمْ ، معاهد الأَحباب ، فى ريعان الشباب ، هذا الغريب النازح الوطن ، فكيف للوافد فيها على أهل وسكن ؟) . هذا وقد ألهمته قريحته تسجيل بيت من الشعر ملائم لهذه المناسبة قال فيه الشاعر :

سَقَى اللهُ بَابَ الطَّاقِ صَوْبَ غَمَامَةٍ وَرَدَّ إِلَى الْأَوْطَانِ كُلَّ غَرِيبِ

ورحل من قرية (زريران) إلى قرية (صرصر) ذات السوق الحفيلة ، والمسجد الجامع الكبير الجديد ، وانفصل منها إلى بغدَادَ مدينة السلام رأْساً فوصلها قبيل العصر بسلام .

الفصل الثامن عشر

مع ابن جُبير من بغْداد إلى دمشق

لم يكن وصف ابن جبير المبنىُّ على المشاهدة لمدينة بغداد مِثْلَ وصفِه لها قبل أن يراها . وقديماً قيل ليس الخبر كالعيان ، فقد استهواه صِيتُ مدينة السلام فأَشاد بجمال هوائها ورقته وصحته وبعثه للسرور والنشاط فى نفوس القادمين إليها ، حتى إنه مع اغترابه عن وطنه وتألُّمه من فراقه أَحس عندما استنشق هواءَها ببواعث الفرح والمرح ، وذَكَّرَهُ معاهدَ الأَحباب فى ريعان الشباب ، ولكنه عندما دخلها أَبدى شعوره الطافح بالأَلم والأَسى من أُفول شمس جمالها ، ونضوب مَعِين حسنها،فها هو ذا يقول عنها : (قد ذهب أَكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها) فى كلام كثير من هذا القبيل . . .

وكما آلمه منظرها فقد آلمه مخبر أَهلها الذين كانوا يتصنعون التواضع رياءًا ويذهبون بأَنفسهم عجباً وكبرياءًا يزْدَرُونَ الغرباءَ ، ويظهرون لمن دونهم الأَنفة والإِباءَ ، ويستصغرون عمن سواهم الأَحاديث والأَنباءَ قد تصور كل منهم فى معتقده وخَلَدِهِ أَن الوجود كله يصغر بالإِضافة لبلده) . .

وأَضاف إلى ذلك إمعانهم فى استعمال الرِّبَا ، وتطفيف المكيال وجفاءَ الغريب وأَنهم بخلاءُ أَشِحَّةٌ على الخير ذوو أَخلاق سيئة اللهم إلا فقهاءَهم الْمُحَدِّثين ، ووُعَّاظَهم المُذَكِّرين فلهم (فى طريقة الوعظ والتذكير مقامات تستنزل لهم من رحمة الله تعالى ، ما يحط كثيراً من أَوزارهم ، وهؤلاءِ الوعاظ البلغاءُ المخلصون فى التوجيه إلى الخير والبِرِّ يَذْهَبُ وعظهم سُدًى فكأَنهم يضربون فى حديد بارد ، ويرومون تفجير الجلامد .

مجالس العلم والوعظ فى بغداد

حضر ابن جبير بعض مجالس الوعظ والإرشاد هذه فى بَغداد ،

وأُعْجِبَ كل الإعجاب بأُولئك العلماءِ الكبار الذين سمع وَعْظَهُمْ فى مجالسهم من كثب . وفى طليعتهم الشيخ الإمام رضى الدين القزوينى رئيس الشافعية ، وفقيه المدرسة النظامية الذى ترتفع فصاحته وبلاغته إلى الأَوج ، مع غزارة علمه فى التفسير والحديث ، وبداهته الحاضرة فى الإجابة عن شآبيب المسائل التى تنهال عليه كالوابل المنهمر من كل جانب ، وإجاباته الشافية عن الرِّقاع العديدة التى يُمْطَرُ بها[1] من السائلين الحاضرين بمجلسه ، ومن هؤلاءِ المشايخِ والعلماءِ الأَعاظمِ فى دار السلام ، الشيخُ الفقيهُ جمال الدين ابن علىّ الجوزىّ . وهذا الشيخ العلامة البحر ، له مجلس وعظ وتذكير سُنِّىٌّ بإزاءِ داره على الشط بالجانب الشرقىّ وفى آخره ، على اتصال من قصور الخليفة . وقد أُعجب ابن جبير بغزارة علمه وفضله واستيعابه ، فوصفه بقوله : (ومن أَبهر آياته وأَكبر معجزاته) . وابن جبير طبعاً لا يقصد أن ابن الجوزى له آيات ومعجزات ، وإنما هى المبالغة التى هى من فنون البلاغة . وقد ذكر لنا ابن جبير أَمثلة من سعة علمه وسمو بلاغته نكتفى بالإشارة إليها حيث إنها مرصودة فى رحلته[2] .

كما شاهد بعد ذلك مجالس لسواه من وعاظ بَغْدَادَ .

وبهذه المناسبة ذَكَّرَنَا ابنُ جبير بمن شاهدهم قَبْلُ فى مكة والمدينة من وعاظ هذه الجهات المشرقية الذين أبدى إعجابه البالغ بفصاحتهم وسرعة خواطرهم[3] منذ قابلهم واستمع إلى مواعظهم فى البلدين المقدسين بهذه البلاد .

---

(١) كشف لنا ابن جبير هنا الأساس الذى قام عليه إمطار المحاضر بالأسئلة الشفهية والمكتوبة فى رقاع — كشف لنا أن هذا الأصل كان من الحضارة العربية الإسلامية ومنها انتقل إلى الغرب ، ومن الغرب انتقل إلينا فى العصر الحاضر وإذن فهذا بعض بضاعتنا رد إلينا .

(٢) راجع ص ١٩٦ — ١٩٧ — ١٩٨ — ١٩٩ — ٢٠٠ من رحلة ابن جبير طبع دار صادر بيروت .

(٣) راجع الصفحات ١٥٨ — ١٥٩ — ١٦٠ من رحلة ابن جبير طبعة دار **صادر** .

أفاض ابن جبير فى حديثه عن عُمْرَان بغداد على ما شاهده ، وذكر أن لها جانبين : أَحدهما شرقىّ والآخر غربىٌّ . ودجلة بينهما : الجانب الغربىُّ عَمَّهُ الخراب ، والجانب الشرقىُّ مُحْدَثُ العمارة ، ومع استيلاءِ الخراب عليه ففيه سبع عشرة محلَّة ، كل محلة مدينة مستقلة وبها حمامات وجوامع لصلاة الجماعة والجمعة . وأَكبر هذه المحلات : الْقُرَيَّة ، وهى التى نزل فيها ابن جبير ورفقاؤه بِرَبَضٍ فيها يُعرف بالمربعة على شط دجلة قرب الجسر .

ثم الْكَرْخُ وهى مدينة مُسَوَّرَةٌ ، ثم محلةُ باب البصرة وهى أَيضاً مدينة ، وبها جامع المنصور الكبير العتيق البنيان .

ثم الشارعُ وهى أَيضاً مدينة .

وهناك محلات كثيرة فى بغداد اكتفى ابن جبير بالإشارة إليها .

وتوجد بأَعلى « الشرقية » خارج بغداد محلة كبيرة بإزاءِ محلة الرُّصافة . وفى تلك المحلة قبر الإمام أَبى حنيفة ، وبالقرب منها قبر الإمام أَحمد بن حنبل .

و « الشرقيةُ » هى دار الخلافة عند قدوم ابن جبير إلى بغداد . ودُورُ الخليفة مع آخرها ، وجميع العباسيين هناك معتقلون اعتقالاً جميلاً . لا يخرجون ولا يظهرون ، ولهم المرتبات القائمة[4] وللخليفة فى تلك الديار جزءٌ كبير قد اتخذ فيها المناظر الْمُشْرِفَةَ والقصور الرائعة والبساتين الأَنيقة ، وليس له وزير ، وإنما له خَدِيمٌ يُعرف بنائب الوزارة يُنَفِّذُ

(٤) ربما كان ذلك الاعتقاد الخاص . نوعاً من أنواع العزل السياسى فى لغة العصر السياسية المرنة ..

أوامر الخليفة . وله قَيِّمٌ (على جميع الدور العباسية ، وأمين على سائر الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه وعلى جميع من تَضُمُّهُ الحرمة الخلافية ، يُعْرَفُ بلقب (الصاحب مجد الدين أُستاذ الدار) .

وَرَوْنَقُ الملك العباسيّ يومئذ إنما هو على الفتيان الأحابيش المجابيب ، منهم فتًى اسمه : (خالص) هو قائد العسكرية كلها .

يقول ابن جبير : (وقد يظهر الخليفة فى بعض الأحيان بدجلة راكباً زورقاً ، وقد يصيد فى بعض الأوقات فى البرية ، وظهوره على حالة اختصارٍ تَعْمِيةً لأمره على العامة فلا يزداد أمره مع تلك التعمية إلا اشتهاراً . واسم هذا الخليفة المحبوب لدى الشعب البغدادىّ هو أبوالعباس أحمد الناصر لدين الله ابن المستضىء بنور الله أبى محمد الحسن ابن المستنجد بالله أبى الْمُظَفَّرِ يوسف ، ويتصل نسبه إلى أبى الفضل جعفر المقتدر بالله . وقد أبصره ابن جبير ذات مرة أمام منظرته بالجانب الغربىّ ، وقد انحدر عنها صاعداً بالزورق إلى قصره بأعلى الجانب الشرقىّ على الشط ، وهو فى فَتَاءٍ من سِنِّه أشقرُ اللحية صغيرها تَمْلَأُ لِحْيَتُهُ وَجْهَهُ ، حَسَنُ الشكل ، جميلُ المنظر ، أبيض اللون ، معتدل القامةِ ، رائق الرُّواءِ ، سِنُّهُ نحو خمس وعشرين سنة ، لابساً ثوباً أبيض شِبْهَ الْقَبَاءِ ، برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهبة مُطَوَّقَةٌ بِوَبَرٍ أسود من الأوبار الغالية القيمة ، المتخذة للباس مما هو كالفنك[٥] .

وكانت رؤية ابن جبير للخليفة عشية يوم السبت السادس لصفر ٥٨٠ هـ ، وقد أبصره مرة أُخرى عَشِيَّ يوم الأحد بَعْدُ، منطلقاً من منظرته المذكورة بالشط الغربىّ ، والأمر الذى سهل لابن جبير وصَحْبِه حينئذ

(٥) الفنك : حيوان ذو فروة هى أفضل أنواع الفراء .

رؤية الخليفة هو أنهم كانوا يسكنون بمقربة من المنظرة التى ظهر لهم فيها..

مدة إقامة ابن جبير فى بغداد

بلغت تلك المدة ثلاثة عشر يوماً . وكان فى صحبة الخاتونين[٦] : خاتون سلجوقة بنت الأمير مسعود ، ملك الدروب والأرمن ، وما يلى بلاد الروم ، وهذه الخاتون هى أعظم الخواتين الثلاث قدراً وأعلاهن مكانة لسعة ملك أبيها ، وكانت قد وصلت هى وخاتونُ أُمُّ عِزِّ الدين صاحبِ الموصل بِقَصْدِ الحَجِّ مع أمير الحاج أبى المكارم طاشْتِكِين مولى أمير المؤمنين ببغداد . أما الخاتون الثالثة فهى ابنة الْدَّقُوس ـ (إيلدكز) شمس الدين أتابك حاكم أذْرَبِيجَان وبلاد الجبل وهَمَذَان ، وأصبهان وغيرها بين عامى ٥٣١ ـ ٥٦٨ هـ[٧] .

من بغداد إلى الموصل

صحب ابن جبير موكب الخاتونين المذكورتين فى رحلتهما الممتعة من بغداد إلى الموصل وَطَنِهِمَا . يقول فى ذلك : (وفى تلك العشية التى رحلنا فيها فَجَأَتْنَا خاتونُ المسعودية المترفةُ شباباً وملكاً وهى قد اسْتَقَلَّت فى هَوْدَجٍ موضوع على خَشَبَتَيْنِ معترضتين بين مطيتين ؛ الواحدة أمام الأخرى ، وعليهما الجِلَالُ الْمُذَهَّبَةُ ، وهما تسيران بها سير النسيم ، سرعةً ولِيناً ، وقد فُتِح لها أمام الهودج وخلفَهُ بَابَانِ وهى ظاهرةٌ فى وسطه متنقبة ، وعصابة ذهبٍ على رأسها ، وأمامها رعيلٌ من فتيانها وجندها وعن يمينها جنائبُ المَطَايَا والهماليج[٨] العِتَاق ، ووراءها ركبٌ من جواريها قد ركبنَ

(٦) أى الأسيرتين أو السيدتين .
(٧) رحلة ابن جبير : تحقيق حسين نصار . انظر الصفحة ١٦٧ ـ ١٦٨ وهامشها بأسفلها .
(٨) الهماليج : جمع هملاج وهو البرذون . والعتاق : جمع عتيقة بمعنى : جميلة .

المطايا والمهاليج على السُّرُوج المُذَهَّبَةِ وعَصَبْنَ رؤوسَهُنّ بالعصائبِ الذهبيات ، والنسيمُ يتلاعبُ بَعَذَبَاتِهِنَّ ، وهن يَسِرْن خلف سَيِّدَتِهِن سَيْر السحاب ، ولها الراياتُ والطبولُ والبُوقات ، تُضْرَب عند رُكوبها وعند نزولها) .

الملك النسائى

لقد بَهَرَ منظرُ الخاتونين وجندهما وجواريهما وموكبهما – فِكْرَ ابن جبير ، وأَعْجَبَتْه روعةُ هذا المنظر فسماه (الملك النِّسائى) وذلك فى قوله : (وأبصرنا من نخوة الملك النسائى الخ ... واحتفاله رتبة تهز الأَرض هَزًّا ، وتسحب أذيال الدنيا عِزًّا ، ويحق أَن يخدمها الْعِزُّ ، ويكون لها هذا الْهَزّ) .

صلاح الدين يكرم سلجوقة

حَظِيَتْ سلجوقةُ بنت السلطان مسعود التى وصف ابن جبير فيما سبق شبابها ومجدها وملكها – حَظِيَتْ بتكريم السلطان صلاح الدين ، وكان (قد استفتح « آمد » بَلَدَ زوجِها نور الدين ، وهى من أَعظم بلاد الدنيا فترك لها هذا البلد كرامةً لأَبيها . وأَعطاها المفاتيح وبقى ملك زوجها بسببها[٩]) . ولا نشك فى أَن إكرام صلاح الدين لها دليل على شرف منزلتها وعلو مكانتها فى نظره استناداً إلى ما لها من مكانة مرموقة لدى أَبيها الماجد العظيم .

خط سير موكب الأميرتين إلى الموصل

عقب قيام موكب الخاتونين ومن معهما من الحجاج العائدين من بيت الله الحرام عقب ذلك وصل « الموكب الخاتونى » إلى إحدى قرى

(٩) المصدر السابق الصفحة ٢٠٧ .

بغداد فباتوا بها ثم استمر سيرهم قُدُماً على نُهَيْرِ دُجَيْلٍ ، قرب قرية الحرية ، فحصن المشوق الذى يقال إنه كان مُتَفَرَّجاً لزبيدة زوج هرون الرشيد . وأمام هذا الحصن بالشط الشرقى مدينة «سُرَّ من رأى » المشهورة التى يقول فيها ابن جبير : (إن الخراب استولى عليها مع كبرها ولم يبق سوى الأثر من محاسنها) . ومن هنالك أسْرَوْا حتى كانوا فى ظاهر مدينة تكريت .

مدينة تكريت

مدينة تكريت إحدى مدن الموصل ، وقد وصفها ابن جبير بأنها : (واسعة الأرجاء ، فسيحة الساحة ، حفيلة الأسواق ، كثيرة المساجد ، غاصة بالخلق) ونراه هنا يكرر انتقاده لأهل بغداد فى معاملاتهم وأخلاقهم . . وقد أضاف إلى ما سبق ذكره قوله عن تكريت : (أهلها أحسن أخلاقاً وقسطاً فى الموازين من أهل بغداد ، ودجلة منها فى جَوْفِيِّهَا أى فى شَمَالِهَا - ولها قلعة حصينة على الشط هى قصبتها المنيعة ، ويطيف بالبلد سُورٌ قد أثر الوهن فيه) .

وبعد نزولهم بها يوماً نزحوا إلى قرية الحديدة ثم قاموا من الجديدة إلى موضع يعرف بالقيَّارة القريبة من دجلة . وبقربها منابع القار ومن ذلك سميت بالقيارة وقد وصف ابن جبير هذه المنابع وصفاً علميًّا دقيقاً ، وَوَصفَ كيفية استخراج القار منها وكيفية الاستفادة منه وتسويقه فى البلاد من الشام إلى عكة ، إلى جميع البلاد البحرية . . ومن القيَّارة رحلوا إلى قرية العقيبة . وبعد سُرَى نصفِ الليل منها وصلوا إلى مدينة الموصل ، ونزلوا بربضها فى أحد الخانات - أى الفنادق - القريبة من الشط .

مدينة الموصل

استلطف ابن جبير مدينة الموصل فوصفها وصفاً شيقاً ، وقال عنها : (قد طالت صحبتها للزمن ، فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن) .

ووصف تحسيناتها الممثلة فى بيوتها وأبراجها وذكر ربضها الكبير ومساجدها وحماماتها وخاناتها . ولأول مرة فى رحلته يذكر لنا القَيْسَارية (١٠) التى هى بمدينة الموصل وهى بداخلها « كأنها الخان العظيم تتغلق عليه أبواب حديد ، وتطيف بها دكاكين ، وبيوت بعضها على بعض قد جُلِّىَ ذلك كله فى أعظم صورة من البناء المزخرف الذى لا مثيل له ، فما أرى فى البلاد قَيْسَارِيَةً تعدلها » .

الاحتفال بوصول الموكب الخاتونى إلى الموصل

عندما وصل موكب الأميرتين السابق ذكرهما ، وفيه الرحالة ابن جبير وصحبه عُنِى بتقييد وصف أدبى ممتع لمظاهر هذا الاحتفال الذى أقيم احتفاءًا بعودة الأسيرتين إلى بلدهما عاصمة سلطنتهما . ونُحيل القارىء إلى نصوص الرحلة ليطلع على ذلك الوصف المبدع من معدنه (١١) .

مدينة نصيبين

ما أروع ذلك الوصف الذى تركه لنا الرحالة ابن جبير عن مدينة نصيبين ، إذ قال : (شهيرة العتاقة والقدم ظاهرها شباب ، وباطنها هرم ، جميلة المنظر ، متوسطة بين الكبر والصغر ، يمتد أمامها وخلفها

---

(١٠) القيسارية بناء كبير على شكل مستطيل بداخله طريق تتوزع فيه الحوانيت على كلا الصفين . وكلمة قيسارية تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية « Kaisarele » وتعنى السوق القيصرية التابع للدولة « دائرة معارف الشعب » المجلد الثانى الصفحة ١٤٥ .

(١١) الصفحة ٢١٢ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر بيروت .

بسيط أخضر مَدَّ البصر ، قد أجرى الله فيها مذانب من الماء تسقيه ، وتطرد في نواحيه ، وتَحُفُّ بها عن يمين وشمال بساتينُ ملتفة الأَشجار ، يانعة الثمار ، ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السِّوَار ، والحدائق تنتظم بحافتيه ، وتفيءُ ظلالها الوارفة عليه ، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول :

طَابَتْ نَصِيبينُ لى يوماً فَطِبْتُ لها يا ليتَ حَظِّى من الدُّنْيا نَصِيبِينُ

وقد نزل ابن جبير وصحبه بفندق فى مدينة نصيبين وسماه خَاناً [١٢] ؛ تَعَاطُفاً مع لهجة أهل هذه الجهات .

وقد انفصلوا من نصيبين مُهطعين وَجِلِينَ خائفين من إغارة الأَكراد عليهم وهم الذين تحدث عنهم بأَنهم (آفة هذه الجهات من الموصل إلى نصيبين) [١٣] حتى مدينة دُنَيْصِرَ ، وهم يقطعون السبيل ويسعون فساداً فى الأَرض ويسكنون جبالا منيعة تقرب من هذه المدن .

---

(١٢) من عادة ابن جبير فى رحلته أن يسمى بعض الأشياء بالأسماء التى يطلقها عليها أهل المنطقة التى مر بها . فهو عندما علم بأن اسم « الفندق » هو « الخان » فى لهجة أهل الموصل ومن بعدهم إلى الشمال ترك اسم « الفندق » وقلدهم باستعمال اسم (الخان) .

ومن شواهد ذلك أنه لما وصل عيذاب ترك اسمى (السفينة) و (المركب) وأخذ بدلا منهما اسم (الجلبة) لها تقليداً لأهل عيذاب الذين يسمون المركب (جلبة) وحينما ركب البحر الأبيض المتوسط فى طريق عودته لغرناطة ترك اسم الجلبة واستعمل بدلا عنها اسم « المركب » للسفينة اتباعاً لأهل هذه الجهات من السكان العرب .

وعندما كان فى المدينة المنورة ترك صيغة « الجنوب » واستعمل بدلا عنها صيغة « القبلى » و« قبلة » تبعاً لاستعمال أهل المدينة لهذه الصيغة عوضاً عن « الجنوب » لأن القبلة جنوب المدينة .

(١٣) لاحظنا أن ابن جبير يستعمل كلمة (آفة) بكثرة تعبيراً عن أهل الفساد فى الأرض ؛ لقد استعملها فى بحر عيذاب ، وفى مكة ، وهنا أيضاً استعملها عن المفسدين من اللصوص ومن يشاكلهم من قطاع الطرق ومن يدعون فى القطر المصرى فى عصرنا الحاضر باسم « النشالين » وهم اللصوص سريعو الخطف لما يسرقون من الناس ، واستعمل وهو فى مكة لفظة (هوشة) للفتنة ، على نمط استعمال الحجازيين لهذه اللفظة فى هذا المعنى إلى يوم الناس هذا .

مدينة دنيصر

تحدث عن وصفها مثلما تحدث عن مدينة نصيبين . . وقال إن الأرزاق واسعة بها ، وهى مشحونة بالبشر ، وأضاف أنها مخطر – أى مجتمع – لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التى تلى طاعة الأمير مسعود وما إليها . وهذا المحرث : (الأرض الخصبة الواسعة) .

مدينة مشتركة

« يحكم مدينة دنيصر سلاطين شتى ، هم بالنسبة لها كملوك طوائف الأندلس ، وكلهم قد تحلى بِحِلْيَةٍ تُنْسَبُ إلى الدين (فلا تسمع إلا أَلْقاباً هائلة ، وصفات لدى التحصيل غير طائلة ، قد تساوى فيها السُّوقة والملوك ، واشترك فيها الغنىّ والصعلوك ؛ ليس فيهم من اتسم بسمة به تليق . أو اتصف بصفة هو بها خليق ، إلَّا صَلَاحَ الدين صاحِبَ الشام وديارِ مصر والحجازِ واليمنِ) ويمضى ابن جبير إلى أن يقول : (وما سوى ذلك فزعازعُ ريح ، وشهاداتٌ يردها التجريح ، ودعوى نسبةٍ إلى الدين بَرَّحَتْ به أىَّ تبريح .

أَلْقابُ مَمْلَكَةٍ فى غيرِ مَوْضِعِهَا　　　كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

* * *

وبعد مُقامه هو وصحبه بمدينة دُنَيْصِرَ يوماً أو بعض يوم غادروها صوب مدينة رأس العين . وكان من الأنباء التى استرعت انتباه رحالتنا أن قرية « حصن العقاب » وقرية أُخرى هى الْجِسْرُ كلتاهما نصرانية وأهلها من المعاهدين .

مدينة رأس العين

هى فى إطار وصف ابن جبير لها كزميلاتها من مدن الموصل فهى مِثْلُهُنَّ تغلب عليها البداوة على الحضارة ، وقد نزحوا عنها إلى مدينة حَرَّان .

لم تَرُقْ مدينة حران فى نظر ابن جبير فاستهل وصفها بقوله : (بلد لَا حُسْنَ لديه ، ولا ظِلٌّ يتوسط بَرْدَيْهِ)[١٤] ومضى يصفها هكذا وصفاً تقليدياً حتى قال : (قد نُبِذَ بالعراء ، ووضع فى وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أطرافه من ملابس النضارة) وقد عقب على ذلك الوصف بأن أهل حران أهل خير ، هينون معتدلون ، محبون للغرباء مؤثرون للفقراء) .

ثم ذكر ما بها من مدارس ومارستانات ، ووصفها ووصف سُورَها بالمتانة والحصانة .

مدى نفوذ صلاح الدين فى هذه النواحى

حَدَّثَ لنا ابنُ جبير عن ذلك فقال : (وهذه البلاد كلها من الموصل ، إلى نصيبين ، إلى الفرات المعروفة بديار ربيعة ، وحَدُّها من نصيبين إلى الفرات مع ما يلى الجنوب من الطريق وديار بكر التى تليها فى الجانب الجوفى[١٥] كآمد وَمَيَّافَارقين[١٦] وغيرها مما يطول ذكره ، ليس فى ملوكها من يناهض صلاح الدين فهم إلى طاعته وإن كانوا مستبدين ، وفضله يبقى عليهم ولو شاء نزع الملك منهم لفعله بمشيئة الله .

هذا وبمناسبة إقبال ابن جبير على ديار الشام أفادنا بالحد الفاصل

---

(١٤) لعله يقصد ببرديه : طرفى النهار .

(١٥) الجوفى : الشمالى .

(١٦) ميا فارقين : أشهر بلدة بديار بكر . سميت بميا بنت أد ، لأنها بنتها قال كثير :

فإن لم تكن بالشام دارى مقيمة ... فإن باجنادين منى ومسكن

مشاهد لم يعف التنائى قديمها ... وأخرى بميافارقين فموزن

(تاج العروس شرح القاموس مادة فرق)

بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر فقال : (والفرات حَدٌّ بين ديار الشام وديار ربيعة وبكر) . والفرات نهر معروف .

مدينة منبج

لا يخرج وصفه لها عن وصف المدن السابقة تقريباً . ولكنه وَصَمَهَا بتعاقب الخراب عليها فى الأحقاب وقال عنها : (كانت من مدن الروم العتيقة) .

وقد غادرها إلى مدينة بُزَاعة التى وصفها وصفاً سجعيًّا لطيفاً يأخذ نهج أسلوبه السابق فقال : (ويناظرها فى جانب البطحاء قرية كبيرة تُعرف بِالْبَابِ هى باب بين بزاعة وحلب ، وكان يعمرها منذ ثمانى سنين قوم من الملاحدة الإسماعيلية لا يُحْصِى عَدَدَهم إلا اللهُ ، فطار شرارهم ، وقطع هذه السبيلَ فسادُهم وإضرارُهُمْ ، حتى داخلتْ أهلَ هذه البلاد العصبيةُ ، وحركتهم بالأنفة والحمية ، فتجمعوا من كل أَوب عليهم ، ووضعوا السيوف فيهم ، فاستأصلوهم عن آخرهم ، وعجلوا بقطع دابرهم ، وكُوِّمَتْ بهذه البطحاء جماجمهم) . ثم قال : (وسكانها اليوم قوم سُنِّيُّونَ) وغادر ابن جبير بُزَاعَةَ إلى حلب ، ووصلها ضحوة يوم الأحد الموافق ١٣ من شهر ربيع الأول ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م .

مدينة حلب

يُذَكِّرُنى وصف ابنِ جبير ، لمدينة حَلَب بالوصف الذى يضفيه الثعالبىُّ على أدباء عصره فى كتابه (يتيمة الدهر) فَوَصْفُهُ لحلب سجعىٌّ رَنَّانٌ ، لا يُحَدِّدُ الموصوفَ بحالٍ ، يقول : (بلدة قدرها خطير ، وذكرها فى كل زمان يطير .. الخ) . وبعدما فرغ من هذه السجعات ، شرع فى شرح تاريخ حلب بنفس القول المسجوع ، وقد ذكر أن (قَيْسَارِيَّتَهَا)

حديقة بستان نظافة وجمالاً ، مطيفة بالجامع لا يتشوق الجالس مرأى سواها ، ولو كان من المرائى الرياضية ، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب ، البديع الصنعة) . ووصف جامعها بكلام مرسل جميل ، كما وصف مدرسة الحنفية التى راقته حسناً ورونقاً وإتقان صنعة . ونزل برَبَضِها فى « خان أبى الشكر » ثم توجّه إلى مدينة قنسرين .

مدينة قنسرين

قال عنها : إنها خربت وعادت كأن لم تَغْنَ بالأمس ، لكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم(١٧) مدَّ البصر عرضاً وطولاً . وعند هذا الموقف تذكر ابن جبير الأندلس فقال عن قنسرين : (وتشبهها من البلاد الأندلسية : جَيَّانُ ، ولذلك يُذْكَرُ لنا أن أهل قنسرين عند استفتاح الأندلس نزلوا بِجَيَّانَ ، تَأَنُّساً بِشِبْهِ الوطن ، وتَعَلُّلاً به مثلما ما فُعِلَ فى أكثر بلادها ، حسب ما هو معروف) .

* * *

انفصل ابن جبير وصحبه من قنسرين ونزلوا فى خان كبير يعرف بخان التركمان وهو وثيق الحصانة .

طراز عمران الخانات

جادت المناسبة هنا لابن جبير بالتعريف بطراز عمران خانات هذا الطريق ، فقال : (وخانات هذا الطريق كأنها القلاع امتناعاً وحصانة . وأبوابها حديد ، وهى من الوثاقة فى غاية) ، وقد غادر « خان التركمان » إلى (تمنى) ونزل بها فى خان وثيق . ثم أسحروا منها فى ١٩ ربيع الأول

(١٧) المحرث فى اصطلاح ابن جبير — كما قدمنا — هو الأرض الزراعية الخصبة . وكثيراً ما تكون واسعة .

فرأوا عن يمين طريقهم بمقدار فرسخين، بلاد المعرّة المكتظة بأشجار الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه . ووراءها جبل لبنان الشامخ الارتفاع، الممتد الطول، المتصل من البحر إلى البحر، وفى صفحته حصون للملاحدة الإسماعيلية إذ ذاك، وهو الحد الفاصل بين بلاد المسلمين والإفرنج، ووراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من البلاد الشامية التى احتلها الصليبيون . وهناك فى صفح الجبل المذكور حصن الأكراد وهو للإفرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص . وكان وصول ابن جبير إلى مدينة حماة فى ضحوة يوم السبت المذكور، وقد نزل فى رَبَضِها بأحد خاناتها . ولم يسمه لنا وإن كنا نرى أن له اسماً . .

مدينة حماة

نَفْسَ الأوصاف التى أطلقها ابنُ جبير على الْمُدُنِ الأُخرى السابقة أطلقها على مدينة حماة مع بعض الفروق الخاصة . منها أنها : (فى وهدة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق . . والمدينة العليا متصلة بصفح الجبل المطل على أحد الجانبين . . . والمدينة السفلى تحت القلعة متصلة بالجانب الذى يَصُبُّ النهرُ عليه . وكلتا المدينتين صغيرتان) . .

مدينة حمص

لَمْ يَعْدُ وصف ابن جبير لمدينة حمص، الأوصافَ التى أضفاها على غيرها من مدن هذه الجهات فى أغلب ذلك . ولكنه من ناحية أُخرى أثنى عليها، وبخاصة وقد تمثلت له فيها ملامح مدينة إشبيلية الأندلسية . وبهذا الاسم سميت في القديم، ولذلك كان نزول أعراب أهل حمص فيها، وقد تمادى ابن جبير فى اتجاهه صوب دمشق فنزل بقرية الْمشْعَر ثم بقرية القارة العائدة للنصارى المعاهدين .

ويذكر أنه ليس بها من المسلمين أحد ، وأن بها خاناً كبيراً كالحصن المُشيَّد فى وسطه صهريج ماءٍ ، مملوءٌ ماءًا يتسرب له تحت الأَرض من عينٍ على الْبُعْد ، وقد نزل فيه ابن جبير وصحبه ، ثم رحلوا منه إلى إلى قرية النبك ، ثم أَسْرَوْا الليل كله إلى أن وصلوا إلى « خان السلطان » مع الصباح ، وهو خان بناه صلاحُ الدين صاحبُ الشأْن ، وهو فى غاية الوثاقة والحسن ، بباب حديد على سبيلهم فى بناءِ خانات هذه الطرق ، وفى الخان ماءٌ جَارٍ ، يتسرب إلى سقاية فى وسط الخان ، كأَنها صهريج ، ولها مَنَافِسُ ينصبُّ منها الماءُ فى سقاية مستديرة حول الصهريج ، ثم يغوص فى سرب من الأَرض . وساروا من خان السلطان إلى ثنية العقاب المشرفة على بسيط دمشق وغوطتها . وعند هذه الثنية مفرق طريقين سلكوا إحداهما الذاهبة إلى دمشق ، ونزلوا بموضع يعرف بالقصير ، فيه خان كبير ، والنهر جارٍ أَمامه . ورحلوا منه مع الصبح سائرين فى بساتين لا يوصف حسنها ، على حد قول ابن جبير ، حتى وصلوا دمشق فى الضحى الأَعلى فى يوم الخميس ٢٤ من شهر ربيع الأَول ـ ٥ يوليه .

الفصل التاسع عشر

مع ابن جُبَير من دمشق إلى صِقِلّيَة



اغتبط ابن جبير بوصوله إلى دمشق ، وقد نعتها نَعْتاً شعريًّا أخاذاً حيث قال فيها : (جَنَّة الْمَشْرِق ، ومطلع حسنه الْمُونِقِ الْمُشْرِق ، وهى خاتمة بلاد الإسلام ، التى استقريناها ، وعروس المدن التى اجتليناها) .. (قد سئمت أَرضُها كثرةَ الماءِ حتى اشتاقت إلى الظمإ) ... و (قد أَحدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة بالزهر)... (وامتدت بشرقيها غوطتُها الخضراءُ ، امتداد البصر) ... ثم وصف الجامع الأُمويّ بما يروق ويفوق ، وذكر ذرعه ومساحته وعدد أبوابه وشمسياته (أَى نوافذه) وأَشاد بقبة الرَّصاص فيه ، وذكر مقصوراته الثلاث ، وتحدث بأَن بالمقصورة الحديثة فى المحراب مصحفاً عثمانيًّا ، فقال : (فى الركن الشرقى من المقصورة الحديثة فى المحراب خزانة كبيرة فيها مصحف من مصاحف عثمان رضى الله عنه وهو المصحف الذى وَجَّهَ به إلى الشام . وتفتح الخزانة كل يوم إثر الصلاة فيتبرك النَّاس بلمسه وتقبيله ، ويكثر الناس عليه) . ولسنا مع ابن جبير فى نسبة هذا المصحف وغيره لعثمان بن عفان .. والسبب واضح ، وهو أَن ضخامته تنافى نسبته إلى العهد العثمانى على ما أَشرنا إليه فى مواضع أُخرى من هذا هذا الكتاب . وذكر أَن مدفن رأْس الحسين بن علىّ رضى الله عنه فى وجه اليسار من باب جيرون . ورأْس الحسين رضى الله عنه مدفون هناك بحق كما ورد فى التاريخ . وقدم تعريفاً علميًّا دقيقاً لساعة الجامع الأُموى .. وهذه الساعة هى اختراع عربىٌّ رائد فى صناعة الساعات الزمنية ، ويسميها الناس - كما يقول ابن جبير - (المنجانة) . وقد أَشاد بالمحضرة[1] الكبيرة ، وأَبدى الفرق بين تعليم القرآن للصبيان فى

---

(١) يعنى المدرسة التى هى للأيتام من الصبيان بدمشق ، ولها وقف كبير يأخذ منه المعلم فيها ما يقوم بمعيشته ، وينفق منه على الصبيان ما يقوم بمعيشتهم أيضاً .

البلاد المشرقية ، وبين تعليمهم إياه فى البلاد المغربية : تعليمُ القرآن للصبيان فى المشرق عبارة عن تلقينه لهم ، ولا كتابةَ فى الألواح ، ويُعَلَّمُون الخط فى الأشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو . وذَكَرَ سقايات الجامع الأربع . وبعد ذلك عطف على مشاهد دمشق وآثارها ، وأطنب فى ذلك ، ويبدو أنه أثبت فى رحلته كل ما سمعه فسَلَّم به تسليماً ، بدون تدقيق أو مناقشة أو تعليق أو مراجعة للمصادر المعتمدة . وأشاد بالربوة المباركة ، وهى تشرف على جميع البساتين الغربية من البلد ، ويتصل بأسفل منها بمقربةٍ قريةٌ كبيرة تعرف « بالنَّيْرِبِ » تغطيها البساتين ، وبها جامع حسن جدًّا ، مفروش سطحه بفصوص الرخام الملَّون .

ويقول : إن فى الجهة الشرقية من البلد مَوْلِدَ إبراهيم عليه السلام فى قرية تُعْرَف ببيت « لَاهِيَةَ » . وتحدث عن الجبانة الكبيرة الواقعة بغربى دمشق التى دفن بها كثير من الصحابة والتابعين والصالحين ، ومن ومن قبور الصحابة بها قبرا أبى الدرداءِ وزَوْجِهِ أُمّ الدرداءِ رضى الله عنهما . وقرأ ابن جبير فى فضائل دمشق أن أُم المؤمنين أُم حبيبة أُخت معاوية رضى الله عنهما مدفونة فى دمشق . وغير ذلك من الصحابة الكرام . . وذكر أن من أحفل المشاهد مشهداً منسوباً لعلىّ بن أبى طالب . ولا يعلم شيئاً عن هذا المشهد ، وابن جبير نفسه فَنَّدَ هذه الرواية ونسبها إلى الشيعة ، فلم يثبت عن علىٍّ أنه دخل دمشق قط .

وذكر أن لدمشق ثمانية أبواب ، وبابها الشرقىّ فيه منارة بيضاءُ ، ويقال : إن عيسى عليه السلام ينزل فيها . وذكر كنسبة الرومىّ المعروفة بكنيسة مريم وهى للروم ، وقد زينت بتصاوير عجيبة .

وبدمشق نحو عشرين مدرسة ، وبها مارستانان : قديم وحديث . . وللمجانين المعتقلين فى المارستان الحديث منهما ضرب من العلاج (وهم فى سلاسل مُوثَقُونَ) . تماماً كما سبق ذكره فى مستشفى المجانين الذى أَنشأَه السلطان صلاح الدين بمدينة القاهرة على ما أَورده ابن جبير ، وينَوِّهُ ابن جبير بهذه المارستانات ، فيقول : إنها (مفخرة عظيمة من مفاخر الإسلام ، والمدارس كذلك) . وأَقحم فى الحديث قوله عن النصارى المجاورين لجبل لبنان : إنهم إذا رأَوا بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأَحسنوا إليهم ، ويقولون : هؤلاءِ ممن انقطع لله عز وجل فتجب مشاركتهم . وتَطَرَّقَ من هذا إلى وصف جبل لبنان ، بأَنه أَخصب جبال الدُّنيا فيه جميع أَنواع الفواكه ، والمياه المطردة ، والظلال الوارفة . وعلق على حسن معاملة نصارى جبل لبنان للمسلمين بقوله : (وإذا كانت معاملة النصارى لِضِدِّ ملتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ؟) ثم وصف حالة الحرب بين النصارى والمسلمين فى تلك الأَيام ، واتفاقات الهدنة بينهم بحيث تسير قوافل التجار من أَحد البلدين إلى الآخر فى أَمان واطمئنان ، ولا يتعرض لها أَحد من الجانبين . ثم عاد إلى آثار دمشق العُمرانية ، وأَشاد بقلعة السلطان الواقعة فى الجهة الغربية من دمشق .

وقال : إن لدمشق وأَرباضها نحو مائة حمام ، ونحو أَربعين داراً للوضوءِ ، يجرى الماءُ فيها كلها . وأَسواق دمشق من أَحسن الأَسواق انتظاماً ووضعاً ، ولا سيما الْقَيْسَارِيّات المرتفعات المسقفة كلها بأَبواب حديد كأَنها أَبواب قصور ، وكل قيسارية منفردة بضبّتها – أَى بحديدتها التى يُقْفَل بها الباب – وأَغْلاقِهَا الجديدةِ . وسوقُ دمشق الكبير

متصل من باب الجابية إلى باب شرقى . وقد أُعْجِبَ ابنُ جبير بقبة الرصاص القائمة وسط الجامع الأُمَوىّ فأَطنب فى وصفها وتحليل بنائها ، وطراز عمرانها ، والتعليق على ذلك ببيانه الرائع .

وتحدث عن الدار المنسوبة لعمر بن عبد العزيز ، وكانت يومئذ خانقة أى « رباطاً » للصوفية ، وقد اشتراها وبناها الشُّمَيْسَاطى وهو رجل من العجم كان من أكابر الرؤساء بدمشق واسمه أَبو القاسم علىُّ بن محمد .

ووصف عَادَاتِهم فى جنائزهم وصفاً كاملًا شاملًا ونَقَدَهَا ، ومضى فى وصف هذه العادات وفى نقدها إلى أَن قال : (ونُقَبَاءُ الجنائز يرفعون أَصواتَهُم بالنداءِ لكل واصلٍ للعزاءِ من مُحْتَشِمِى البلدةِ وأَعيانهم ويُجِلُّونَهُم بخِطَطِهم الهائلة[٢] التى قد وضعوها لكل واحد منهم ، بالإِضافة إلى الدين ، فتسمع ما شئت من : « صدر الدين أَو شمسه أَو بدره أَو نجمه أَو زينه أَو بهائه أَو جماله أَو مجده أَو فخره أَو شرفه أَو معينه أَو مُحْيِيه أَو زكِيِّهِ أَو نجيبه إلى ما لا غاية له من هذه الأَلفاظ الموضوعة ، وتُتْبِعُها – ولا سيما فى الفقهاء – بما شئت أَيضاً من « سيد العلماءِ » و « جمال الأَئمة » و « حجة الإِسلام » و « فخر الشريعة » و « شرف الملة » و « مفتى الفريقين » إلى مالا نهاية له من هذه الأَلفاظ المُحَالِيَّة) . . . ثم عرج من هذا النَّقد لتقاليد الدمشقيين إلى نقدٍ آخر يستهدف مخاطبة أَهل هذه الجهات بعضهم لبعض ، بالتمويل والتسويد[٣] وبامتثال الخدمة وتعظيم الحضرة ، وإذا لقى أَحد منهم آخر مُسَلِّماً ، يقول : « جاءَ المملوك أَو الخادم برسم الخدمة » كناية عن السلام ، إلى آخر .

---

(٢) يقصد أنهم يشيدون بألقابهم الشرفية .

(٣) التمويل ؛ يقصد به ابن جبير قوله : يا مولاى ، والتسويد يقصد به قوله ياسيدى ، وليس التمويل هنا بمعنى « تقديم المال » كما هو فى العرف الاقتصادى الحاضر . وليس التسويد بمعنى كتابة المسودة أو جعلا فلان سيداً . معناها كما قدمناه آنفاً لديهم .

فأَنت ترى أَن ابن جبير هنا تحول من وَصَّافٍ قديرٍ ، إلى ناقد للأَوضاع التقليدية السائدة يومذاك فى المجتمع الدمشقىّ . وربما كان ذلك ناتجاً من اتصالهم بالغزاة الأَعاجم . . .

كلمات رائدة لصلاح الدين

كلما وجد ابن جبير مناسبة للإشادة بمآثر صلاح الدين ذَكَرَهَا باحتفاءٍ . فقد روى عن أَحد فقهاءِ دمشق وزعمائها حديثاً يذكر فيه لصلاح الدين ثلاث مناقب فى ثلاث كلمات حكاها عنه فى حضرة مَحْفِلِ علماءِ البلد وفقهائه :

إحداها : أَن الْحِلْمَ من سجاياه . . فقد صفح عن جَرِيرَةِ أَحد الْجُنَاةِ عليه فقال : « أَما أَنا فَلأَنْ أُخْطِئَ فى العفو أَحَبُّ إلَىَّ من أَن أَصيبَ فى العقوبة » .

وثانيتها أَنه قال ــ وقد تُنُوشِدَتْ بحضرته الأَشعارُ ، وجرى ذكر من سَلَفَ من أَكارم الملوك ، وأَجْوادهم : « والله لو وُهِبَتِ الدنيا للقاصد الآمل ، لما كنت أَستكثرها له ، ولو استفرغتُ له جميع ما فى خزانتى لما كان عوضاً عما أَراقه من حُرِّ ماءِ وجهه فى استمناحه إياى » .

وثالثتهما ــ أَنه حضره أَحد مماليكه المتميزين لديه بالْحَظْوَةِ والأَثَرَةِ مستعدياً على جَمَّال ذكر أَنه باعه جملًا معيباً ، أَو باعه جملًا بعيب لم يكن فيه . .

فقال السلطان له : (ما عسى أَن أَصنع لك ، وللمسلمين قَاضٍ يحكم بينهم ، والحق الشرعىُّ مبسوط للخاصة والعامة . وأَوامرُه ونواهيه ممتثلةٌ . وإنما أَنا عبد الشرع وشِحْنَتُه ــ الشحنة عندهم صاحب الشرطة ــ فالحق يقضى لك أَو عليك » .

انفصال ابن جبير من دمشق إلى عكة

وفى مساء يوم الخميس خامس جمادى الآخرة ٥٨٠ هـ ـ ٩ شتنبر (سبتمبر) ١١٨٤ م خرج ابن جبير من دمشق إلى عَكَّة ، فى قافلة كبيرة من التجار ، وعند خروجهم شاهد أَمراً عجباً يتمثل فى أَن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج ، وسَبْىُ الإِفرنج يدخل إلى بلاد المسلمين .. وقد شاهد وهو يخرج من دمشق ، أَوائل المسلمين وقد طرقوا بالغنائم ، كلّ بما احتواه وحصلت يده عليه ، وقَدَّرَ السَّبْى الذى فى أَيديهم الآلاف ولم يتحقق ابن جبير إحصاءها . وسار ابن جبير فى طريقه ومر بقرى ، حتى وصل إلى مدينة بانياس .

مدينة بانياس

هى من مدن الشام ، وهى ثغر بلاد المسلمين ، ولها قلعة تحت سورها نهر يُفْضِى إلى أَحد أَبواب المدينة ، وله مصبٌّ تحت أَرْحَاءٍ . وكانت بيد الإِفرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله ، ولها أَرض زراعيَّة خصبة واسعة فى بطحاءَ متصلة يشرف عليها حصن للإِفرنج يسمى « هونين » . وعمالة تلك البطحاءِ بين الإِفرنج والمسلمين ، وهم يقتسمون غلتها على السواءِ ، ومواشيهم مختلفة ، ولا حَيْفَ يجرى بينهما فيها .

وقد بارحها ابن جبير إلى قرية المسية القريبة من حصن للإِفرنج وانتهوا إلى حصن للإِفرنج ، يعرف بتبنين ، تؤخذ به المكوس من القوافل ، وبات ومن معه بأَسفل الحصن ، وأُخذت المكوس المعتدلة من الناس ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصّورية على الرأْس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأَنهم يقصدون مقر الملك الذى هو محل التعشير . والضريبة فيه قيراط من الدينار ، والدينار أَربعة وعشرون

قيراطاً . وقد اعترض الْمُعَشِّرُون على المغاربة ، خاصة ، دون غيرهم ، لما سبق لهم من غزوهم مع نور الدين ، أَحَدَ حصونِ الإفرنج ، فحقدوا عليهم ، فزادوا الضريبة عليهم ، فهى على كل واحد منهم دينار .

ورحل ابن جبير من تبنين فى ضِيَاعٍ متصلة وعمائر منتظمة ؛ كل أَهلها مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة تَرْفِيهٍ . وذلك أَنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أَوان ضَمِّها ، وجزية على كل رأْس ، دينار وخمسة قراريط ، ولا يعترضونهم فى غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أَيضاً . ومساكنهم بأَيديهم ، وجميع أَموالهم ، متروكة لهم . وكل ما بأَيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، والقرى والضِّيَاعُ – ويسميها ابن جبير الرَّساتيق – كلها للمسلمين .

ويُسَجِّلُ ابن جبير هنا ظاهرة سياسية لاحظها وخلاصتها : أَن هؤلاء المسلمين المقيمين بساحل الشام المحتلة بلادهم من الإفرنج قد أُشْرِبُوا حُبَّ الإفرنج بالنسبة لما يبصرون عليه إخوانهم من أَهل الرساتيق التابعين للمسلمين ، فهم فى المعاملة وتحصيل الضرائب على ضد أَحوالهم من الترفيه والرفق . ويعقب ابن جبير على هذه الظاهرة بأَنها « من الفجائع الطارئة على المسلمين » : المتمثلة فى « أَن يَشْتَكِيَ الصِّنْفُ الإسلامىُّ من جَوَر صنفه المالك له .. ويحمدَ سيرة ضِدِّه وعَدُوِّهِ المالك له من الإفرنج ويَأْنَسَ بعدله » وقد عدَّ ابن جبير هذا الوضع فتنة فاستعاذ بالله منها .

ثم وصلوا إلى ضياع عكة على مقدار فرسخ ، ورئيسها الناظر فيها من المسلمين مُقَدَّماً من جهة الإفرنج على من فيها من عُمَّارِها من المسلمين . وقد أَضاف هذا الرئيس جميع أَهل القافلة ضيافة عظيمة ، وأَحضرهم صغيراً وكبيراً فى غرفة متسعة ، بمنزله ، وقَدَّم لهم أَلْوَاناً من الطعام ، وقد حضر ابن جبير هذه الدعوة .

ثم صَبَّحُوا يوم الثلاثاءِ ١٠ جمادى الآخرة ٥٨٠ هـ – ١٨ شتنبر (سبتمبر) ١١٨٤ م مدينة عكة ، وحُمِلُوا إلى الديوان الذى هو « خانٌ » مُعَدٌّ لنزول القافلة ، وأَمام بابه مصاطب مفروشة فيها كُتَّابُ الديوان من النصارى بمحابر الآبنوس[٤] المذهبة الْحُلِيِّ ، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها ، ورئيسهم صاحب الديوان ، والضامن له يعرف بالصاحب. فأَنزل التجار رحالهم بالديوان ، ونزلوا فى أَعلاه ، وطُلِبَ رَحْلُ من لا سلعة له ، لئلا يحتوى على سلعة مخبوءَة فيه ، وأُطْلِقَ سبيلهُ ، فنزل حيث شاءَ. وكل ذلك برفق وتُؤَدَةٍ دون تعنيف ولا حمل .

ويبدو لى أَن هذا الإِجراءَ الْمُتَّئِدَ ، الرفيق فى التفتيش هو أَمر موعز به من المسئولين الكبار من الإِفرنج الحاكمين ، لامتصاص غيظ المسلمين فى احتلال بلادهم . وهو الأَمر الذى تنبَّه له الرحالةُ ابن جبير فاستعاذ بالله من فتنة المسلمين المحتلة بلادهم به . وله كامل الحق فى ذلك الاستنباط . وقد نزل ابن جبير ومن معه فى بيت اكتروه من نصرانية يقع بإِزاءِ البحر .

مدينة عكة

كان وصف ابن جبير لمدينة عكة منسجماً ودقيقاً إلى أَبعد الحدود، ولم يكن وصفه لها من قَبِيلِ الإِنشاءِ المسجع الأَجوف ، وإِن تأَنَّق فيه ، يقول :

---

(٤) فى هذه الفقرات عرفنا ابن جبير بالصفة التى كان عليها كتاب الإفرنج من الصليبيين فى هذه المنطقة المحتلة بهم من ديار الشام كما عرفنا أيضاً بأنهم كانوا يكتبون بالعربية ويتكلمون بها . والصفة المذكورة التى عليها كتابهم هى عربية السمات والواقع ، مما يدل على تغلب مظاهر الحضارة الإسلامية وشمولها حتى إن الإفرنج الغزاة قلدوها عن صراحة . وهذا هو الوضع الذى سار عليه العرب والمسلمون فى عصر الاستعمار الغربى الحديث ، فقد فتن العرب والمسلمون بتقليدهم لا فى دواوينهم فحسب ، وإنما فى جميع مظاهر حياتهم ، فعسى أن ينقشع هذا الضباب ، وتعود المياه إلى مجاريها بعد حلول عهد الاستقلال ، وبعد انحلال عرى الغزو والاحتلال العسكرى الغربى .

(هى قاعدة مُدُنِ الإفرنج فى الشام ، ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام ، مرفأُ كل سفينة ، والمشبهة فى عِظَمِهَا بالقسطنطينية ، مجتمع السفن والرفاق ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق .. سِكَكُها وشوارعها تُغَصُّ بالزحام ، وتضيق فيها مواطىءُ الأَقدام ، تَسْتَعِرُ كفراً وطغياناً ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءَة كلها رجساً وعذرة ، انتزعها الإفرنج من أَيدى المسلمين فى الْعَشْر الْأُوَلِ من المئة السادسة[٥] فبكى لها الإسلام ملءَ جفونه ، وكانت أَحد شجونه ، فعادت مساجدها كنائس ، وصوامعها مضارب للنواقيس ، وطهَّر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأَيدى المسلمين مسجداً صغيراً يجتمع الغرباءُ منهم فيه ، لإقامة فريضة الصلاة .

وكانت مدة إقامة ابن جبير بِعَكَّةَ يومين تَوَجَّهَ بعدهما إلى صُور بيوم الخميس الثانى عشر من جمادى الآخرة والموفى عشرين شتنبر (سبتمبر) المذكور ، وكان توجهه من عكة إلى صُور بَرًّا ، فاجتاز هو وصحبه حصن الزاب وقرية إسكندرونة ، لمشاهدة مركبٍ بحرىٍّ فى الإسكندرونة ذُكِرَ لهم أَنه يتوجه إلى بجاية ، وذلك رغبة منهم فى الركوب فيه . وفى عشيِ يوم الخميس نزلوا بِصُورَ فى خان مُعَدٍّ لنزول المسلمين .

مدينة صور

يبدو لمتأَمل الوصف التالى لمدينة صور أَنها مدينة قُلَّبٌ لا تستقر على حال من القلق ، وليس لها مبدأ تثبت على صعيده .

يقول ابن جبير فى وصفه لها : (مدينة يُضْربُ بها المثل فى الحصانة ،

---

(٥) مما لاحظه كاتب هذه السطور أن ابن جبير لم يذكر صيغة « القرن » فى رحلته وإنما يعبر عنه دائماً بصيغة « المائة » . ولربما كان له الحق فى ذلك لأن القرن يختلف فى تحديد معناه .

لا تُلْقِي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة ، قد أعدها الإفرنج مفزعاً لحادثة زمانهم ، وجعلوها مثابة لِأَمَانِهِمْ ، هى أنظف من عكة ، سِكَكاً وشوارع ، وأهلها أَلْيَنُ فى الكفر طبائع ، وأجرى إلى بِرِّ الغرباء المسلمين شمائل ومنازع ، فخلائقهم أسجح ـ ألطف ـ ومنازلهم أوسع وأفسح ، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن ، وعكة أكبر ، وأطغى وأكفر) .

فابن جبير هنا يُنفِّسُ عن عاطفته الجريح ، باحتلال الصليبيين المديد لمنطقةٍ ذات أهميّة حيوية بالغة للمسلمين قلبوا معالمها الإسلامية إلى معالم مسيحية ، وقفوا على شوكة المسلمين فيها .. وهو يُضَمِّدُ بحديثه جراح بعض ما استقر فى جوانحه من هذا الكرب وهذه الحزقة ، وهذه اللوعة .. ومن عجب أن عكة ـ ونحسن نكتب هذه السطور وبعد نحو ثمانية قرون احتلها الصهاينة بمعونة الاستعماريين الْجُدُدِ ، والصهاينة لا ريب فى أنهم من أسوإ خلق الله أخلاقاً وأحطهم معاملة وضمائر ، فعسى الله أن يعيدها إلى حظيرة الإسلام ، فى قريب الأيام .

عرس إفرنجى فى صور

وَاعِيَةُ ابنِ جبير فى رحلته كالجهاز الْمُصَوِّر التلقائىّ الذى يصور كل شيءٍ يضع أمامه . وعلى هذا نراه يصور بريشته الساحرة كثيراً من الحوادث والمشاهد التى تقع أثناء رحلته . حتى لو كانت خارجة عن مسار الرحلة ، فقد رأيناه ، فيما مضى ، يصف أشياء كثيرة من هذا القبيل ، مثل موكب الخاتونين ، ومثل موكب الأمير « مكثر » فى العمرة الرجبية فى مكة المكرمة . وها هو ذا يستعرض لنا الآن عرس الإفرنج ، فى صُورَ ، ويصفه وصفاً ممتعاً . وقد حدثنا عما دفعه إلى تقييد هذا المنظر فى رحلته بقوله : (فأَدّانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفىّ المستعاذ بالله من الفتنة فيه) .

يقول : (ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها : زفاف عروس شاهدناه بِصُور ، فى أَحد الأَيام عند ميناتها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالًا ونساءًا ، واصطفوا سِمَاطَين ، عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب ، والمزامير وجميع الآلات اللَّهْوِيَّةِ ، حتى خرجت تتهادى بين رَجُلَيْنِ يُمْسِكانها من يمين وشمال ، كأَنهما من ذوى أرحامها ، وهى فى أَبْهى زىّ ، وأَفخر لباس ، تسحب أَذيال الحرير الْمُذَهَّب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأْسها عصابة ذهب قد حُفَّتْ بسبيكة ذهب منسوجة ، وعلى لَبَّتِهَا مِثْلُ ذلك منتظم ، وهى رافلة فى حُلِيِّها وحُلَلِهَا ، تمشى فِتْراً فى فِتْرٍ ، مَشْىَ الحمامة ، أَو سير الغمامة ، نعوذ بالله من فتنة المناظر .. وآمامها جِلَّةُ رجالها من النصارى فى أَفخر ملابسهم البهية تسحب أَذيالها خلفهم ، ووراءها أَكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين فى أَنْفَسِ الملابس ، ويرفلن فى أَرفل الْحُلِيِّ ، والآلاتُ اللهوية قد تَقَدَّمَتْهُمْ ، والمسلمون وسائر النصارى من النُّظَّار قد عادوا فى طريقهم سِمَاطَيْنِ يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أَدخلوها دار بَعْلِها ، وأَقاموا يومهم ذلك فى وليمة) .

هذا وقد عاد ابن جبير من صور إلى عكة ليرحل منها على متن البحر الأَبيض المتوسط فى رحلة شاقة صوب صقلية ومنها إلى غرناطة ؛ مما سَيُتْلَى عليك حديثه إن شاءَ الله بتفصيل ..

قصة احتلال صور وعكة

اعتاد ابن جبير أَن يفصل الأَحداث المهمة تفصيل مؤرخ مُسْتَأْنٍ لا رحَّالَةٍ مستعجل ، ومن ذلك لتلك القصة الدامية التى رواها لنا عن احتلال الصليبيين لصُور وعكة ، فقد روى له أَحد أَشياخ أَهل صور من

المسلمين (أنها أُخِذَتْ منهم سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، وأُخِذَتْ عكة قبلها باثنتى عشرة سنة ، بعد محاصرة طويلة ، وبعد اشتداد المسغبة عليهم فقد ذكر لابن جبير أنهم انتهوا منها لحال يُسْتَعَاذُ بالله منها ، وأنهم حملتهم الأَنَفَةُ على أن يهموا بركوب خطة عصمهم الله منها ، وذلك أنهم عزموا على أن يجمعوا أهاليهم وأبناءهم فى المسجد ، ويحملوا السَّيْف عليهم ، غيرة من تملك النَّصارى لهم ، ثم يخرجوا إلى عدوهم بعزمة نافذة ، ويَصْدِمُوهُمْ صدمة صادقة ، حتى يموتوا على دم واحد ، ويقضى الله قضاءه . فمنعهم من ذلك فقهاؤهم ، والمتورعون منهم ، وأجمعوا على دفع البلد والخروج منه بسلام . فكان ذلك ، وتفرقوا فى بلاد المسلمين . ومنهم من استهواه حبُّ الوطن ، فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم ، بعد أمان كُتِبَ لهم فى ذلك بشروط اشترطوها . والله غالب على أمره ، سبحانه جلت قدرته ، ونفذت فى البريّة مشيئته) .

ولما لم يَرُقْ لفكر ابن جبير ما رُوِىَ له من أن من بين المسلمين الْعَكِّيِّينَ من استهواه حب الوطن فدعاه ذلك للرجوع إلى السكنى بين النصارى – لما لم يرق له هذا الوضع عقب عليه فقال ناقداً من أقدم على ذلك : (وليست له عند الله معذرة فى حلول بلدة من بلاد الكفر إلا مجتازاً ، وهو يجد مندوحة فى بلاد المسلمين ، لمشقات وأهوال يعانيها فى بلادهم ، منها الذلة والمسكنة الذمية .. ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر ما قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير ، وجميع المحرمات إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده) .

ولم يكتف ابن جبير بهذا التعقيب بالنسبة لحاضر أولئك القوم ومستقبلهم المظلم ، تحت نير الاستعمار المسيحىّ الصليبىّ ، فوجه

(تحذيراً) صريحاً إلى العالم الإسلامى عامة وإلى الْعَكِّيِّينَ خاصة بأن لا ينضوى أَحد منهم مهما تَقْسُ عليه الظروف وتُعَاكِسْهُ — تحت نير الاستعمار الغربىّ ، فقال : (فالحذر الحذر من دخول بلادهم ، والله تعالى المسئول حسن الإقالة والمغفرة من هذه الخطيئة التى زلت فيها القدم ، ولم تتداركها إلا بعد موافقة الندم ، وهو سبحانه ولىّ ذلك لا رب غيره) .

* * *

وبعد فها هو ذا ابن جبير يعتبر رضاءَ بعض المسلمين العكيين ضعيفى النفوس بالبقاء تحت طائلة النصارى خطيئةً زلت بها أقدامهم . والقرآن المجيد يؤيِّدُ رَأْيَ ابن جبير فى هذا الشأْن ، فقد قال الله تعالى فى محكم كتابه : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أَنفسهم قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأَرض ، قالوا أَلم تكن أَرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأُولئك مأْواهم جهنم وساءَت مصيراً) — [سورة النساءِ) — الآية ٩٧] .

قصة أخرى يرويها ابن جبير

تمثل هذه القصة بعض الفجائع التى يعانى منها من مُنِى بدخول بلاد النصارى من المسلمين ، فإن أَسْرى المسلمين لديهم يرسفون فى القيود ، ويُصَرَّفُون فى الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأَسيراتُ المسلماتُ كذلك فى أَسْوقِهنَّ خلاخيلُ الحديد ، وتنفطر لهم الأَفئدة ، ولا يغنى الإشفاق عنهم شيئاً . وقد ينشأُ الفرج من الشدة أَو يعقبها . فإِنَّ كثيراً من أَسرى المغاربة الذين يُعْنَى ابن جبير بأَمرهم خاصة ، قد قيَّض الله لهم فى البلاد الشامية المحتلة من يُعْنَى من أَثرياءِ المسلمين الشاميين بإطلاق سراحهم ، وتسديد الفدية فى ذلك .

وكان نور الدين رحمه الله نَذَرَ فى إحدى مَرَضَاتِه أَن يفرق اثنى عشر أَلف دينار فى فداءِ أَسرى المغاربة ، فلما دخل دَوْرَ النقاهة من مرضه ، ذلك ، أَرسل فى فدائهم . كما قيّض اللهُ للمغاربة خاصة رَجُلَيْنِ من أَغنياءِ التجار الكبار ، أَحدهما هو : نصر بن قوام ، والآخر هو أَبو الدُّرّ ياقوت مولى العطافىّ . وتدور تجارة الرجلين كليهما فى هذا الساحل الإفرنجى ، ولهما شهرة مستفيضة به ، ولهما الأُمَنَاءُ من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما . وشأْنهما فى الثراءِ كبير ، وقدرُهما خطير عند أُمراءِ المسلمين والإفرنج ، وقد وفقهما الله ، لافتكاك الأَسْرَى المغربيّين بأَموالهما وأَموال ذوى الوصاية ، فقد كانا المقصودان بها ، لاشتهار أَمانتهما والثقة بهما ، وبذلهما أَموالهما فى هذا السبيل .

سوء الاتفاق

ولقد سبق لنا أَن أَشرنا إلى كراهة ابن جبير من قيام صلات بين أَهل الساحل الشامىّ المسلمين والإفرنج ، وتسهيل الإفرنج لأُمورهم ، بسبب تلك الصلات . .

وكان ابن جبير قد تفرس آنئذ سوءَ مغبة هذه الصلات الْمُرِيبةِ بالنسبة للإفرنج ، والْغَرِيبةِ بالنسبة للمسلمين . وقد صدقت فِرَاسَتُه : فهذا (رجل مغربىٌّ من أَهل « بونة » التابعة لبجاية . كان فى صحبة ركب ابن جبير فى طريقهم من دمشق إلى عكة . وكان قبل ذلك أَسيراً لدى النَّصارى ، وخلَّصه الله من أَسرهم على يدى التاجر أَبى الدُّرِّ ياقوت مولى العطافىّ . وقد بقى فى جملة صبيانه ، ورحل فى قافلة تجارية من قوافله إلى مدينة عكة . وكان فى زمن أَسره قد صحب النصارى ، وتخلَّق بكثير من أَخلاقهم ، فما زال الشيطان يستهويه ويُغريه إلى أَن

نبذ دين الإسلام ، فكفر وتنصّر ، مدّة مقام ابن جبير وصحبه فى صور ، ولما انصرفوا إلى عكة أُعْلِمُوا بخبره ، فقد بُطِس ورجس[٦] ، وعقد الزِّنّار ، واستعجل النار ، وحقّت عليه كلمة العذاب ، وتأهب لسوء الحساب ، وسحيق المآب) .

عود إلى ملك عكة

بَقِيَ ابن جبير ، مَغِيظاً مُحْنَقاً ، من استيلاء الصليبيين على ثغر عكة العظيم ، وقد نفث بعض غيظه هذا على (صاحب عكة) وهو المسمى عندهم بالملك . فحدثنا بأنه محجوب لا يظهر ، وبأنه مصاب بالجذام منذ صباه ، وأن حاجبه ونائبه هو خاله القومس[٧] وهذا القومس هو صاحب الْمَجْبى ، وإليه تُرْفَعُ الأموال . والْمُشْرِفُ على إدارة المدينة كلها بالوكالة والوجاهة ـ هو القومس صاحب طرابلس وطبرية .

ويصف لنا ابن جبير هذا القومس ذا النفوذ الكبير لدى الإفرنج بأنه : (هو الْمُؤَهَّلُ لِلْمُلكِ والْمُرَشَّحُ له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر . وكان أسيراً عند نور الدين نحو اثنتى عشرة سنة أو أزيد ، ثم تخلص من الأسر بمال عظيم ، ويعترف لصلاح الدين بالعبودية والعتق .

بحيرة طبرية

يصف ابن جبير ماءها بأنه (عذب) ويحددها بأن سعتها نحو ثلاثة فراسخ أو أربعة ، وطولها نحو ستة فراسخ) .

---

(٦) بطس بمعنى عمد ، معربة عن الإسبانية ، ورجس من الرجوس وهو القذر والمأثم ، والعمل المؤدى إلى العذاب (القاموس المحيط . مادة رجس) .

(٧) القومس هو الكونت ، وهى كلمة مأخوذة عن الإسبانية . وأصلها فيها قوميز .

ويعطف على ذلك بأن الأقوال فيها مختلفة ، وهذا القول أقربها إلى الصحة . ولما لم يكن تحديده لها علمياً دقيقاً فقد فهمنا من ذلك أنه لم يُعَايِنْهَا .

يمتطي مركباً شراعياً إلى صقلية

كانت رحلةُ ابن جبير ، البحريةُ هذه رحلةً محفوفة بالمتاعب والمصاعب والمخاطر ، . . ولكنه تمكن من أن يصور لنا بريشته « الشاعرة » وبدقة متناهية كل ما تعرض له مركبهُم ورُكَّابُهُ من أهوال البحر من عواصف ، وأمواج هائلة . وتأثير ذلك على المركب وركابه تأثيراً بالغاً حتى وصل الحال آخر الأمر إلى تهشم المركب وحَطم شراعه وصواريه . ومن أراد استقصاء هذه الأحوال المفزعة فعليه بمراجعة نصوص الرحلة ، ونحن هنا سنوجز ذلك إيجازاً لا يخلّ ولا يُمِلّ فنقول :

فى يوم السبت ٢٣ جمادى الآخرة ٥٨٠ هـ ـ ٦ أكتوبر ١١٨٤ م صعد ابن جبير ورفاقه إلى مركب شراعىّ أجنبىّ كبير ، قاصدين الأندلس عبر جزيرة صقلية . وكان فى المركب من النصارى البلغاريين ـ أى الحجاج والزوار من النصارى ـ ما يزيد عن ألفى إنسان ، وقد ظل المركب واقفاً بهم سبعة أيام ، وقد طال انتظارهم الريح الشرقية الموافقة لاتجاههم ، فهى وحدها التى بوسعها أن تسوق المركب صوب المغرب ، الذى يقصدونه وقد أَهَلَّ عليهم شهر رجب وهم ماكثون بمكانهم على ظهر المركب بِمُرسَى عَكَّةَ فى انتظار إكمال وَسْقِهِ ـ أى حَمْلِهِ ، والإقلاع ـ وقد تمادى مكثهم به واقفاً مدة اثنى عشر يوماً .

جغرافية الريح الشرقية والغربية

كما خرج ابن جبير سابقاً عن منهج الرَّحَّالِينَ إلى مسلك المؤرخين

نراه الآن يقوم بدور العالم الطبيعيّ فيشرح لنا شرحاً علمياً دقيقاً سر تأثير هبوب الرياح المختلفة على السفن المغادرة لصقلية والآيبة إليها فيقول : (وفى مهب الريح بهذه الجهات سر عجيب ، وذلك أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلّا فى فصلى الربيع والخريف ، والسفرُ لا يكون إلّا فيهما ، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلّا فى هذين الفصلين ، والسفرُ فى الفصل الربيعىّ من نصف إبريل ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، وتطول مدتها إلى آخر شهر مايو ، وأَكْثَرَ وأَقَلَّ بحسب ما يقضى الله تعالى به . والسفرُ فى الفصل الخريفىّ من نصف أُكتوبر ، وفيه تتحرك الريح الشرقية ، ومدتها أَقصر من المدة الربيعية . وإنما هى عندهم خلسة من الزمان ، وقد تكون خمسة عشر يوماً وأَكثر وأَقل ، وما سوى ذلك من الزمان ، فالرياح فيه تختلف ، والريح الغربية أَكثر دواماً ، فالمسافرون إلى المغرب وإلى صقلية وإلى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية فى هذين الفصلين انتظار وعد صادق) . وصف طبيعى دقيق لجغرافية الرياح التى تهب من الشرق والغرب هنالك.

هذا وفى سحر يوم الخميس العاشر من رجب ـ الثامن عشر من أُكتوبر ، أَذن الله بإقلاع مركبهم من الميناءِ ، وكان ابن جبير ومن معه ـ لسوء الحظ ـ بائتين فى البر على عادتهم ، وحينما طلع الصباح عليهم كان المركب قد أُسرى ليلًا فبادروا إلى استئجار (زورق كبير) ذى أَربعة (مجاديف) وتبعوا به مركبهم الْمُصْعِدَ فى البحر .

وفى العشىّ أَدركوا ذلك المركب ، فدخلوا فيه ، واستبشروا بهذا التوفيق ، وسار بهم تسوقه الريح الشرقية الملائمة نحو خمسة أيام . ثم أَخذت الريح الغربية المعاكسة تَهُبُّ فى وجه مركبهم هذا وتصدمه ، وترجع به القهقرى ، وكان من حسن حظ الركاب أَن ريسَ المركب

الرومىِّ الْجَنَوِىِّ كان ذا مهارة وتجربة فى الرئاسة البحرية ، فصار يراوغ الريح المعترضة يميناً وشمالاً ، لعله يخلص من معاكستها ومشاكستها وينفذ إلى طريق النجاح والنجاة .

ولكنه فى ليلة السبت ١٩ رجب - ٢٧ أُكتوبر هبت عليهم الريح الغربية ، بشدة ، فقصفت (قُرَيَّةَ الصَّارِى)[٨] المعروف بالأَرْدَمُونِ ، وألقت نصفها فى البحر مع الشراع المتصل بهما ، وحماهم الله من أن تقع داخل المركب ، إذ لو وقعت فيه فلربما أغرقته ، لضخامتها وثقلها ، فتبادر البحريون إليها ، وحُطَّ شراع الصارى الكبير ، وعُطِّلَ المركب عن جريه ، وصِيحَ بالبحريِّين الملازمين لزورق النجاة الذى سماه ابن جبير باسم (العشارى) وكان مربوطاً على المركب ، فأخرجوا نصف الخشبة الساقطة فى البحر مع الشراع المرتبط فيها ، وكشر لهم الخطر عن نابه ، وشرع البحريون فى رفع الشراع الكبير ، وأقاموا فى الأَردمون شراعاً أَصغر يعرف بالدُّلُونِ ، وبات الرُّكَّابُ ليلتئذ داخل المركب ، وَجِلِينَ مذعورين حتى وضح الصباح ، وقد شكروا لله تعالى أَنْ مَنَّ عليهم بالسلامة من تلك الليلة اللَّيلاءِ .. وقد أَقبل البحريون على إصلاح قُرَيَّةٍ أُخرى كانت احتياطية ، ولم تزل الريح فى أَول لَجَاجِها . والركاب المساكين مستسلمون لقضاءِ الله وقدره ، وهم بين حالتى اليأْس والرجاءِ ، ولكنهم يُغَلِّبُونَ حسن الظن والثقة بالله تعالى على اليأْس المحيطة بهم أَسبابه من كل جانب .

ثم نفحت نسمات الفرج سفينتهم ، فإذا بالريح الشرقية تهبّ عليهم من جديد ، وتسوق سفينتهم إلى الأَمام ، ثم غَشِىَ البحرَ ضبابٌ

---

(٨) القرية تصغير قرية هى : عود الشراع الذى يجعل فى عرضه من أعلاه .

رقيق سكنت له أَمواجه ، فعاد كأَنه صرح ممرّد[٩] من قوارير ، فبقيت سفينتهم لاعبة على صفحة الماءِ الذى تخاله الْعَيْنُ سبيكةَ لُجَيْنٍ ، حتى لكأَنهم كانوا يتحركون بين سماءَين .

يقول ابن جُبير : إن (هذا الهواءَ هو الذى يسميه البحريون الغلينى)[١٠].

احتفال للنصارى فى عرض البحر

وصف لنا ابن جبير احتفالاً أَقامه النصارى فى البحر بمناسبة عيدٍ لهم فى أَول يوم من نوفمبر[١١]، وقد أَسرجوا فيه الشموع ، وحمل كل واحد منهم شمعة سواءٌ أَكان صغيراً أَم كبيراً ، ذكراً أَم أُنثى ، وتقدم قسيسوهم ، للصلاة فى المركب بهم ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركبُ يزهر كله أَعلاه وأَسْفَله سُرُجاً متقدة) .

ثم تحركت ريح شمالية فعاد المركب لِجَرْيَتِه ، فاستبشرت النفوس ، وقد دخل عليهم شهر شعبان ، وهم فى عرض البحر مضى عليهم فيه اثنان وعشرون يوماً . ويحدثنا ابن جبير ، عمّا لحق بهم من اليأْس والقنوط ، وفقد الأَنس . وقد مات فى البحر رجلان من المسلمين فَقُذِفَا فى البحر ، ومات اثنان من البلغاريين أَيضاً ، ومات منهم بعد ذلك خلق كثير ، وورث هؤلاءِ الأَمواتَ من المسلمين والنصارى رئيسُ المركب ، لأَن من نظامهم مايقضى بأَن يرث هذا الرئيس كل من مات فى مركبه أَيًّا كان لونه أَو جنسه أَو دينه .

وفى سادس شعبان ظهرت لهم جبال فى البحر ، واشتدت الريح

(٩) ممرد : مصقول .

(١٠) الغلينى : هو الهواء الساكن ، وهى معربة .

(١١) لم يسم لنا ابن جبير هذا العيد . وإن كان ذكر وقت إقامته يسهل معرفة اسمه على الباحث المعتنى .

الغربية فألجأتهم لأحد تلك الجبال ، وهو من جزائر الرُّمَّانِيَّةِ التى تُنِيفُ على ثلاثمائة وخمسين جزيرة ، يَحْذَرُ الرومُ أَهلَها كحذر المسلمين لهم إذ لا صلح بينهم .

وفى يوم ٢٨ شعبان ظهر لهم بَعْدَهُ بَرُّ جزيرة (إقريطش) – كريد – رَتَبْعُ صاحبَ القسطنطينية ، يومئذ . ويزيد طولها على (٣٠٠) ميل ، وقد تقدم ذكرها فى الرحلة البحرية لابن جبير صوب الإسكندرية ، حينما كان قادماً من بلده غرناطة ، إلى مكة ، لأداء فريضة الحج . ثم ثارت الريحُ الشَّمالِيَّةُ ، عاشر شعبان ، وانقطع عنهم بر الجزيرة المذكورة . وكانت تجرى بهم ريح شمالية موافقة ، فَذَئِرَتْ – وهذه عبارة ابن جبير ويقصد بها أنها هاجت وعصفت ، فطار لها المركب بِجَنَاحَىْ شِراعه – وقد جُنَّ بها البحرُ واستشرى لجاجه ، وقَذَفَتْ بالزَّبد أمواجه ، فتخال غواربه المتموجة ، جبالًا مُثَلَّجَةً ، ومع تلك استشعرت النفوس الأُنس ، وغلب رجاؤها اليأْس . ويحدثنا ابن جبير عن حالتهم الغذائية والنفسية فيقول : (قد كنا مدة الستة والعشرين يوماً المذكورة التى لم يظهر لنا فيها بَرٌّ ، نرجم الظنون وننازل المنون ، حذراً من نفاد الزاد والماء ، والحصول بين الْمُهْلِكَيْنِ : الجوعِ والظمإ) ، وقد ظلوا على سَيْرِهم ذلك وهم يتطلعون إلى البشرى بظهور بَرِّ صقلية عما قريب إن شاءَ الله .

الرياح العاصفة الغربية

وفى ليلة الأَحد ١١ شعبان بلغت الأَزمة البحرية القمة ، فقد انقلبت الريح غربية عاصفة أَخذت بهم جهة الشَّمال ، وأَصبحوا يوم الأَحد المذكور والهول يزداد ، والبحر قد هاج هائجه ، وماج مائجه ، فرمى بموج كالجبال ، يصدم المركب صدمات يتقلب لها على عِظَمِهِ تقلب الغصن

الرطيب ، وكان كالسور عُلُوًّا فيرتفع له الموج ارتفاعاً يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب ، فلما جَنَّ الليلُ اشتد تلاطمُه ، وصكَّت الآذانَ غَمَاغِمُهُ ، واستشرى عصوف الريح ، وحُطَّت الشُّرُع ، واقْتُصِرَ على الدَّلالين[١٢] الصغار ، دون أَنْصافِ الصوارى ، ووقع اليأْس من الدنيا ، وودعوا الحياة بسلام ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أَنهم قد أُحيط بهم ، فيالها من ليلة يشيب لها سُودُ الذوائب ، مذكورة فى ليالى الشوائب ، مقدَّمة فى تعداد الحوادث والنوائب ، وكانوا منها فى مثل « ليل صول طولًا [١٣] » وقد أَصبحوا ولم يكادوا ، فكان من الاتفاقات الموحشة أَن أَبصروا بَرَّ إقريطش عن يسارهم ، وجِبَالَهُ قد قامت أَمامهم ، وكانوا قد خَلَّفُوهُ عن يمينهم ، فأَسقطتهم الريح عن مجراهم ، وهم يظنون أَنهم قدجازوه ، فسقط فى أَيديهم وخالفوا المجرى المعهود الميمون ، وهو أَن يكون الْبر المذكور على يمينهم فى استقبال صقلية ، فاستسلموا للقدر ، وتجرعوا غصص هذا الكدر ، وقالوا فى أَنفسهم :

سَيَكُونُ الَّذِى قُضِى سَخِطَ الْعَبْدُ أَوْ رَضِى

الفرج بعد الشدة

ويقول ابن جبير عقب وصفه الأَدبى ذلك لما قَاسَوْهُ من مصاعب البحر الأَبيض المتوسط وأَهوال أَمواجه العاتية ، ورياحه العاصفة القاصفة :

(وفى أَثناءِ ذلك انبسطت الشمس ، ولان البحر قليلًا ، وساعدت

---

(١٢) جمع دلون ، وهو الشراع الصغير كما سبق بيانه .

(١٣) هذا مثل منتزع من قول جندح المرى : على ما رواه ياقوت فى مادة صور فى « معجم البلدان » .

فى ليل صول تناهى العرض والطول كأنما صبحه فى الصبح موصول

« وصول » بلدينسب إليه الصولى .

الريح عند استقبال البر ، بعض مساعدة ، ثم عدنا إلى قريب من المجرى المقصود ، وجرينا بعض ليلة الثلاثاء ١٣ شعبان ، وقد تم لنا على ظهر المركب ٣٤ يوماً ، والشُّرُعُ مُصَلَّبَةٌ(١٤) ، وهو عندهم أعدل جَرْيٍ ، لأَنه لا يكون إلَّا بالريح التى تتلقى مؤخر المركب ، فى مجراه ، فأَصبحنا يوم الثلاثاء المذكور فى مثل تلك الحال ، وساعدت الريح ، ففرحنا وسررنا ، وطلعت علينا مراكب ، قاصدة مقصدنا ، فاستبشرنا بها ، وعلمنا أَنَّا على مجرى مقصود .

ترح بعد فرح

وسرعان ما تغيَّر الحال ، من فرح غامر ، إلى ترح شديد ، ومن تفاؤل واستبشار إلى تشاؤم وقلق .. والباعث على هذا الانقلاب النفسيّ هو انقلاب الريح، من ريح شرقية مواتية ، إلى ريح غربية عاصفة .. ولندع الرحالة ابن جبير يحدثنا بقصة ما حدث لهم فى هذا الشأْن .

يقول : (ثم انقلبت الريح غربية ، وهبت عاصفاً ، فأَلجأَتنا اضطراراً ، بعد أَن جرت لنا بعض ليلة الأَربعاء ، ويوم الأَربعاء إلى مُرْسىً من مراسى جزائر الرمانيّة) .

(وفى هذا المُرْسَى كمل لنا على ظهر البحر أَربعون يوماً .. ومدَّة مقامنا بالمرسى لم يفتر عصوف الريح الغربية ، وعادت أَشد ما تكون هبوباً ، فحمدنا الله تعالى ، على أَن لم تأْخذنا ونحن على ظهر البحر جارين) .

ويمضى بنا ابن جبير فى تسجيل آثار أَحداث البحر ، وآثار أَحداث الريح على سفينتهم الشراعية .. فيذكر لنا أَنهم نعموا أَربعة أَيام بريح

---

(١٤) أى : موضوعة على شكل صليب حيث تمتلىء بالريح ، فتسير مسرعة .

طيبة موافقة ، وأنهم استبشروا بها ، ولكن هذه الريح الطيبة الموافقة سرعان ما اختفى كل أثر لها ، وحل محلها الريح الغربية المضادة : (وأنشأت سحابة فيها رعد قاصف ، وزَجَّتْها ريح عاصف ، وتقدمها برق خاطف ، فأرسلت حاصباً من الْبَرَدِ صَبَّتْهُ علينا فى المركب شآبيبَ متداركة ، فارتاعت له النفوس ، ثم أسرع انقشاعها ، وانجلى عن الأنفس ارتياعها ، وبتنا ليلة الجمعة مبيت وحشة ، وطَالَعَنَا بها اليأْسُ من مكمنه ، فلما أسفر الصبح ، وطلع النهار أبصرْنا بَرَّ صقلية لائحاً أمامنا ، فيالها بشرى ومسرة ، لو لم تعد حسرة فى كرة . فأمسينا ليلة السبت ، وهو أول يوم من دجنبر (ديسمبر) ونحن على إدراكه فى أقل من ثلثها أو منتصفها . . ولكل أجل كتاب وميقات ، وكم أَمَلٍ تَعْرُضُ دونه الآفاتُ ، فما كان إلَّا كلا ولا [١٥] حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب ، وحالت بين الأبصار والارتقاب ، وما زالت تعصف ، حتى كادت تنسف وتقصف ، وحُطَّتِ الشُّرُع عن صواريها ، واستسلمت النفوس لباريها ، وتركنا بين السفينة ومُجرِيهاَ ، وتتابعت علينا عَوارِضُ دِيَمٍ ، حصلنا منها ومن الليل والبحر فى ثلاث ظُلَمٍ ، وعباب الموج تتوالى صدماته ، وتُطْفِرُ الألبابَ رجفاتُه . فنبذت نفوسنا كل أُمنية ، وتأهبت للقاء المنية) .

ليلة ليلاء ، ويوم عصيب

تفاقمت الأهوال وتأزمت الحال على هذا المركب ورُكَّابِه ، بصفة أخطر مما سبق ، حتى كادت القلوب تبلغ الحناجر . فلندع ابن جبير

(١٥) « كلا ولا » من عبارات ابن جبير يقصد بها شدة قصر المسافة بين حادثين . وقد عثرنا على استعمالها حديثاً بالمغرب العربى فى مقال للأستاذ عبد الله كنون نشره فى مجلة (دعوة الحق) المغربية بالعدد الصادر فى شوال ١٣٩٥هـ — ١٩٧٥م قال : (فلم يكن إلا كلا ولا ، وإذا الحسن الثانى يواجه العالم بأعجوبة المسيرة الخضراء) .

يرسم بريشته الساحرة ، صورة هذا الموقف الرهيب ، يقول : (وقطعنا هذه الليلة البهماءَ فى مصادمة أهوال ، ومكابدة أَوجال ، ومقاساة أَحوال ، يالها من أَحوال ! ثم أَصبحنا يوم السبت ليوم عصيب ، أَخذ من هول ليلته بأَوفر نصيب ، والأَمواج والرياح تترامى بنا حيث شاءَت ، وقد استسلمنا للقضاءِ ، وتمسكنا بأَسباب الرجاءِ) .

عودة طائر الأمل

بعد أَن مرت هذه العاصفة الشديدة الوقع على نفوسهم تداركهم الله بلطفه .. وفى هذا يقول ابن جبير ما نصه : (ثم تَدَارَكَنَا صُنْعُ الله تعالى مع المساء ، ففترت الريح ، وَلَانَ مَتنُ البحر ، وأَسفر وجه الجو ، وأَصبحنا يوم الأَحد ثانى دجمبر ، الخامس والعشرين لشعبان ، وقد بُدِّلَ من الخوف الأَمان . وتطلعت الوجوه كأَنها انتشرت من الأَكفان ، وساعدت الريح بعض مساعدة ، فعدنا نطلب من الْبَرِّ أَثراً بعد عين ، ونرجم الظنون بين متى وأَين ، والله عز وجل لطيف بعباده ، وكفيل بمعهود صنعه الجميل ومعتاده ، لا رب سواه) .

* * *

وبعد ، فما أَروع الأَوصاف التى أَضفاها ابن جبير على هذا الجانب المضطرب الرهيب من رحلته . إن بيانه فى هذا المجال ليمثل نتاج ريشة فنَّان ماهر يرسم على لوح صقيل ، مناظر شتى متآلفة متناقضة متعددة الجوانب والسمات ، فهو يضع لكل منظر ما يناسبه من الأَلوان فى موضعه الخاص ، ويُحَمِّلُهُ ما تموج به عواطفه من سرور وغبطة ، وأَلم وأَمل ، وهمّ وغمّ ، وانقباض وانشراح .. وهذا البيان المبدع هو إحدى السمات البارزة التى امتاز بها كتاب رحلة ابن جبير بين أَسفار الرحلات العربية الأُخريات .

فى سابع دجنبر (ديسمبر) رأينا مركب ابن جبير وصحبه يسير رويداً بإِزاءِ الأَرض الكبيرة على متن البحر وقد ساقته ريح شرقية فاترة الْمَهَبِّ ، فسارت به سيراً وئيداً حتى اقترب من مدينة (قلُّورية – كلابريا – التابعة إداريًّا لجزيرة صقلية ، وتعد من الأَرض الكبيرة – أُوروبة – وقد نزل بعض الركاب إلى الْبَرِّ وأَخذوا بعض ما يلزمهم من زاد . وفى مستهل شهر رمضان ٥٨٠ هـ استطلعوا – وَهُمْ على ظهر البحر – أَهِلَّة ثلاثةِ أَشهرٍ : هلَال رجب ، وهلالَ شعبان ، وهلَالَ رمضان .

جبل النار

فى مستهل شهر رمضان مع الصباح أَبصروا أَمامهم جبل النار ، وهو جبل البركان المشهور بصقلية ، وقد استبشروا بذلك ، وقد حركتهم من ذلك الموضع ريح موافقة ، ولكنها اشتد هبوبها ثانى يوم ، وزَجَّتِ المركب تزجية سريعة ، فما هى إلَّا مدة وجيزة ، حتى وقفت بهم فى أَول المضيق « مضيق مَسِّينَة » والليل قد جَنَّ .

وكدأْب ابن جبير نراه يصف لنا هذا المضيق بقوله :

(وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أَميال . وأَضيق موضع فيه ثلاثة أَميال ، يعترض من بَرِّ الأَرض الكبيرة إلى جزيرة برّ صقلية ويَنْصَبُّ البحر فى هذا المضيق انصباب سيل العرم ، ويغلى غليان المرجل ، لشدة انحصاره وانضغاطه . وشَقُّهُ صَعْبٌ على المراكب . وقد استمر مركبهم فى سيره السريع تسوقه الريح الجنوبية سوقاً عنيفاً ، وَبَرُّ الأَرض الكبيرة يلوح عن يمينهم ، وبَرُّ صقلية عن يسارهم .

فى منتصف ليلة الأَحد ٣ رمضان ٥٨٠ هـ ، شارف مركبهم مدينة مَسِّينَة ، إحدى مُدُنِ جزيرة صِقِلِّيَّة ، ولم يلبثوا أن داهمتهم زعقات البحريين ، لأَن الريح قد أَمالت المركب إلى أَحد الْبَرَّيْنِ ، وهو ضارب فيه ، وعندما علم رُبَّان المركب بجنوحه إلى البر ، أَمر بإِنزال الشُّرُعِ فى الحين ، فلم يَنْحَطَّ شراع الصارى الكبير المعروف بالأَردمون ، ومع شدة معالجتهم له لكى ينزلوه لم يتمكنوا من ذلك لشدة ذهاب الريح به ، ولما أَعجزهم إنزاله مزقه الرائس ربان المركب بالسكين قِطَعاً قِطَعاً ، أَمَلًا فى توقيفه ، وفى أَثناءِ هذه المحاولة المخْفِقَة سنح[16] المركب كله على البر ، والتقاه بسكَّانيه ، وهما رِجْلَاهُ اللتان يُصَرَّفُ بهما ، وقامت الصيحة الكبرى الهائلة فى المركب ، فقد جاءَتهم الطامة الكبرى ، والصدعة الهائلة التى لم يطيقوا لها جبراً ، والقارعة الصمَّاءُ التى لم تدع لهم صبراً ، والْتَدَمَ النصارى الْتِدَاماً ، واستسلمَ المسلمون لقضاءِ ربهم استسلاماً .

وتداولت الريح والأَمواج صفع المركب حتى تكسرت رجله الواحدة ، فأَلقى الرائس أَحد مراسيه ، ليمسك به ، فلم يفد شيئاً ، فقطع حبله ، وتركه فى البحر يسير على غير هُدًى .

يقول ابن جبير – وهو يصف لنا شعورهم فى ذلك الظَّرْفِ الْحَرِجِ : (فلما تحققنا أَنها هِىَ ، قمنا فشددنا للموت حيازيمنا[17] ، وأَمضينا على الصبر الجميل عزائمنا ، وأقمنا نرتقب الصباح ، أَو الْحَيْنَ الْمُتاح ، وقد علا الصياح ، وارتفع الصراخ من أَطفال الروم ونسائهم) .

---

(١٦) لصق بالأرض .

(١٧) صدورنا .

كان ذلك وهم يبصرون الْبَرَّ قريباً منهم فهم مترددون بين أَن يلقوا بأَنفسهم إليه سابحين ، أَو ينتظروا فرجاً من الله يطلع عليهم فى الصباح ، فآثروا الثبات فى مركبهم ، وقام البحريُّون الْجَنَوِيُّونَ بضمّ العشارى ، لإخراج الْمُهِمِّ من رجالهم ونسائهم وأَسبابهم .. فساروا به إلى البر دفعة واحدة ، ولم يستطيعوا رده ، وقذفه الموج مُكَسَّراً على ظهر البر ، وحينئذ تمكن اليأْس من النفوس ، فما أَسفر الصبح بوجهه المشرق المنير حتى استبشروا بهذا الإسفار ، فهذه مدينة مَسِّينَةَ أَمامهم على مسافة تقل عن نصف الميل ، ومع هذا القرب القريب فقد حيل بينهم وبينها ..

الزوارق المغيثة

وتمكن الشروق فجاءتهم الزوارق مغيثة لهم ، وحدثت الصَّيحة فى المدينة ، فخرج ملك صقلية (غُلْيَام) بنفسه فى جملة من رجاله مستطلعاً لتلك الحال ، وبادَر رُكَّاب السفينة اليائسون الهلعون ، إلى النزول فى الزوارق ، والأَمواجُ بشدتها ، لا تمكنها من الوصول إلى المركب ، فكان نزولهم فيها خاتمة الهول العظيم .. وهكذا أَنجاهم الله إلى البر بعد معاناة كاربة مرهقة .

عطف ملك صقلية على فقراء المسلمين بالمركب

ولقد أُعْجِبَ ابن جبير ، بعاطفة الملك غليام(١٨) الإنسانية فلم يستطع كتمان أمرها على حنق منه عليه مستقر فى فؤاده لا يريم عنه حولًا ، فقد أَبصر فقراء من المسلمين يتطلعون من المركب ولا شىء فى أَيديهم

(١٨) غليام : هو الملك غليام الثانى الذى حكم جزيرة صقلية من سنة ١١٦٦ م إلى سنة ١١٨٩ م ويسميه ابن جبير باسم غليام . وسماه غيره غليالم . راجع الصفحة ١٤٥ من كتاب العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس .

يُمَكِّنُهُمْ من النزول فى الزوارق ، وبخاصّةٍ أن أَصحابها أَغْلَوْا على الناس فى تخليصهم ، فسأَل الملك عنهم فَأُعْلِمَ بقصتهم ، فأَمر لهم بمائة رباعىّ من سِكَّتهِ ، ينزلون بها ، وخلَّص جميع المسلمين عن سلام .

تفريغ المركب

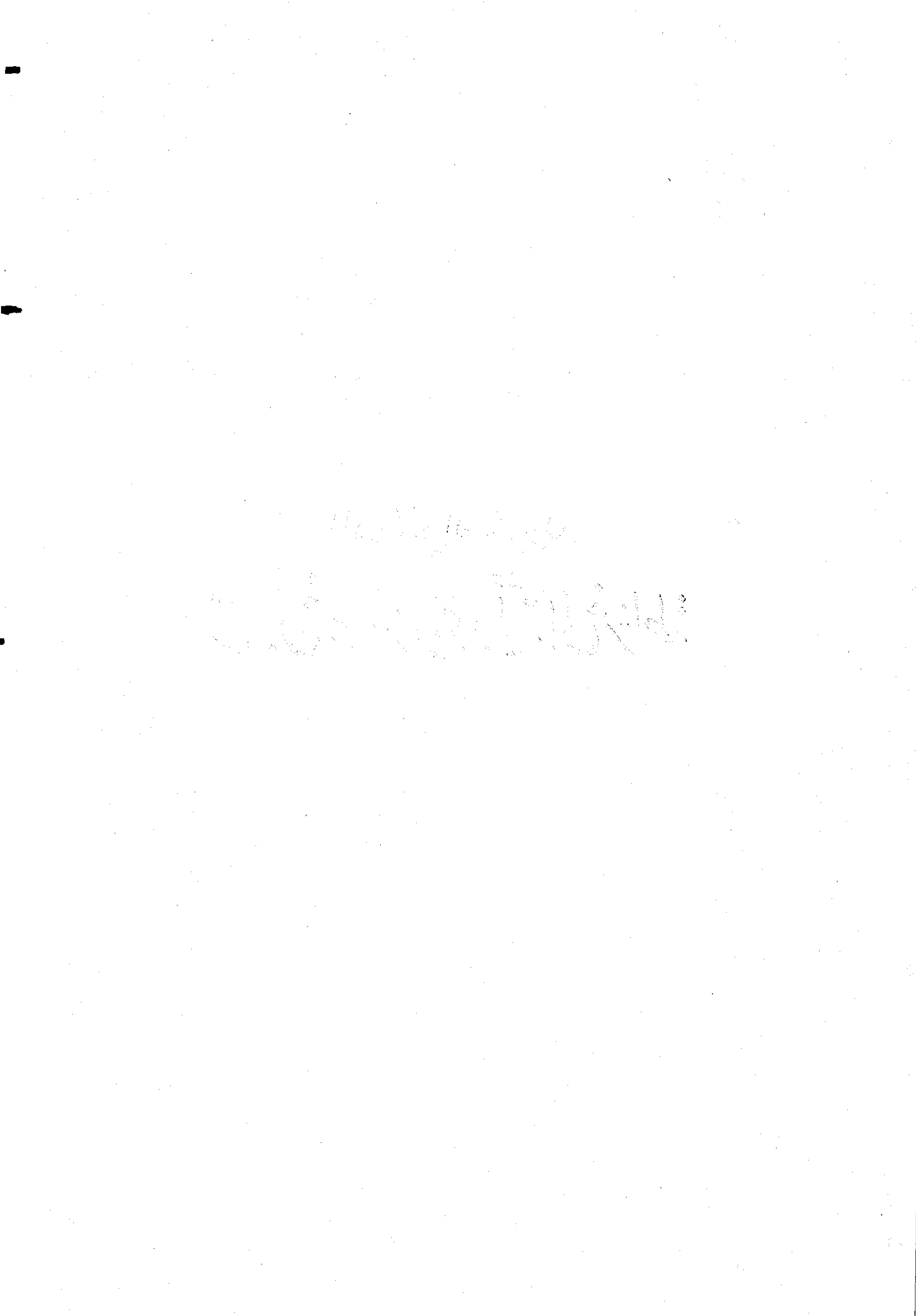
ولم يغفل ابن جبير عن أن يحدثنا بأَن النصارى أَصحاب المركب ، لم يتركوا شيئاً مما كان لهم فيه ، من سلع وأَمتعة وغيرها . لقد أَفْرَغُوهُ من جميع ما كان فيه من ذلك ، فأَصبح خاوياً فى اليوم الثانى ، وقد أَحالته الأَمواج جُذَاذاً ، ورمت به إلى البر أَفلاذاً ، فعاد عبرة للناظرين ، وآية للمتوسمين ، فارتفعت درجة التعجب لديهم ، من سلامتهم من هذا المركب وما أَحاط به وبهم من أَهوال قاتمة . .

وجود الملك فى مسينة

سَجَّل لنا ابن جبير أَنَّ من جملة صنع الله عزَّ وجل لهم ولطفه بهم فى هذه الحادثة كون هذا الملك الرومىّ حاضراً فيها – فى مسّينة – ساعة وصولهم إلى ساحلها ، ولولا ذلك لَانْتُهِبَ جميعُ ما فى المركب انتهاباً ، وربما كان يُسْتَعْبَدُ من كان فى المركب من المسلمين ، لأَن العادة جرت لهم بذلك . وكان وصول هذا الملك لهذه البلاد – كما حدثنا ابن جبير – بسبب أَسطوله الذى ينشؤه ، رحمة لمن كانوا فى المركب جميعاً ، ومنهم صاحبنا ابن جبير ورفقاؤه من المسلمين . وهكذا نشأَ الفرح من الترح ، والسرور من الحزن ، والفرج من الشدة ، والخير من الشر بقدرة القادر الحكيم .

الفصل العشرون

مع ابن جُبَير من صِقِلِّيَّة إلى غرناطة



مدينة مَسِّينَةَ كانت أول مدينة من جزيرة صقلية طرقتها أقدامُ ابن جبير فى رحلة عودته إلى وطنه . وقد وصفها وصفاً يتلاءم مع عظمة عُمْرانها ، وكثرة ورَّادها والصادرين منها ، فقال :

(هذه المدينة موسم تجار الكفار ، ومقصد جوارى البحر من جميع الأَقطار) . ومعنى هذا الكلام أَن مدينة مسّينَةَ كانت إبّان قدوم ابن جبير إليها ، مزدهرة العمران ، حفيلة التجارة ، مملوءة بالبضائع المجلوبة إليها من مختلف الأَقطار ، على الجوارى المنشآت فى البحر كالأَعلام ، ويضيف ابن جبير إلى ذلك الوصف ، وصفاً يفيد برخاءِ الأَسعار فيها . . ولكنها مظلمة الآفاق فى نظر ابن جبير ، بالنسبة للمسلمين ، لأَن أَهلها من النصارى المتعصبين جدًّا ، لا يميلون إلى مساكنتهم فيها ، وهى (مشحونة بعبـــدة الصلبان ، تغص بقاطنيهـــا ، وتكاد تضيق ذرعاً بساكنيها منهم) .

ولعل من بواعث اتجاه الكثير من السُّفن إليها قرب مُرساها من البر ، يقول ابن جبير فى هذا : (ومرساها أَعجب مراسى البلاد البحرية ، لأَن المراكب تدنو فيه من البر ، حتى تكاد تمسه ، وتُنْصَبُ منها إلى البر خَشَبَةٌ يُتَصرَّف عليها ، فالْحَمَّالُ يصعد بِحِمْلِه إليها ، ولا يحتاج لزوارق فى وَسْقِهَا ــ أَى فى حملها ــ ولا تصريفها مُرْسِياً على البعد منها يسيراً ، فتراها مصطفة مع البر كاصطفاف الجياد فى مرابطها واصطبلاتها ، وذلك لفرط عمق البحر فيها ، وهو زقاق معترض بينها وبين الأَرض الكبيرة ، بمقدار ثلاثة أَميال ، ويقابلها منه بلدة تعرف بِرِيَّةَ ، وهى وهى عِمَالة كبيرة . وهذه المدينة : مَسِّيَنَةُ ، رأْس جزيرة صِقِلِّيَّةَ .

كتاب « رحلة ابن جبير » كتاب يستعرض فيه صاحبها بدون ترتيب جغرافى، كلّ ما سنح له من مشاهد وخواطر وآراء . ويجد دارسه كثيراً من المتعة فى قراءة هذا الفيض غير المرتب من الفوائد والأنباء والأَحداث والآراء، وها هو ذا يصف لنا جزيرة صقلية بعد وصفه لمدينة مسِّينة . ومسّينة جزءٌ من الجزيرة وليست هى العاصمة، ولكنه قدم التعريف بها وأَخَّر بعده التعريفَ بالجزيرة الْأُمِّ فقال : (وطول هذه الجزيرة : صقلية ، سبعة أَيام ، وعرضها مسيرة خمسة أَيام ، وبها جبل البركان المذكور ، وهو يَأْتَزِرُ بالسُّحُب ، لإفراطِ سموه ، ويَعْتَمُّ بالثلج شتاءًا وصيفاً دائماً . وخصب هذه الجزيرة أَكثر من أَن يوصف، وكفى بأَنها ابنة الأَندلس ، فى سعة العمارة ، وكثرة الخصب والرفاهة ، مشحونة بالأَرزاق على اختلافها ، مملوءَة بأَنواع الفواكه وأَصنافها) .

هذا هو الوصف الجغرافى لجزيرة صِقِلِّيَّةَ كما شاهدها رحالتنا ابن جبير فى أَواخر القرن السادس الهجرى ، ولأَن من عادة ابن جبير التَّعَمُّقَ فى وصف مشاهداته وملاحظاته فى كثير من الأَحيان ، وبخاصة حيال ما يهمه التعمق فيه ، أَو إزاءَ ما يزمع أَن يبنى عليه الجسور التى يراد منها أَن تربط ما بين المسلمين المقيمين فى المنطقة التى يتحدث عنها ، وبين إخوتهم المسلمين خارجها ـ فلهذا السبب نراه يعرج على الحالة السياسية لهذه الجزيرة فيمعن فى تصويرها تصويراً متسماً بالدقة والشمول، فيقول : (لكنها معمورة بِعَبَدَةِ الصُّلْبَان ، يمشون فى مناكبها ، ويرتعون فى أَكنافها ، والمسلمون معهم على أَملاكهم وضياعهم ، قد حَسَّنُوا السيرة فى استعمالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة ـ جزيةً ـ فى فَصْلَيْن من

العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأَرض كانوا يجدونها ، والله عز وجل يصلح أَحوالهم ، ويجعل العقبى الجميلة مآلهم بمنه) .

ولا يكتفى ابن جبير بهذا (المجمل) عن أَحوال المسلمين فى صقلية فَأَتْبَعَ الْمُجْمَلَ بالْمُفَصَّلِ ، وقد أَوضح أَنَّ المسلمين فى مَسِّينَةَ قلة من ذوى الْمِهَنِ ، ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب . أَما المدينة الصِّقِلِّيَّةُ التى تحوى كثرة من المسلمين فهى عاصمة ملكها : (بلارمة) وهذا اسمها عند النصارى ، أَما المسلمون فيسمونها بالمدينة .. وبها يقيم الحضريون منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأَسواق المختصَّة بهم فى الأَرباض كثير ، وضياعها وقراها فيها سائر المسلمين كَسَرَقُوسَةَ وغيرها من مدنها) ففى أَثناءِ هذا الوصف الجغرافىّ يذكر لنا ابن جبير — كرَحَّالَةٍ يُدَوِّنُ الْأَحداث بدون ترتيب — أَن إقامته بجزيرة صقلية ستكون بالمدينة إلى أَن يأْذن الله بسفره منها إلى بلاد المغرب .

* * *

وبتتبعنا للأَنباءِ التى أَوردها ابن جبير عن أَوضاع المسلمين ، والنَّصارى معاً ، فى صقلية نراه يشيد بحسن سيرة الملك غليام معهم (ظاهريًّا) ويشيد باستعماله المسلمين فى أَعماله الحكومية والشخصية أَيضاً ، وباتخاذه الفتيان المجابيب — الخصيان — وكلهم أَو جُلُّهُمْ كاتمُ إيمانه متمسك بشريعة الإسلام . وهو كثير الثقة بالمسلمين[1] ، ومُوَلِّيهِمْ مُهِمَّ أَشغاله ، حتى إن الناظر على مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراؤه وحجَّابه الفتيان هم أَهل دولته ، وله منهم عدد كبير ، وأَهل بطانته منهم ، ويظهر عليهم

---

(١) كتمانهم لإيمانهم عن الملك غليام يدل على عدم اطمئنانهم إلى دخيلة نفسه ، حيال ذلك . ولعل ثقته بالمسلمين نابعة من أمرين : كفاءتهم وصفاء أخلاقهم . وانعدام هذين الأمرين فى أبناء دينه .

رَوْنَقُ مملكته ، وهم مُتَّسِعون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وكل واحد منهم له حاشية ، وخَوَلٌ وأَتْباع . ذلك كان حَالَهُ مع الرجال . أَما مع النساءِ ، فإن حَظَايَاه فى قصره مسلماتٌ كلهن ، ولم يذكر لنا ابن جبير شيئاً عن زوجه أَو أَزواجه ومحظياته من النصرانيات فيما إذا كانت له زوج منهن أَو محظيات . وهو ما نكاد نجزم به ، فقد أَشار ابن جبير إلى دخول نساءٍ نصرانيات قصره عُدْنَ مسلمات ، وذكر لنا ابن جبير نَقْلًا عن يحي بن فتيان الطَّرَّاز[٢] خادم الملك غُليام أَن المرأَة الإفرنجية من النصرانيات تدخل قصر غليام فتعود مسلمة ، بتأْثير الجوارى المسلمات المتكتمات من الملك فى ذلك كله . ويقول ابن جبير إنه بلغه أَنه كان بهذه الجزيرة زلازل مرجفة ذُعِرَ لها هذا المشركُ - يعنى الملك غليام - فكان يتطلع فى قصره فلا يسمع إلَّا ذاكراً لله ولرسوله من نسائه وفتيانه ، وربما رأَوه فجأَة فكان يقول لهم : « لِيَذْكُرْ كل أَحد منكم معبوده وما يدين به ، تسكيناً لهم » . وهذا إمَّا أَن يكون منه من باب التسامح ، أَو من باب السياسة مع هؤلاءِ ، لأَنه يرى أَن ملكه إنما يتوطد بملاينتهم ومسايرتهم ، فى ذلك .

أوضاع المسلمين فى صقلية

يتمادى ابن جبير فى تحليل أَوضاع المسلمين بصقلية تحت حكم الملك غليام فيقول ما ملخصه : (إن فتيانه - الذين هم عيون دولته وأَهل عِمَالَتِهِ فى ملكه - مسلمون ، كلهم يصوم الأَشهر تطوعاً ويتصدق ويَفُك الأَسرى ، ويُربِّى صغارهم ويُزوجهم ويحسن إليهم ، ويفعل الخير ما استطاع . .) ، كما يحدثنا ابن جبير بهذه المناسبة بأَنه لقِى منهم بمسينة

(٢) كان تطريزه بالذهب فى طراز الملك على ما تحدث به ابن جبير عنه .

فتى اسمه « عبد المسيح » وهو أَحد وجوههم وكبرائهم ، وكان اجتماعه به نتيجة رغبة منه أَبداها لابن جبير ، وقد أكرمه وبَرَّهُ ، وباح له بسره المكنون ، بعد أَن أَخْلَى المجلس من كل إنسان من الخدام ، مُحافظةً على نفسه ، وقد سأَل ابْنَ جبير عن مكة وعن مَشَاهِدِها ومَشَاهِدِ المدينة ومَشَاهِدِ الشام ، فأَخبره بما يريد من ذلك ، وهو يذوب شوقاً وتحرقاً لرؤية تلك المشاهد عياناً .

وطلب من ابن جبير أَن يهديه بعض الطُّرَفِ المباركة من مكة ومن المدينة ، وقال له : أَنتم مُدِلُّون بإظهار الإسلام ، فائزون بما قصدتم له ، رابحون إن شاءَ الله فى متجركم ، ونحن كاتمون إيماننا ، خائفون على أَنفسنا ، نعبد الله ونُؤَدِّى فرائضه سِرًّا . معتقلون فى مَلَكَةِ كافر بالله ، قد وضع فى أَعناقنا ربقة الرق ، فغايتنا التبرك بلقاءِ أَمثالكم من الحجاج واستهداءِ أَدعيتهم ، والاغتباط بما نتلقاه منهم من تُحَفِ تلك المشاهد المقدسة ، لنتخذها عُدَّةً للإيمان ، وذخيرة للأَكفان .

يقول ابن جبير تعقيباً على هذه القصة المؤثرة المثيرة : (فتفطرت قلوبنا له إشفاقاً ، ودعونا له بحسن الخاتمة ، وأَتْحَفْنَاهُ ببعض ما كان عندنا مما رغب فيه ، وأَبْلَغَ فى مجازاتنا ومكافأَتنا ، وَاسْتَكْتَمَنَا عن سائر إخوانه من الفتيان) .

* * *

وهكذا تمكَّن ابن جبير بفطنته وبيانه من ربط الجسور الخفية المدونة فى كتابه فيما بين مسلمى صقلية وإخوانهم من مسلمى العالم بما دَوَّنَهُ فى رحلته عن سوءِ حاضرهم وسوءِ مستقبلهم ، ومع الأَسف البالغ والحزن العميق قد تَحَقَّقَ ما كان ابن جبير يخشاه ، وباح للمسلمين بسره ، وذلك فيما يتعلق بقضية اضمحلال أَمر المسلمين والإسلام فى

تلك الجزيرة الخضراء . فهى اليوم وقبل اليوم أَصبحت خالصة للمسيحيين . والمسلمون الذين قد يُكَوِّنُون فيها قلة زهيدة جداً ، لا حول لهم فيها ولا طول ، وليس لهم فيها من الأَمر شَىْءٌ مَّا ، وقد عادت مساجدها كنائس . ولله الأَمر من قبل ومن بعد . ويُعتبر بحق كلام ابن جبير عن حاضر مسلمى جزيرة صقلية الواهن ، ومستقبلهم الشائن بالنسبة لعام قدومه إلى صقلية ، وما يلابس ذلك من تصنع غليام محبتهم والعطف عليهم واستخلاصهم لنفسه ودولته - يعتبر ذلك إحدى الوثائق التاريخية الفريدة .

قصور الملك غليام وحياته الخاصة

أَفادنا ابن جبير بأَن لهذا الملك قصوراً مشيدة ، وبساتين أَنيقة وبخاصة فى عاصمة ملكه : (بلارمة) وله بمدينة مَسِّينَةَ قصر أَبيض كالحمامة ، مُطِلٌّ على ساحل البحر . وهو كثير الاتخاذ للفتيان والجوارى ، ويُعَدُّ أَتْرَفَ ملوك النَّصارى ، ويتشبه - فى الانغماس فى نعيم الملك وإظهار زينته وترتيب قوانينه وأَساليبه وتقسيم مراتب رجاله - بملوك المسلمين . وملكه عظيم جدًّا ، وله الأَطباءُ والمنجمون ، وهو شديد الحرص عليهم ، وقد توجّه ابن جبير إلى الله سبحانه بالدُّعاءِ ، لكى يعيذ المسلمين بجزيرة صقلية من الفتنة به . وله كل الحق فى هذا الدعاءِ وسنه كان نحو ثلاثين سنة آنذاك ، وهو يقرأُ ويكتب بالعربية ، وعلامته - أَى شعاره - على ما أَخبر ابنَ جبير به أَحَدُ خدمه الخاصين هو : (الحمد لله حق حمده) وله بمدينة مَسِّينَةَ (دَارُ صَنْعَةِ البحر) - ترسانة - فيها من الأَساطيل الكثير ، وله مثلها فى عاصمة ملكه .

ها هو ذا ابن جبير ، يرحل على متن زورق صوب العاصمة : بلارمة ، وقد شاهد فى طريقه إليها عمائر تُرَى متصلة ، وحصوناً ، ومعاقل، وتسع جزائر[٣] . وعلى مقربة من بَرِّ الجزيرة جزيرتان ، منهما تخرج النار دائماً ، وقد أَبصر ابن جبير الدخان صاعداً منهما ، ويظهر بالليل نار حمراءُ ذات أَلْسُنٍ تصعد فى الجوّ ، وهو البركان المشهور خبره . . وهناك الجبل الشامخ الذى فيه بركان (اتنا) وكان يعرف بجبل النار . والنار التى تخرج منه فى بعض السنين كالسيل العرم ، لا تمرّ بشيءٍ إلَّا أَحرقته ، حتى تنتهيَ إلى البحر ، فتغوصَ فيه . ومن صقلية اتجه ابن جبير إلى مُرْسَى مدينة شفلودى .

مدينة شفلودى

ينعتها ابن جبير بأَنها مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق ، مُرَتَّبَةُ الأَسواق ، تسكنها طائفة من المسلمين ، وبها قلعة على قمة جبل اتخذوها عُدَّةً لأَسطول يفجؤهم بحراً من جهة المسلمين ، وقد أَقلع منها ابن جبير إلى مدينة ثرمة .

مدينة ثرمة

يقول عنها : (هى أَحسن وضعاً من التى تقدم ذكرها) يعنى : (مدينة شفلودى) ، وهى حصينة تركب البحر ، وتشرف عليه ، وللمسلمين فيها رَبَضٌ كبير ؛ فيه مساجد لهم ، ولها قلعة سامية منيعة .

---

(٣) ورد فى هامش النسخة المطبوعة فى دار صادر أنه يعنى الجزائر المعروفة بالأيولية فى شمال جزيرة صقلية ص ٣٠٠ .

وفى أَسفلها حَمَّةٌ[٤] قد أَغنت أَهلها عن اتخاذ حَمَّامٍ ، وقد أَقلع ابن جبير منها ، قاصداً مدينة بلارمة .

مدينة بلارمة

أَطنب ابن جبير فى عدِّ محاسن هذه المدينة ، ومزاياها الفائقة وعمرانها المزدهر ، وعظمتها الباهرة ، حتى لكأَنه يصف لنا عاصمة إسلامية ،كبغداد أَو القاهرة أَو دمشق، لولا إرساله لشواظ من حقده على مغتصبيها من أَهلها المسلمين .

يقول : « هى بهذه الجزائر أُمُّ الحضارة ، والجامعة بين الحسنيين : غضارة ونضارة ، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر ، ومَرَادَ عيش يانع أَخضر ، عتيقة أَنيقة ، مشرقة مونقة ، تتطلع بمرأَى فتَّان ، وتتخايل بين ساحات وبسائط كلها بستان ، فسيحة السكك والشوارع ، تروق الأَبصار بحسن منظرها البارع ، عجيبة الشان ، قرطبية البنيان ، مبانيها كلها بمنحوت الحجر المعروف بالكذَّان[٥] يشقها نَهَرٌ مَعِينٌ ، ويَطَّرِدُ فى جنباتها أَربع عيون » ومضى إلى أَن قال : (وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان ، يعمرون أَكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأَذان مسموع ، ولهم أَرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأَسواقُ معمورة بهم ، وَهُمُ التجار فيها ، ولا جمعة لهم ، بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأَعياد بخطبةٍ دعاؤهم فيها للعباسىّ ، ولهم قَاضٍ يرتفعون إليه فى أَحكامهم ، وجامعٌ يجتمعون للصلاة فيه ، ويحتفلون فى

---

(٤) الحمة : العين المعدنية الحارة ، وفى الشام عين تعرف بهذا الاسم إلى الآن محتلة باليهود خذلهم الله وأعادها إلى حظيرة الإسلام ،وقد رأيناها فى رحلتنا إلى الأردن قريبة من مدينة بيسان : بيسان فى السهل ،أى الغور كما يسمى هنالك ، والحمة فى الجبل - (الحمة) بالحاء المهملة المفتوحة بعدها ميم مشددة مفتوحة فتاء تأنيث) .

(٥) الكذان : حجر رخو .

شموعه فى هذا الشهر المبارك ، ومساجدهم بها كثيرة ، وكذلك مدارس مُعَلِّمِي القرآن) .

وفى الحديث الآنف ذكره نرى ابن جبير يخرج من دائرة البحث العلميّ والاجتماعيّ ، إلى دائرة السياسة الإسلامية التى يرعاها قلمه فى كل مناسبة ، ثم يقول فى هذا المعنى بصراحته المعهودة : (وبالجملة فهم غرباءُ عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أَمن لهم فى أَموالهم ، ولا فى حريمهم ولا فى أَبنائهم) .

وهكذا نرى ابن جبير يضع النقط على الحروف فى هذا الموضوع وفى هذا الموضع بالذات ، وذلك لأَنه أَزمع القيام بمهمة تنبيه المسلمين المقيمين فى داخل الجزيرة إلى ما سيجابههم فى المستقبل غير البعيد من اضطهاد دينيّ جارف يستهدف محو كيانهم وإذابة عقيدتهم وأَخلاقهم ، كما نبّه المسلمين خارج الجزيرة إلى ما يعانى منه إخوتهم بداخلها من همٍّ وغمٍّ واضطهاد عقديّ وسياسى ،لعلهم يتحركون لإسعافهم أَو لنجدتهم وانقاذهم مما هم له متعرضون من الرزايا والبلايا بدون ارتياب .

كنيسة الأنطاكى

وابن جبير يغرم بذكر العجائب والغرائب التى شاهدها خلال رحلته هذه فى ذهابه وفى إيابه ، ومن ذلك كنيسة الإنطاكيّ التى بناها جرجس ابن ميخائيل الإنطاكيّ الذى هاجر إلى المغرب وخدم تميم بن المعز بن باديس ، ثم انتقل إلى خدمة روجار الثانى جد غليام الثانى معاصر ابن جبير ، وتُسَمَّى هذه الكنيسة اليوم باسم (كنيسة المرطورانا) على ما ذكره محقق طبعة الرحلة بدار صادر ، ويستهل ابن جبير وصفه لهذه الكنيسة بقوله : (ومن أَعجب ما شاهدناه بها ، أَىْ - ببلارمة - من أُمور الكفران

كنيسة تعرف بكنيسة الإنطاكى ، أبصرناها يوم الميلاد ، وهو يوم عيد لهم عظيم ، وقد احتفلوا لها رجالًا ونساءً ، فأَبصرنا من بنيانها مرأًى يعجز الوصف عنه ، ويقع القطع بأَنها أعجب مصانع الدنيا المزخرفة ، جُدُرُها الداخلية ذهبٌ كلها ، وفيها من ألواح الرخام الملون ما لم يُرَ مثله قط . وقد رصعت كلها بفصوص الذهب وكُلِّلَتْ بأَشجار الفصوص الخضر ، وجعل بأَعلاها النوافذ المذهبة من الزجاج . وللكنيسة صومعة قائمة على أعمدةِ سَوارٍ من الرخام الملون ، وَعَلَتْ قبة أُخرى على سَوَارٍ كلها فتعرف بصومعة السوارى .

زى النصرانيات فى بلارمة

نَفَحَنَا ابنُ جبير بمعلومات قيمة ، فى أَسلوب أدبىّ عن زىّ النصرانيات بالعاصمة (بلارمة) فيقول : (وزِىُّ النصرانيات فى هذه المدينة زىُّ نساءِ المسلمين : فصيحاتُ الْأَلْسُنِ ، ملتحفات ، منتقبات ، خرجن فى هذا العيد المذكور ، وقد لبسن ثياب الحرير المذهَّب ، والتحفن اللحف الرائعة ، وانتقبن بالنُّقُبِ الملونة ، وانتعلن الأَخفاف المذهبة ، وبرزن لكنائسهن أَو كُنُسِهِنَّ[6] ، حاملات جميع زينة نساءِ المسلمين من التَّحَلِّى والتخضُّب والتعطُّر[7] ، وقد تَذَكَّرَ ابن جبير بهذه المناسبة على جهة الدُّعَابَةِ الأَدبية كما يقول ، تَذَكَّرَ قول الشاعر :

إِنَّ مَنْ يَدْخُلِ الْكَنِيسَةَ يَوْماً   يَلْقَ فِيهَا جَآذراً وظِبَــاءَا

---

(٦) الكنس : جمع كناس : بيت الظباء .

(٧) يقول منير الخورى فى كتابه (صيدا عبر حقب التاريخ) : أما الأزياء والملابس المنزلية الشرقية فقد اقتنع الفرنجة بأن الملابس الأهلية هى خير من ملابسهم ، فأخذ الرجال منهم فى إرخاء لحاهم وارتداء الجبة الفضفاضة وستر رؤوسهم بالكوفية ، وعمد النساء إلى لبس الشفوف المطرزة بالسكة . ص ١٧٣ . وأقول تعليقاً على هذا القول : لقد تغيرت الحال فى هذا العصر لدى أغلب العالم الإسلامى رجالا ونساءاً ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وقد أَقام ابن جبير فى بلارمة ، أسبوعاً كاملًا ، ونزل فى أَحد فنادقها التى يسكنها المسلمون ، وأَقلع منها إِلى مدينة أَطْرَابِنِش .

مدينة أطرابنش

يقول عنها ابن جبير : (هى مدينة صغيرة الساحة ، غير كبيرة المساحة ، مسورة بيضاءُ كالحمامة ، مُرْسَاها من أَحسن المراسى ، بينها وبين تونس مسيرة يوم وليلة . ولذلك لا يتعطل السفر من تونس إِليها لا شتاءًا ولا صيفاً ، إِلَّا ريثما تهب الريح الموافقة . ويكاد البحر يبتلعها من أَطرافها . وأَهلها يتكهنون بذلك ، ويسكنها المسلمون والنصارى معاً . ولكلا الفريقين فيها المساجد والكنائس ، وبها جبل مفرط فى الارتفاع ، فى أَعلاه معقل للروم ، وبينه وبين الجبل قنطرة ، ويتصل به فى الجبل للروم بلد كبير ، ويقال : إِن نساءَهم من أَحسن نساءِ هذه الجزيرة) .

ووصف ابن جبير لأَطرابنش هذه يمثل « وثيقة » قيمة عن شؤونها الحيوية من دينية وسياسية واجتماعية .

وفى مدينة أَطرابنش وجد ابن جبير وصحبه الْمَرْكَبَيْنِ اللذين يزمعان الإِقلاع إِلى المغرب ، وقد أَمَّلَ ابن جبير ركوب أَحدهما القاصد إِلى بَرِّ الأَندلس .. وأَمضى أَيام عيد الفطر فى مدينة أَطرابنش هذه لذلك ، وصلَّى صلاة العيد بأَحد مساجدها مع قوم من أَهلها امتنعوا من الخروج إِلى المصلى لعذر كان لهم . ويقول : (إِنهم صلوا صلاة الغرباءِ) ، ونراه هنا وقد طغت عليه عاطفة حب الوطن فدعا الله بقلب حار ، أَن يجبر كل غريب بالعودة إِلى وطنه . وكان أَن اتفق فى ذلك الحين أَن وصل أَمر من ملك صقلية بحجز المراكب فى جميع السواحل فى جزيرته بسبب الأَسطول الذى يعمّره ويُعِدُّه ، فقام البحريون الجَنَوِيُّونَ أَصحابُ

المركبين إلى مركبيهم وعمدوا إلى رشوة بعض الحكام فسهَّلوا لهم طريق الرحيل خلافاً للأَوامر الصادرة. ولكنَّهم اضطروا إلى الإقامة بالمركبين ينتظرون هواءًا موافقاً يُقلعون به .

وهنا يروى لنا ابن جبير قصة ، أَغلب الأَمر أَنها من نسج الخيال المعارض لحكام القسطنطينية فى صقلية من مسلمين ومسيحيين معاً ، وملخصها : (أَن أَحد أَبناءِ ملوك القسطنطينية هرب منها بعد خطوب جرت عليه ، إلى جزيرة صقلية ، وكان متخفياً ، ولكن أَمره انكشف بوساطة طائفة من الروم الجنويين المسافرين إلى القسطنطينية أَثبتوا صفته الملكية ، فاحتضنه الملك غليام ، وأَكرم مثواه ، ووضع الحراس له خوفاً من اغتياله بدسائس من ابن عمه الثائر عليه . وتقول القصة : إن لهذا الشاب أُختاً موصوفة بالجمال أَحبّها ابن عمه الثائر عليه فلم يتمكن من الزواج بها ، لأَن الروم لا تُنْكِحُ فى الأَقارب ، فحمله الغرام بها إلى الدخول فى الإسلام ، فأَخذها فتوجّه بها إلى الأَمير مسعود السلجوقى صاحب الدروب ، وقونية ، وبلاد العجم المجاورة للقسطنطينية ، (ووالد الخاتون سلجوقة التى صحبها ابن جبير من بغداد إلى الموصل فى طريق عودته بعد الحج إلى بلده غرناطة) . وقد مر ذكره فى هذا الكتاب ، فأَسلم مع ابنة عَمِّهِ على يده فتزوجها ، ثم قاد جيوش المسلمين إلى القسطنطينية ، فدخلها بهم ، وقتل من أَهلها نحو خمسين أَلفاً من الروم وأَعانه الإغريقيون على فعله ، وهم فرقة من أَهل الكتاب كلامهم بالعربية ، فاستولى المسلمون على القسطنطينية ونُقِلَتْ أَموالُهَا كلها للأَمير مسعود ، ووضع فيها ما ينيف على أَربعين أَلف فارس من جيش المسلمين .

ونقول : لا نشك فى أَن هذه القصة لو صحت كما يُومئ إليه خبر ابن جبير لكانت فتحاً مُبِيناً للإسلام ، وقد نقلها ابن جبير موقناً بصحتها

كما سمعها من ألسنة المسلمين والنّصارى معاً فى جزيرة صقلية ، ونقلها هؤلاءِ عن مراكب الروم القادمة من القسطنطينية ، على ما يقول ابن جبير ، ولكن القصَّة على ما يظهر لم تصح تاريخيًّا ولا واقعيًّا ، ولذلك نرى ابن جبير – فى تعليقه الموجز على (هذا الخبر القسطنطينى) يدعو الله أَن يحققه[(٨)] فكان هذا الدعاءُ بمثابة انسحاب منتظم منه عن تصديق القصة المروية له ، إذ لم ير أَى أَثر ليدل على صدقها .

الملك الشاب كما صوره ابن جبير

وقد وجد ابن جبير ثغرة تسلل منها قلمه المثقل بيانع الأَدب إلى رسم صورة وصفية مجلوّة لهذا الشاب اللاجىءِ إلى الملك غليام ، فقال نقلًا عمن أَخبره بخبره : « إنه رَطِيبُ غُصْنِ الصِّبا ، محتدم حمرة الشباب ، صقيل رونق الملك . عليه ناظر فى علم اللسان العربى وغيره ، بارع فى الأَدب الملوكى ، ذو دهاءٍ ، على فتوة سِنِّهِ وغمريّة شبيبته »[(٨)] .

* * *

هذا وقد أَهلّ هلال شهر ذى القعدة ، وابن جبير لا يزال مقيماً بمدينة أَطْرَابِنِش ينتظر بفارغ الصَّبر انسلاخ فصل الشتاءِ وإقلاع المركب الْجَنَوِىّ الذى أَمَّل ركوبه إلى الأَندلس .

* * *

عود إلى أوضاع مسلمى صقلية

يبدو أَن ابن جبير قد هَزَّ شُعُورَهُ الباطنىّ ما كان يلمسه من معاناة المسلمين المقيمين فى جزيرة صقلية – للاضطهاد والاستبداد ، وما كان ينتظرهم فى المستقبل البعيد أَو القريب من تغيير العقائد ، وتبديل التقاليد والحياة والمبادىءِ والأَوضاع نتيجة الحكم الصليبىّ الغامر المسلول

(٨) رحلة ابن جبير ص ٣١٢ طبعة دار صادر ببيروت .

سيفه عليهم يومئذ ، ولذلك نراه يعود كرّة أُخرى إلى استعراض بعض ما شاهد عليه حال المسلمين من متاعب وشقاءٍ ونكد واضطراب نفوس ، بسبب عُنْفِ الحكام المستعمرين المحيطين بهم ، وهم الأَعداءُ اللُّدُّ لدينهم وأُمتهم وكيانهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى .

أولا : قصة الفقيه المنتصر :

هى قصة مؤلمة تنزف دماً إسلامياً مسفوحاً .. يقول ابن جبير :

(وفى مدة مقامنا بهذه البلدة تَعَرَّفْنَا ما يؤلم النفوسَ تَعَرُّفُه من سوءِ حال أَهل هذه الجزيرة مع عبّاد الصليب بها ، دمرهم الله ، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة ، والمُقام تحت عهدة الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارىءِ دواعى الفتنة فى الدين على من كتب الله عليه الشقاءَ من أَبنائهم ونسائهم . وربما تسبب إلى بعض أَشياخهم أَسباباً نكالية تدعوه إلى فراق دينه ، فمنها قصة اتفقت فى هذه السنين القريبة لبعض فقهاءِ مدينتهم [(٩)] التى هى حضرة مَلِكِهِم الطاغيةِ . ويُعرف بابن زرعة ، ضغطته العُمَّال [(١٠)] بالمطالبة حتى أَظهر فراق دين الإِسلام ، والانغماس فى دين النصرانية ، ومَهَرَ فى حفظ الإِنجيل ومطالعة سِيَرِ الروم ، وحفظ قوانين شريعتهم ، فعاد فى جملة القسيسين الذين يُسْتَفْتَوْنَ فى الأَحكام النصرانية ، وربما طرأَ حكم إِسلامىّ ، فَيُسْتَفْتَى أَيضاً فيه ، لما سبق من معرفته بالأَحكام الشرعية ،

---

(٩) يقصد بلارمة — بلرموا — عاصمة الجزيرة التى ذكر ابن جبير أن بها الكثرة الكاثرة من المسلمين ساعة قدومه إلى الجزيرة . وقد حدثنا بأن النصارى يسمونها (بلارمة) وأن المسلمين سموها (المدينة) — هكذا .

(١٠) العمال جمع عامل . ويبدو هنا أنه يقصد بهم أمراء الجزيرة فى حكم غليام . وربما كان يقصد بقوله : (بالمطالبة) أى بمطالبتهم له بفراق دين الإسلام ، بسبب استعداده ظهارة فى حفظ الإنجيل ومطالعة سير الروم وحفظ قوانين شريعتهم ، بالإضافة إلى علمه الغزير بشرائع الدين الإسلامى والقضاء بها الذى كان يمارسه لأنه رجل علم إسلامى معروف المكانة فى هذا الدين .. وذلك على ما يحدث به ابن جبير عنه .

ويقع الوقوف عند فُتياه فى كلا الحكمين . وكان له مسجد بإزاءِ داره ، أَعاده كنيسة ، نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتم الضلالة . ومع ذلك فَأَعْلِمْنَا أَنه يكتم إِيمانه ، فلعله داخل تحت الاستثناءِ ، فى قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) .

ثانياً : قصة القائد الزعيم أبى القاسم ابن حمود :

هذه القصة لا تقل عبرة للمعتبرين عن سابقتها إن لم تكن أَشنع منها وأَشد نكالًا وضراوة ، فهى تذيب الأَفئدة ، وتكلم القلوب ، وتُدْخِلُ إلى جوانحها الأَسى والحزن العميق على حالة مسلمى صقلية .

يروى ابن جبير تلك القصة بِأَسًى بالغ فيقول :

(ووصل هذه الأَيام إلى هذه البلدة زعيمُ أَهل هذه الجزيرة من المسلمين وسيدُهم القائدُ أَبو القاسم ابن حمود المعروف بابن الحجر ، وهذا الرجل من أَهل بيت بهذه الجزيرة توارثوا السيادة كابراً عن كابر ، وقُرِّرَ لدينا مع ذلك أَنه من أَهل العمل الصالح ، مريد للخير ، محبّ فى أَهله ، كثير الصنائع الأُخرويّة ، من افتكاك الأُسارى ، وبَثِّ الصدقات فى الغرباءِ ، والمنقطعين من الحجاج ، إلى مآثر جمّة ، ومناقب كريمة ، فَارْتَجَّتْ هذه المدينة لوصوله . وكان فى هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية ، أَلزمه داره بمطالبة توجَّهت عليه من أَعدائه ، افتروا عليه فيها أَحاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الْمُوَحِّدِينَ أَيَّدهم الله ، فكادت تقضى عليه لولا حارس المدة ، وتوالت عليه مصادرات أَغرمته نيفاً على الثلاثين أَلف دينار مُؤْمِنِيَّةٍ ، ولم يزل يتخلى عن جميع دياره وأَملاكه الموروثة عن سلفه ، حتى بقى دون مال ، فاتفق فى هذه الأَيام رضا الطاغية عنه ، وأَمره بالنفوذ لِمُهِمٍّ من أَشغاله السلطانية ، فنفذ لها نفوذ المملوك المغلوب على نفسه وماله ، وصدرت عنه عند وصوله إلى هذه

البلدة رغبة فى الاجتماع بنا ، فاجتمعْنا به ، فأَظهر لنا من باطن حاله ، وبواطن أَحوال هذه الجزيرة مع أَعدائهم ما يُبْكِى العيون دماً ، ويذيب القلوب أَلماً ، فمن ذلك أَنه قال : « كنتُ أَودُّ لو أُباع أَنا وأَهل بيتى ، فلعل البيع كان يخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدّى بنا إلى الحصول فى بلاد المسلمين ») . ويعلق ابن جبير على هذا النبإ الكارب خير تعليق فيقول : (فتأَمل حالًا يُؤَدِّى بهذا الرجل ، مع جلال قدره ، وعظم منصبه ، إلى أَن يتمنى مثل هذا التمنى مع كونه مثقلًا عيالًا ، بنين وبنات) .

ثالثاً : قصة المسلم الذى سلم ابنته البكر برضاها لأحد الحجاج الذين كانوا مع ابن جبير :

وهناك قصة ثالثة رواها لنا ابن جبير ووصفها بأَنها تقطع النفوس إشفاقاً ، وتذيب القلوب رأْفة وحناناً ، وهى : (أَن أَحد أَعيان هذه البلدة – أَطْرَابِنِش – وجَّه ابنه إلى أَحد أَصحاب ابن جبير من الحجاج ، راغباً فى أَن يقبل منه بنتاً بِكْراً صغيرة السن قد زاهقت[11] الإدراك ، فإن رضى بها تزوجها ، وإن لم يَرْضَها زَوَّجَهَا ممن رضى لها من أَهل بلده ، ويخرجها مع نفسه ، راضيـة بفراق أَبيها وإخوتها ، طمعاً فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين . فطاب الأَب والإخوة نفساً لذلك ، لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأَنفسهم ، إذا زالت هذه الْعُقْلَةُ الْمُقَيِّدَةُ عنهم[12]) وقد تَأَجَّرَ – أَى طلب الأَجر من الله – هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك ، وأَعانه ابن جبير على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة ، وقد طال

---

(١١) قاربت .

(١٢) يقصد بالعقلة المقيدة – بكسر الياء التحتية وتشديدها – ما يسمى اليوم فى العرف السياسى (العزل السياسى) الذى يفرض على من لا تثق الدولة باتجاهاتهم الفكرية أو المبدئية أو تضمر لهم سوءاً .

عجب ابن جبير من حال تؤدّى بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب وإسلامها إلى يد من يغربها ، واحتمال الصبر عنها ، ومكابدة الشوق إليها ، والوحشة دونها وأضاف قوله : (كما أنا استغربنا حال الصَّبِيَّةِ ، صانها الله ، ورضاها بفراق من لها ، رغبة فى الإسلام ، واستمساكاً بعروته الوثقى ، والله عز وجل يعصمها ويكفلها ويؤنسها بنظم شملها ، ويجعل الصنع لها بمنه . . وقد استشارها الأَبُ فيما همّ به من ذلك ، فقالت له : إن أَمسكتنى فأَنت مسئول عنى . وكانت هذه الصبية دون أُمٍّ ، ولها إخوان ، وأُخت صغيرة أَشقاء لها) .

* * *

سر تشاؤم ابن جبير عن مستقبل مسلمى صقلية

كان قدوم ابن جبير إلى صقلية ، فى طريق عودته إلى بلاده (الأَندلس) فى سنة ٥٨٠ ه الموافقة لسنة ١١٨٤ م . ومن قَبْلِ نحو ربع قرن على تاريخ قدومه إليها ، كانت مذابح هائلة قد جرت على المسلمين من قِبَلِ المسيحيين فى صقلية إذ انتهز « اللمبارديون » فرصة قيام مايون وزير غليام الأَول فى منتصف عام ١١٦٠ م بنزع السلاح من أَيدى المسلمين ، فلما قام النُّبلاءُ والبارونات بالثورة عليه انتهز المسيحيون هذه الفرصة وهاجموا المسلمين الْعُزَّلَ ، وأَثخنوا فيهم قتلًا فى شوارع « بلرم » كما قتلوا المسلمين الذين كانوا يعملون فى الدواوين والفنادق والحوانيت ، ونزعوا الأَكفان عن جثث الموتى . ولقد قُتِلَ فى هذه الواقعة الشاعرُ القصصىُّ يحيى التيفاشى . ولعل الشريفَ الإدريسىّ كان أَيضاً من ضحاياها[١٣] . وعندما قدم ابن جبير إلى صقلية عام ٥٨٠ هـ ـ ١١٨٤ م كان المسلمون يشعرون بعدم الاطمئنان على حياتهم ، كما كانوا يشعرون

(١٣) العرب فى صقلية للدكتور إحسان عباس صفحة ١٤٩ .

بأَنهم مَقْضِىٌّ عليهم فى المستقبل لا محالة . وقد نقل ابن جبير ، بأَمانة العالِم الواعى المخلص ، هذا الشعور العامَّ الفياض من مسلمى صقلية جميعاً إلى إخوتهم مسلمى أَقطار العالم ، حتى يفيقوا فينهضوا للذَّبِّ عنهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلًا .

عود إلى أطرابنش وعودة إلى غرناطة

بعدما أَكمل ابن جبير وصحبه شهر ذى القعدة ٥٨٠ هـ بمدينة أَطرابنش صعدوا إلى المركب الْمُقْلِعِ إلى الأَندلس ، فى التاسع من ذى الحجة الموافق ١٣ مارس ١١٨٤ م والمصادف ليوم عرفة . وقد أَصبح صباح يوم عيد الأَضحى ، وهم على ظهر ذلك المركب الجنوى ، وكانوا ينيفون على خمسين رجلًا من المسلمين ، وقد رام المركب الإِقلاع ، فما استطاع ، لأَن الريح عاكسته كما صنعت من قبل مع مركبهم المتجه من عكة إلى صقلية . وقد رجعوا مرغمين إلى سيرتهم الأُولى عندما كانوا فى عكة ، فى مثل هذا الموقف (والتاريخ يعيد نفسه بِأَلْوَانٍ) وكانوا يترددون من المركب إلى الْبَرِّ وينوون السفر كل ليلة ، وقد مكثوا على ذلك اثنى عشر يوماً ، إلى أَن أَذن الله لهم ، بالإِقلاع ، فى صبيحة يوم الاثنين الحادى والعشرين لذى الحجة الموافق للخامس والعشرين من مارس . وقد أَقلعوا على ثلاثة مراكب للروم اتفقت على الاصطحاب فى الْجَرْيِ ، وأَن يمسك المتقدم منها على المتأَخر ، فوصوا إلى جزيرة الراهب فمالوا إلى مرساها . وهبت عليهم ريح طيبة . وقد لاقى المركبان المتصاحبان من عناءِ تقلب الرياح مثلما لَاقَوْهُ من قبل ، ثم إن الريح الموافقة ركدت عنهم ثم هبت ريح أَسقطتهم ليلة الاثنين ٢٨ من ذى الحجة الموافقة لأَول أَبريل – إلى جهة إفريقية – فأَرسلوا بجزيرة خالية بها تعرف بخالطة ، ودخلوا مرساها بعد أَهوال لَاقَوْهَا فى دخول مُرساها وتوالت

عليهم الأمطار فيها ، وكانت مدة إقامتهم فيها أربعة أيام ، آخرُها يومُ الخميس مستهل المحرم سنة ٥٨٠ هـ . وفى ليلة الجمعة ثانى المحرم أرسل الله إليهم ريحاً شرقية موافقة لينة رُخَاءً ، ثم اشتدت وعادت ريحاً شديدة جرى بها المركبُ أقوى جَرْيٍ وأَعْدَلَهُ ، وظلوا فى ظل هذه الريح الشرقية نحو يومين ، وتركوا جزيرة سردانية عن يمينهم ، ثم تلاعبت بهم الرياح المختلفة فمكثوا يضربون البحر طولاً وعرضاً ، ولا يتراءى لهم بَرٌّ، حتى ساءت ظنونهم ، فظنوا أنهم قد أُحيط بهم ، ثم أذن الله بالفرج ، فأبصروا بر جزيرة يابسة ، ليلة السبت العاشر من المحرم ، فدخلوا مرسى تلك الجزيرة مع الليل ، بعد مكابدة تلك الرياح فى دخوله ، وكان إرساؤهم بإزاء (فَرَمَنْتِيرَةَ) المنقطعة عن جزيرة يابسة . وفى تلك الليلة مع المغيب أبصروا جبال برّ الأندلس ، وكان أقربها منهم جبل دانية المعروف بـ (قاعون) . . وَلَا تَسَلْ عن مبلغ السرور الذى ملأ جوانحهم بتلك الرؤية المؤنسة ، وقد أصبحوا يوم الأحد الحادى عشر من الشهر فى المرسى المذكور ، وقد هبّت عليهم الريح الغربية فجعلتهم ينتظرون الفرج من الله بإرساله الريح الموافقة . وفى صحوة يوم الثلاثاء الثالث عشر منه ، أقلعوا بريح شرقية لينةِ الْمَهَبِّ ، لها نَفَسٌ خافت ، وجبال دانية أمامهم يرونها رأى العين ، ثم نزلوا بقرطاجنّة ، بتلك الريح الشرقية المتمادية المنتشرة ، دخلوها — أى قرطاجنّة — يوم الخميس الخامس عشر منه ، شاكرين لله ما مَنَّ به عليهم من السلام والعافية ، ثم أقلعوا من قرطاجنة إثْرَ صلاة الجمعة السادس عشر منه ، وباتوا فى فحص(١٤) قرطاجنة بالبرج المعروف بـ (برج الثلاثة صهاريج) ثم منه

---

(١٤) الفحص : كل موضع يسكن ، ومواضع بالمغرب : فحص طليطلة وأكشوانية وأشبيلية ، والبلوط ، والأجم وسور نجين (القاموس المحيط مادة فحص) وفى معجم البلدان أن (الفحص) اسم لعدة مواضع فى الأندلس ، وفحص الأجم : حصن منيع من نواحى أفريقية (مادة فحص) .

يوم السبت إلى مُرْسِيَةَ ، ومنها فى اليوم بعينه إلى (لِبْرَالَةَ) ثم منها يوم الأحد إلى (لُورَقَةَ) ثم منها يوم الاثنين إلى (المنصورة) ثم منها يوم الثلاثاء إلى قَنَالِش بسْطَة ، ثم منها يوم الأربعاء إلى وادى آش ، ثم منها يوم الخميس الثانى والعشرين للمحرم ، والخامس والعشرين لإبريل ، إلى المنزل بغرناطة :

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْناً بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرُ

ملاحظتان

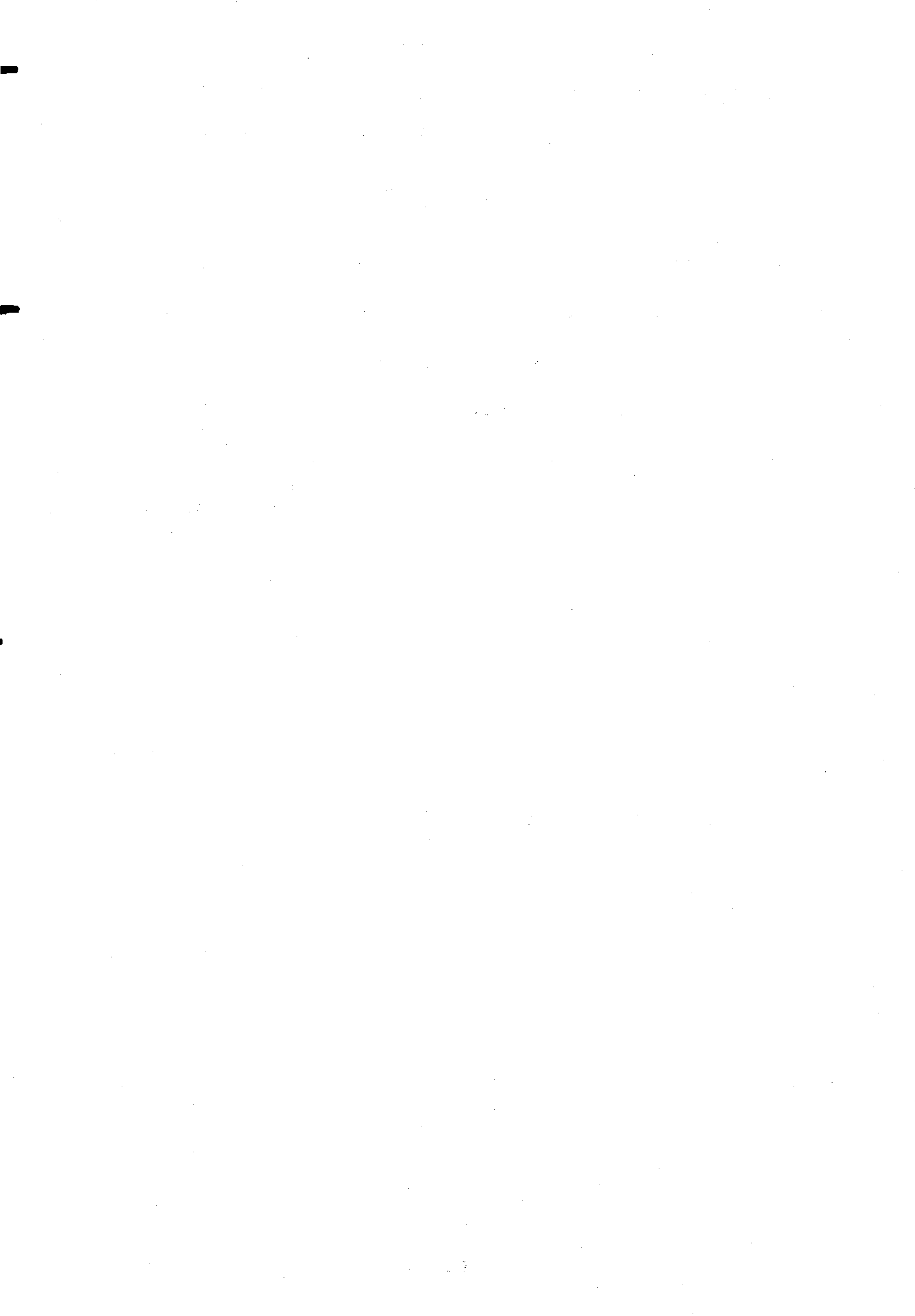
وبعد ، فهذا هو البيت الذى تمثل به ابن جبير فى خواتيم كتاب رحلته الأُولى إلى الحج ، بمناسبة عودته سالماً إلى منزله بغرناطة بعد فراق مديد ، ونحن بنفس المناسبة نضم إلى بيته بيتاً آخر من هذا القبيل ، لعله يكون أَنسب للمقام ، وذلك لأَن ابن جبير لم يستقر به النوى بعد إيابه إلى وطنه ، كما يفهم من فحوى البيت الذى أَورده ، فقد شَدَّ الرحال مرة ثانية وثالثة إلى الحجاز وغيرها ، وتُوُفِّىَ غريباً بعيداً عن وطنه ، بالإسكندرية ، بعد ذلك بسنة ٦١٤ هـ . والبيت الملائم لوضعه إذن بعد إيابه هذا ، هو :

وكُلُّ مُسَافِرٍ سَيَؤُوبُ يَوْماً إذا رُزِقَ السَّلَامَةَ والإِيَابَا

هذا وقد اختتم ابن جبير كتاب رحلته كعادته المفيدة ، فذكر مدة رحلته من لدن خروجه من غرناطة إلى وقت إيابه إليها ، فكانت تلك المدة عامين كاملين ، وثلاثة أشهر ونصف شهر ، وكان من المصادفات العجيبة التى لاحظناها أَنَّ بدء رحلته من غَرْنَاطَةَ كان يوم الخميس ثامن شوال سنة ٥٧٨ هـ . . وكان دخوله مكة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩ هـ ، وخروجه منها يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٥٧٩هـ ، وكان خروجه من دمشق يوم الخميس الخامس من جمادى الآخرة

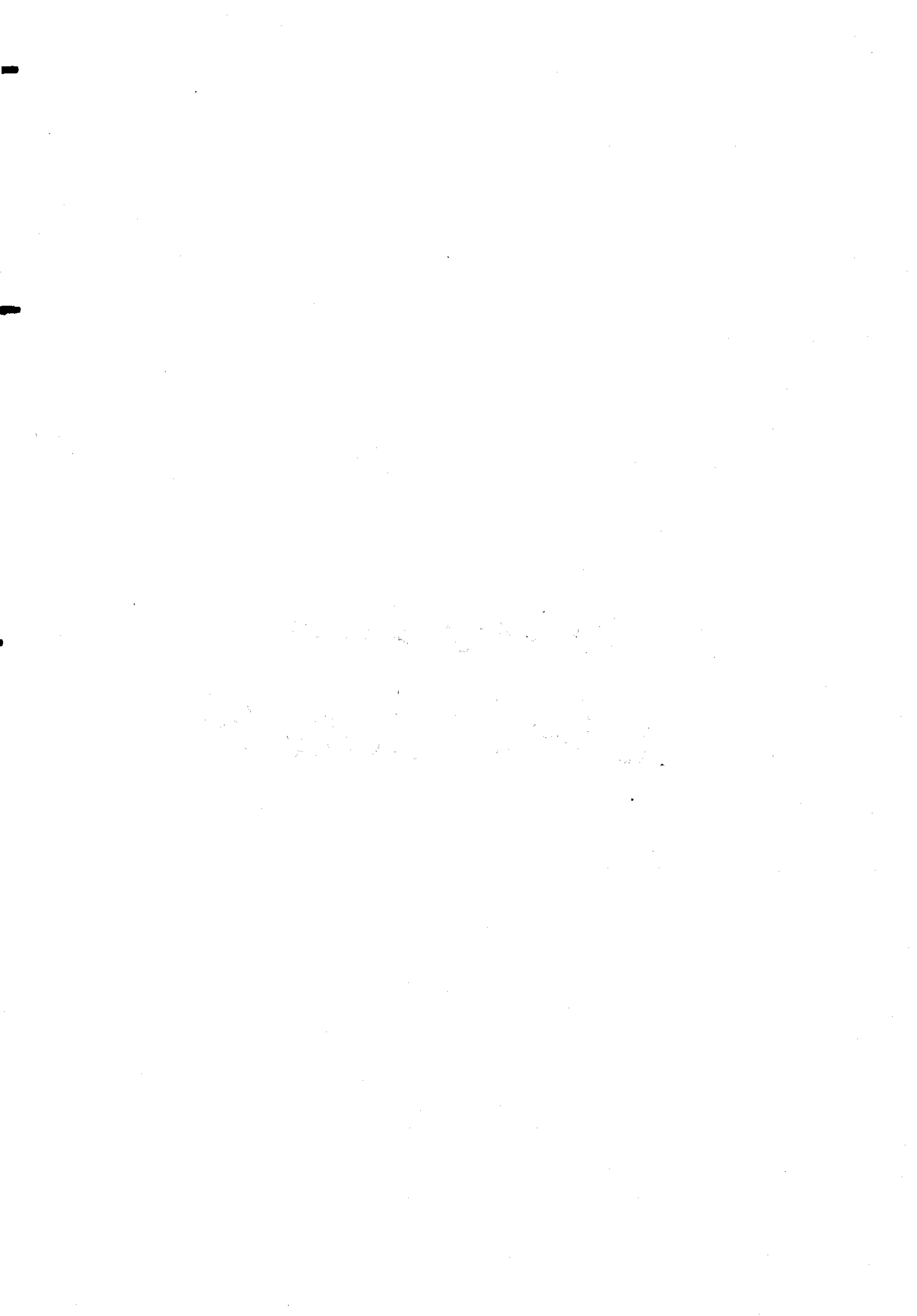
سنة ٥٨٠ هـ ، وكان دخوله لمدينة صور يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ ، وكانت أَوبته إلى غرناطة في يوم الخميس ٢٢ من المحرم سنة ٥٨٠ هـ ـ ٢٥ إبريل سنة ١١٨٤ م .

ثم كان من المصادفات اللطيفة أَن رحلته الثانية إلى المشرق بدأَها بيوم الخميس أَيضاً لتسع خلون من شهر ربيع الأَول من سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وآب منها إلى غرناطة مَوْطِنِهِ بيوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، على ما مَرَّ بنا في الفصل الثالث الذى عقدناه بعنوان : (رحلاته إلى المشرق ، ورفقاؤه إليه في رحلته الأُولى) .



الفصل الحادى والعشرون

مكامن الجمال فى كتاب رحلة ابن جبير



يكاد الإجماع يتم فيما بين مؤرخى ابن جبير على علو كعبه فى الأدب : نثراً وشعراً ، زائداً على ذلك جمال الوصف مع دقته . فى كتاب رحلته.

فهذا لسان الدين ابن الخطيب يصف ابن جبير بأنه : « كان أديباً بارعاً ، شاعراً مُجيداً » .

ويصف كتاب رحلته بأنه « نسيج وحده ، طار كل مطار »[1] .

ثم هذا حسين نصار محقق طبعة رحلته الصادرة بدار مصر للطباعة يضع على رأس عنوانها هذه العبارة التقديرية : « عيون الأدب العربى » ثم أتى فى مقدمته لتلك الطبعة بما نصه : (وإنى إذ أُقدم هذه الرحلة إلى القارىء العربىّ أرجو أن تحتلَّ المكانةَ الخليقة بها ، وأن تفيد فى كشف بعض الجوانب لمعرفة مجتمعنا الإسلامىّ فى عصر الحروب الصليبية »[2] .

وفى خضم جوٍّ مشبع بالثناء والتقدير نرى المستشرق الروسىّ ، كراتشكوفسكى ، يشيد برحلة ابن جبير ويرفع مكانتها الفنية بالنسبة للرحلات الأُخريات ، يقول : « ومن الناحية الفنية بلغت ذروة ما وصل إليه نمط الرحلة فى الأدب العربى . وإن أسلوبه فيها يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير . ومعالجته للسجع فيها الكثير من المهارة » ، ويختتم بحثه فى مزايا الرحلة قائلًا :

« وبعدُ فهذا مصنف رفيع الأسلوب ، يختتم بجدارةٍ حلقة الجغرافيين الأندلسيين لهذا العصر »[3] :

* * *

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة .

(٢) مقدمة رحلة ابن جبير لحسين نصار .

(٣) تاريخ الأدب الجغرافى العربى . الترجمة العربية بمصر .

وها نحن أولاء نورد للقارىء ، نماذج من مكامن الجمال والإبداع في هذه الرحلة فنقول :

وصف دقيق لأهوال البحر

كتب ابن جبير هذا الوصف خلال رحلته البحرية من غَرْنَاطَةَ صوب الإسكندرية . قال :

« وبتنا تلك الليلة ، التي هي ليلة الخميس التالية لليوم المذكور ، مترددين بين الرجاء واليأْس . فلما أَسفر الصبح نشر الله رحمته وأَقشعت[٤] السحب ، وطاب الهواءُ ، وأَضاءَت الشمس وأَخذ في السكون البحرُ . فاستبشر الناس ، وعاد الأُنس ، وذهب اليأْس ، والحمد لله ، الذي أَرانا عِظَمَ قدرته ، ثم تلافى بجميل رحمته ولطيف رأْفته . حمداً يكون كِفاءًا لمنته ونعمته »[٥] .

وبعد ، فإن للفقرات المدونة آنفاً الْحَقَّ في أَن تُنَظِّمَ نفسها في سِمْطِ عيون الوصف الأَدبي العربي الممتاز .

الإسكندرية :

تحت هذا العنوان ، ذكر بعض أَخبار الإسكندرية ، وآثارها قال : « فأَول ذلك حسن وضع البلد واتساع مبانيه[٦] حتى إنا ما شاهدنا بلداً أَوسع مسالك منه ، ولا أَعلى مبنى ، ولا أَعتق ، ولا أَحفل منه . وأَسواقه في نهاية من الاحتفال أَيضاً .

---

(٤) أقشعت بمعنى زالت وذهبت .

(٥) رحلة ابن جبير ص ٥ طبعة دار مصر للطباعة .

(٦) في نسخة أخرى من الرحلة (أزقته) ص ٨ ، وأرى أنها أنسب لسياق الكلام .

ومن العجب فى وصفه :[7] أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها ، وأعتق وأمتن ، لأن الماءَ من النيل[8] يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، فتتصل الآبار بعضها ببعض ، ويمد بعضها بعضاً »[9] .

وهكذا صور لنا ابن جبير بريشته الساحرة الماهرة مدينة الإسكندرية الضخمة المزدوجة الكيان، وصور الحركة الساهرة فيها ليل نهار، صور كل ذلك فى كلمات معدودة ، فدل ذلك على مدى تمكنه من ناصية فن البيان ، كأحد فرسان هذا الشأن .

كما أنه بلغ بيانه قمة البيان عندما قال بعدئذ عن الإسكندرية : « ومن الغريب أيضاً فى أحوال هذا البلد (أن) تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم بالنهار فى جميع أحوالهم »[10] .

وصف الأهرام وأبى الأهوال :

كالثوب الذى يحدد أجزاءَ جسم مُرْتَدِيه لدقة تفصيله وانسجامه مع جسمه هذا الوصف الذى كتبه ابن جبير . للتعريف بماهية الأهرام (وأبى الأهوال) . يقول أولًا : فى التعريف بالأهرام :

« وبمقربة من هذه القنطرة المحدثة الأهرامُ ، كأنها القباب المضروبة قد قامت فى جو السماء ، ولا سيا الاثنان منها ، فإنهما يَغَصُّ الجو بهما سُمُوًّا .... قد أُقيمت من الصخور العظام المنحوتة ، وركبت تركيباً هائلًا ، بديع الالتصاق ، دون أن يتخللها ما يعين على إلصاقها ، محددة

---

(٧) فى نسخة أخرى (ومن أعجب ما فى وصفه) ، ويبدو لى أنها أنسب لسياق الكلام .
(٨) فى نسخة أخرى (لأن الماء إذا جاء من النيل) .
(٩) ص ٨ الطبعة نفسها .
(١٠) نفس المصدر السابق ص ١٢ . وقد زدنا كلمة (أن) لربط الكلام إذ يبدو لنا أنه غلط مطبعى .

الأطراف فى رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطرٍ ومشقة ، فتلْفِى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ... لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك[11] » .

ذلك كان وصفه الفنى للأهرام الشامخة . أما وصفه لزميلها الجاثم بمقربة منها، فإنه لا يقل روعة عن وصفه للأهرام : « وعلى مقربة من هذه الأهرام ـ بمقدار غلوة[12] ـ صورة غريبة من حجر . قد قامت كالصومعة على صفة آدمى هائل المنظر ، وجهه إلى الأهرام وظهره إلى القبلة مهبطِ النيل تُعْرف بأبى الأهوال »[13] .

وكلمة (غريبة) التى وصف بها كلمة (صورة) التى وصف بها (أبا الهول) قامت مقام (الصورة الفنية) التى تغنى عن كثير من الكلام والتى يرسمها عادة كبار أهل هذا الفن للتعبير بها فى أوجز إيجاز منظور عن كثير من المرام .

وحقيقة إن أوصافه هذه للأهرام وأبى الأهوال أيضاً تُعَدُّ من عيون البلاغة العربية المرموقة التى حددها بعض علماء البيان بقوله :

وَجَعَلُوا بَلَاغَةَ الْكَلَامِ طِبَاقَهُ لِمُقْتَضَى الْمَقَامِ

بحر فرعون فى عبوسه وانفراجه :

فى كلمات مشرقة صور لنا ابن جبير بحر فرعون ـ بحر القلزم ـ فى عبوسه عليهم ، وفى انفتاحه لهم ، فكان فارس الميدان فى وصفه البارع ، إذ يقول :

---

(١١) الرحلة ص ٢٨ .
(١٢) الغلوة رمية السهم .
(١٣) الرحلة ص ٢٩ .

« وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة . إلى أن أتى الله بالفرج، مقترناً مع الصباح ، فهدأ قياد الريح ، وأقشع الغيم ، وأصحت السماءُ ، ولاح لنا بَرُّ الحجاز على بُعْدٍ ، لا نبصر منه إلَّا بعض جباله » .

وفى مكان آخر يقول : « فلما كان يومُ السبت الْمُوفِى ثلاثين تَنَفَّسَت الريحُ بَعْضَ تَنَفُّسٍ ، فأَقلعْنَا بذلك النَّفَسِ ، نَسِيرُ سيراً رُوَيْداً ، وسكن البحر حتى خُيِّلَ لناظره أنه صَحْنُ زجاج أرزق »(١٤) .

مرسى أبحر وخليجه :

أسلم البيان زمامه لابن جبير عندما تقدم لتعريف القارىء بمزايا مُرْسَى أَبْحُر وخليجه قرب مدينةِ جُدَّة . فقال عن المُرْسَى والخليج :

« وهو من أعجب المراسى وضعاً ، وذلك أن خليجاً من البحر يدخل إلى البر . والبر مُطِيفٌ به من كلتا حَافَتَيْهِ ، فَتُرْسِى الْجِلَابُ - أى السُّفُن - منه ، فى قَرَارَةٍ مُكِنَّةٍ هادئة » .

مشهد الكعبة المعظمة :

تَوَغَّلَ ابنُ جبير فى حدائق البلاغة النضرة الوارفة الظلال ، الوافرة الْجَمال ، حينما سجل مشهد الكعبة فى نفسه وفى مشاهدته ، فقال :

« فألْفيْنا الكعبة الحرام ، عروساً مجلوة مزفوفة إلى جنة الرضوان ، محفوفة بوفود الرحمن » .

وهذا تصوير مشهد يجمع بين كلا الجلَال والجمال للكعبة المقدسة .

وهناك تصويرٌ ثانٍ لها يحددُ طراز بنائها على الهيئة التى شاهدها :

« والبيت العتيق مَبْنِىٌّ بالحجارة الكبار الصُّمِّ السُّمْرِ ، قد رُصَّ

---

(١٤) الرحلة ص ٤٢ ، ط دار صادر .

بعضها على بعض ، وأُلْصِقَتْ بالعَقْد الوثيق ، إلصاقاً لا تحيله الأيام ولا تقصمه الأزمان »[١٥] .

خصائص بطيخ مكة :

وبحاسته النافذة ، وذوقه المرهف نراه يدرك المزايا الكامنة فى بطيخ مكة ، وخصائص الطعم الطيب والرائحة الزكية التى انفرد بها دون سواه من أنواعه ... وبحاسته تلك وبحاسته الأدبية المرهفة ، تمكن من بلوغ الذروة فى وصف هذا البطيخ ، فقال :

« ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخُ والسفرجلُ ، وكل فواكهها عجب ، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة ، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها ... يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك ، فيكاد يَشْغَلُك الاستمتاعُ بطيب رَيَّاه ، عن أكلك إيَّاه ، حتى إذا ذقته ، خيل إليك أنه شِيبَ بِسُكَّرٍ مُذَاب أَوْ بِجَنَى النحل اللُّبَاب »[١٦] .

والبطيخ الذى يصوره بهذا الطعم السكرى والعَرْف العنبرى ، هو مزروع ، إما فى ضواحى مكة ، أو مجلوب إليها من الأماكن الزراعية القريبة منها ، التابعة لها ، كالطائف ووادى مَرٍّ وما حول ذلك ، أو دونه بالنسبة إلى مكة .

حلوى مكة :

يقول فى وصف حلوى مكة : « وأما الحلوى فَيُصْنَع منها أنواعٌ غريبةٌ ، من الْعَسَلِ والسُّكَّرِ المعقودِ على صفات شتى .. إنهم يصنعون بها حكاياتٍ – أى تماثيل – جميع الفواكه الرطبة واليابسة .

(١٥) الرحلة ص ٥٨ و ٧٥ .
(١٦) الرحلة ص ٩٨ ، ط دار صادر .

وفى الأَشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان ، يتصل منها أَسْمِطَةٌ بين الصَّفا والْمَرْوَةِ . ولم يشاهِدْ أَحد أَكملَ منظراً منها ، لا بمصرَ ولا بسواها ، قد صورت منها تصاويرُ إنسانيةٌ وفاكهيةٌ ، وجُلِّيَتْ فى مِنَصَّاتٍ كأَنها العرائسُ . ونُضِّدت بسائر أَنواعها الْمُنَضَّدَةِ الملونة ، فتلوح كأَنها الأَزاهر حسناً ، فتقيد الأَبصار ، وتستنزل الدرهم والدينار»[17] .

لقد أَفهمنا ابن جبير فى نعته لحلوى مكة أَنهم كانوا يصنعونها من العسل والسكر . وأَنها تجعل منها تصاوير إنسانية وفاكهية ، وأَنها كانت تنضد فى منصات ، وأَن أَشكالها ملونة ، كما نراه فى أَصناف الحلوى المصنوعة حديثاً ، بالآلات الحديثة . وقوله إِن أَحداً لم يشاهد أَكملَ منظراً منها ، لا يعدو أَن يكون من مبالغاته التى اعتاد اطلاقها فيما يشتد إِعجابه به أَحياناً .

والمبالغة قد تكون أَحياناً من أَلوان البلاغة العربية كما هو معلوم .

رطب مكة :

وكروعة وصفه لحلوى مكة يصف رطبها الْجَنِيَّ فيقول :

« ومن أَغرب ما أَلفيناه فاستمتعنا بأَكله ، وأَجرينا الحديث باستطابته ، ولا سيما لكوننا لم نعهده ، الرطبُ . وهو عندهم بمنزلة التين الأَخضر فى شجره ، يُجْنَى ويُؤكل ، وهو فى نهاية من الطيب واللذاذة ، لا يُسْأَم التفكه به ، وإِبَّانُه عندهم عظيم ، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضَّيْعة (البستان) ... أَو كخروج أَهل المغرب لقراهم أَيام نضج التين والعنب . ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه يبسط على الأَرض ،

---

(١٧) الرحلة ص ٩٨ ، ط دار صادر .

قدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السِّلال والظروف ويُرفع »[18] .

القشاوة :

هذه القَشَّاوة ، هى كلمة معربة تعريباً عامياً ، وأَصلها فارسى : (الكجاوة) وقد التقطتها ذاكرة ابن جبير فاستعملها فى رحلته أُسوة بكثير مما يماثلها من التعابير . وصف لنا ابن جبير القَشاوة مع ما يلابسها بقوله :

« فلا تبصر قَشَّاوة من القشاوات إلا وأَمامها مِشْعَل ، فالناس يسيرون منها بين كواكب سيارة ، توضح غَسَق الظلماء ، وتباهى بها الأَرض أَنْجُمَ السماءِ »[19] .

إذا كان التشبيه جميلًا ودقيقاً فيما بين الْمُشَبَّهِ والْمُشَبَّهِ به ، فذلك لون معترف بأَنه من أَنواع فن البلاغة الراقية ، وإذا كان التشبيهُ مَركَّباً ومتطابقاً؛فذلك نوع أَكثر روعة وجاذبية وأَسمى مكانةً ، وأَبهى جمالًا ، وهذا ما أَضفاه ابن جبير على وصف القَشَّاوة وما يلابسها ؛ ويمازجها من الأَضواءِ النيرة الكاشفة لجوانبها وما حولها من الأَشياءِ والأَجواءِ خلال ظلام الليل الدامس » .

المسجد النبوى :

وهذا طراز قيم من طُرُزِ البيان الواصف الجميل يوفق ابن جبير إلى استخدامه توفيقاً ملموساً ، يقول فى وصف بناءِ المسجد الذى شاهده من كَثَبٍ فَأُعجب به كل الإِعجاب :

---

(١٨) الرحلة ص ٩٩ ، ١٠٠ .
(١٩) الرحلة ص ١٦٥ .

« ونصف جدار القبلة الأسفل رخام .. موضوع إزاراً على إزار، مختلف الصنعة واللون، مجزع أبدع تجزيع، والنصف الأعلى من الجدار مُنَزَّلٌ كلُّه بفصوصِ الذهبِ المعروفةِ بالفُسَيفِسَاء .. قد أنتج الصناعُ فيه نتائجَ من الصنعةِ غريبةً . وتضمنت تصاويرَ أشجارٍ مختلفاتِ الصفات مائلة الأغصان بثمرها . والمسجد كله على تلك الصفة »[٢٠]؛ إن وصف ابن جبير هذا تمتزج فيه ألوان من الفن الممتاز والأدب الرفيع العماد.

أرض نجد :

وقد أعجبته أَرضُ نجدٍ، وأعجبه هواؤها العليل، فرسم لذلك « لوحاً » مزاجه فن وأدب وذوق لطيف، قال :

« وما أرى أن فى المعمور أرضاً أفسح بسيطاً، ولا أوسع أنفاً، ولا أطيب نسيماً، ولا أصح هواءًا، ولا أمد استواءًا، ولا أصفى جَوًّا، ولا أنقى تربة، ولا أنعش للنفوس والأبدان، ولا أحسن اعتدالًا فى كل الأزمان، من أَرض نجد »[٢١] .

وهواء بغداد :

كان من ثمار استطابة ابن جبير لهواءِ بغداد عاصمة العباسيين شديدُ إعجابه بهذا الهواء الصحيِّ المنعش البليل . ولذلك قال فيه :

« وكنا سمعنا أَن هواءَ بغداد ينبت السُّرورَ فى القلب، ويبعث النفس دائماً على الانبساطِ والأُنس . فلا تكاد تجدُ فيها إلا جَذْلان طرباً، وإن كان نازحَ الدار مغترباً، حتى حَلَلْنَا بهذا الموضعِ المذكور وهو على مرحلة منها . فلما نَفَحَتْنَا نوافحُ هوائها، ونَقَعْنَا الغُلَّةَ ببردِ مائها –

---

(٢٠) الرحلة ص ١٧٢ .
(٢١) الرحلة ص ١٨٢ .

أَحْسَسْنَا من نفوسنا ، على حال وحشةِ الاغتراب ، دواعِيَ من الإطرابِ؛ واستشعرنا بواعث فرح ، كأَنه فرحةُ الغُيَّابِ بالإِياب ، وهَبَّتْ بنا مُحركاتٌ من الإطراب ، أَذْكرتنا معاهدَ الأَحباب ، فى رَيْعَان الشباب — هذا للغريب النازح الوطن ، فكيف للوافد فيها على أَهلٍ وسكن ؟ !.

سَقَى اللّٰهُ بَابَ الطَّاقِ صَوْبَ غَمَامَةٍ ورَدَّ إِلَى الْأَوْطَانِ كُلَّ غَرِيبِ(٢٢)

وصف خليفة محبوب :

قد لا يكثر ابن جبير من الإطناب فى وصف ما يتحدث عنه . . فقد يلتزم أَحياناً الإِيجاز غير المُخِل . . ولكننا نراه فى بعض الأَحيان يطنب فى الحديث عن شيءٍ إذا ما حَازَ إعجابه العميق . فهو يسترسل فى وصفه واستعراض نواحيه؛ وبخاصة إذا كان قد ملك لُبَّه وبلغ منه فى الإعجاب به مبلغاً عظيماً يقتضى منه هذا الإطناب .

وها هو ذا يطنب فى وصف الخليفة العباسى الشاب الذى هُيِّئَ له أَن يراه فى بغداد رَأْيَ العين ؛ حينما وصل إليها فى طريق عودته إلى غرناطة ، وذلك الخليفة هو « أَحمد الناصر الدين الله ابن المستضيء بنور الله حفيد المقتدر بالله العباسى » .

يقول :

« وقد يظهر الخليفةُ فى بعضِ الأَحيانِ بدجلة راكباً فى زورق؛وقد يصيد فى بعض الأَوقات ، فى البرية ، وظهوره على حالة اختصار تعمية لأَمره على العامة ، فلا يزداد أَمْرُه مع تلك التعميةِ إلا اشتهاراً ؛ وهو مع ذلك يحب الظهورَ للعامة ، ويؤثر التحبب لهم . وهو ميمون النقيبة

(٢٢) الرحلة ص ١٩٢ .

عندهم ، قد استُسْعِدُوا بأَيامه رخاءًا وعدلًا وطيبَ عيشٍ ، فالكبير والصغير منهم داعٍ له »[23] .

ولا يكتفى ابن جبير بما سبق ذكره . بل يمعن فى الحديث عن هذا الخليفة الشاب الذى أُعْجِبَ به خَلْقاً وخُلُقاً وسَمْتاً وزِيًّا ؛ فيقول أَيضاً :

« أَبصرنا هذا الخليفةَ المذكورَ — وهنا ذكر اسمه وبعض نسبه — بالجانب الغربى ، أَمام منظرته ، وقد انحدر عنها صاعداً فى الزورق إلى قصره بأَعلى الجانب الشرقىّ ، على الشط ، وهو فى فَتَاءٍ من سِنه ، أَشقرُ اللِّحْيَة ، صغيرها ، كما اجتمع بها وجهه ، حَسَنُ الشكل ، جميلُ المنْظَر ، أَبيضُ اللون ، معتدلُ القامة ؛ رائقُ الرُّوَاءِ ، سنه نحو الخمس وعشرين سنة ، لابساً ثوباً أَبيض شبه القَبَاءِ ، برسومٍ ذهبٍ فيه ، وعلى رأْسِهِ قَلَنْسوة مُذَهَّبَةٌ مُطَوَّقَةٌ بِوَبَرٍ أَسود من الأَوبار الغالية القيمة ، المتخذة للباس ، مما هو كالفَنَكِ وأَشرف ، متعمداً بذلك زى الأَتراك ، تعميةً لشأْنه ، لكن الشمس لا تخفى وإن سُترت »[24] .

وصف الأميرة المترفة شباباً وملكاً :

وكما أَطنب ، ابن جبير فى عرض مزايا الخليفة الشاب العربى العباسى المترف هو الآخر شباباً وملكاً ومجداً نَسَبِيًّا وحَسَبِيًّا ؛ كذلك نراه يسلك هذا المنهج نفسه فى عرضه لشريط وصف آخر لأَميرة مسلمة غير عربية ؛ مترفة شباباً وملكاً هى الأَميرة سلجوقة بنت الأَمير مسعود السلجوقى وكان ابن جبير قد صحب موكبها الأَميرىَّ مرتين . مرة من مكة إلى المدينة ، ومرة من بغداد إلى الموصل موطنها ؛ يقول فى وصف صحبته الثانية لموكبها الحافل :

---

(٢٣) الرحلة ص ٢٠٣ .

(٢٤) الرحلة ص ٢٠٤ .

« وفى تلك العشية التي رحلنا فيها فَجَأَتْنَا خاتونُ (أي الأميرة) المسعودية المترفة شباباً وملكاً . وهى قد استقلت فى هودج موضوع على خشبتين معترضتين بين مطيتين .. الواحدةُ أمام الأُخرى . وعليهما الجِلَال (الأكسية) المذهبة وهما تسيران بها سير النسيم سرعة وليناً ، وقد فُتِح لها أمام الهودَجِ وخَلْفَه بابانِ .. وهى ظاهرةٌ فى وَسْطِه مُتَنَقِّبَة ، وعصابةُ ذَهَبٍ على رأْسها ، وأَمامها رعيلٌ من فتيانها وجندِها ، وعن يمينها جنائبُ المطايا والهَمَالِيجُ (البراذين) العتاق . ووراءها ركبٌ من جَوَاريها قد ركبنَ المطايا والهَمَالِيجَ على السُّرُوجِ المُذَهَّبَةِ وعَصبن رُؤوسَهن بالعصائِب الذهبيات ، والنسيمُ يتلاعبُ بعذباتِهِنَّ ، وهُنّ يَسِرْن خلف سيدتِهِن سَيْرَ السَّحَاب . ولها الرَّاياتُ والطُّبولُ والبوقاتُ تضربُ عند ركوبها وعند نُزولها » .

ذلك وصف استعراضىٌّ للجمال والأُبَّهَةِ خالصٌ من الشوائبِ والاستدراكاتِ . وبعد ذلك الوصف النضر يقدم لنا ابن جبير ملاحظاته الخاصة فيقول :

« وأَبْصَرْنَا من نخوة الملك النسائِىّ واحتفاله رتبةً تهزُّ الأَرض هزاً ، وتسحب أَذيالَ الدنيا عِزًّا ، ويحق أَن يَخْدُمَها العزّ ويكون لها هذا الْهَزُّ ، فإن مسافة مملكة أَبيها نحو الأَربعة أَشهر ، وصاحب القسطنطينية يؤدى إليه الجزية .. وهو من العدلِ فى رعيته على سيرةٍ عجيبة ، ومن موالاةِ الجهادِ على سنة مرضية »(٢٥) .

وصف نصيبين :

أَضفى ابن جبير على هذه المدينة فيضاً جميلًا من بيانه فقال :

« فخارجها رياضِىُّ الشمائل ، أَندلُسِىُّ الخَمَائل ، يَرِفُّ غضارةً

---

(٢٥) الرحلة ص ٢٠٧ .

ونضارة ، ويتـألَّق عليه رونقُ الحضارة . وداخِلُها شَعَثُ البادِيةِ بادٍ عليه ، فلا مطمح للبصر إليه »[٢٦] .

نقد اجتماعي ساخر :

قد نَلْمَسُ – بعض الأَحيان – روح الغزل البرىء وهو يسيطر على براعة ابن جبير إذا ما عرض له منظر فاتن باهرُ الحُسْنِ على غِرار صُنْعِه فى وصفِهِ موكب الخاتونِ المسعودية ، وقد يسيطر على قلمه آناً آخر وبالمناسبة روحُ نقدٍ هادفٍ ساخرٍ وناعمٍ تشوبه الدعابة عندما يُقَدَّر له أَن يرى أَو يسمعَ ما يستحق توجيه هذا النقد المتسم بالحيوية والإِشراق البيانيين فى رحلته .

يقول عن أَهل الجهات الشامية :

(ومخاطبة أَهل هذه الجهات قاطبةً بعضِهم لبعضٍ بالتمويل والتسويد[٢٧] وبامتثال الخدمة ، وتعظيم الحضرة ، وإذا لقى أَحد منهم آخر مُسَلِّماً ، يقول : جاءَ المملوكُ أَو الخادم برسم الخدمة كِنَايةً عن السلام ، فيتعاطَون المُحَال تعاطياً ، والجِدُّ عندهم عنقاءُ ، مُغْرِبٌ[٢٨] ، وصفةُ سلامِهم إيماءٌ بالركوع أَو السجود ، فترى الأَعناقَ تتلاعبُ بين رفع وخفضٍ وبسطٍ وقبض . وربما طالت بهم الحالةُ فى ذلك ، فواحدٌ ينحطُّ وآخر يقوم ، وعمائمهم تهوى بهم هُوياً .. ! ! وهذه الحالة من الانعكاف الركوعىّ فى السلام ، كنا عهدناه لِقَيْنَاتِ النساءِ ، وعند استعراض رقيق الإماءِ . . . فيا عجباً لهؤلاءِ الرجال ، كيف تحلوا بسمات ربات الحجال ؟ . لقد ابتذلوا أَنفسهم فيما تـأْنَفُ النفوسُ الأَبية منه ،

(٢٦) الرحلة ص ٢١٤ .

(٢٧) يقصد بالتمويل قول بعضهم لبعض (يامولاى) ويقصد بالتسويد قولهم (ياسيدنا) .

(٢٨) يريد أن الجد عندهم مفقود .

واستعملوا تكفيرَ الذمىّ المنهىِّ فى الشرع عنه ، لهم فى هذا الشأْنِ طرائقُ عجيبةٌ فى الباطل ... فيا للعجب منهم إذا تعاملوا بهذه المعاملة ، وانتهوا إلى هذه الغاية فى الأَلفاظ بينهم ، فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم ؟ لقد تساوت الأَذناب عندهم والرؤوس ، ولم يُمَيَّز لديهم الرئيسُ والمرءُوس)[٢٩] .

وصف بارع لأهوال البحر :

بلاغة ابن جبير فى وصف أَهوال البحر التى عانى منه فى رحلته البحرية قادماً إلى مكة . وفى إيابه إلى وطنه ، فيها حيوية تجعل القارىء يشعر بمشاطرته له فى عاطفته ، يقول فى وصف أَحد تلك الأَهوال التى داهمته بالبحر الأَبيض المتوسط وهو فى طريق عودته إلى وطنه :

(وفى يوم السبت العاشر لشعبان المذكور ، والسابع عشر لنونبر ـ نوفمبر ـ انقطع عنَّا برُّ الجزيرة المذكورة، ونحن نجرى بريح شمالية موافقة ، فذئرت (غضبت) وعصفت فطار لها المركب بجناحَىْ شِرَاعِه ، والبحر لها قد جُنَّ ، واسْتَشْرَى لَجَاجُهُ ، وَقَذَفَت بالزبد أَمواجُه ، فتخال غَوَاربَه المتموجة ، جبالا مثلجة) .

وهذا وصف آخر لثورة أَمواج البحر الأَبيض المتوسط عليهم طِيلَة بياضِ النهارِ وسوادِ الليل . قال :

(وأَصبحنا يوم الأَحد المذكور ، والهول يزيد ، والبحر قد هاج هائجُه ، وماجَ مائجُه ، فرمى بموج كالجبالِ ، يصدم المركب صدماتٍ يتقلبُ لها على عِظَمِه ، تَقَلُّبَ الغصنِ الرطيب ، وكان كالسور عُلُوًّا ، فيرتفعُ له الموجُ ارتفاعاً ، يرمى فى وسطه بشآبيب كالوابل المنسكب ..

---

(٢٩) الرحلة ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

فلما جَنَّ الليل اشتد تلاطمه ، وصَكَّت الآذانَ غماغِمُه ، واسْتَشْرَى عصوف الريح ، فَحُطَّت الشُّرُعُ .... الخ)[٣٠] .

وهذا وصف ثالث لأَهوال ذلك البحر المتلاطم .

(ثم انقلبت الريح غربيةً ، وأَنشأَت سحابةً ، فيها رعدٌ قاصفٌ وزجتها ريحٌ عاصف – وتقدمها برقٌ خاطف ، فأَرسلت حاصباً من البَرَدِ ، صبته علينا فى المركب شآبيب متداركة فارتاعت له النفوسُ ثم أَسرع انقشاعها ، وانجلى عن الأَنفس ارتياعها)[٣١] .

وهذا وصف رابع لهولٍ بَحْرِىٍّ مُدَاهِمٍ خطير أَدخل الرَّوع الضخم العميقَ إلى القلوبِ المكلومة ... قال :

(فلما كان عَشِىٌّ يوم السبت ثانى الشهر المذكور اشتد هُبُوبها – أَى الريح – فزجت المركب تزجية سريعة ، فلم يكن إلا كلا ولا حتى أَدتنا إلى أَول المضيق[٣٢] والليل قد جَنَّ . وهذا المضيق ينحصر فيه البحر إلى مقدار ستة أَميال ، وأَضيقُ موضع فيه ثلاثةُ أَميال)[٣٣] .

وصف بلارمة العاصمة :

وهذه صورة فنية استهل بها وصفه لمدينة بلارْمة عاصمة جزيرةِ صِقِلِّيَّةَ إِذْ ذاك ، قال :

(هى بهذه الجزائر أَم الحضارة ، والجامعة بين الحُسْنَيَيْنِ غضارة ونضارة . فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر . ومرَادِ عيش يانع أَخضر ، عتيقة أَنيقة)[٣٤] .

(٣٠) الرحلة ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
(٣١) الرحلة ص ٢٩١ .
(٣٢) مضيق مسينة .
(٣٣) الرحلة ص ٢٩٣ .
(٣٤) الرحلة ص ٣٠٥ .

زى النصرانيات :

وكما تسيطر روح النقد فى بعض الأَحيان على قلم ابن جبير، فكذلك قد تسيطر عليه روح المرح والنسيب فى بعض الأَحيان.. فها هو ذا يقول :

(وَزِىُّ النصرانيات فى هذه المدينة زِىُّ نساءِ المسلمين فصيحاتُ الأَلسن، ملتحفاتٌ منتقباتٌ خرجن فى هذا العيد المذكور - عيد الميلاد- وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللُّحُف الرائقة، وانتقبن بالنُّقُب الملونة، وانْتَعَلْن الأَخفافَ الْمُذَهَّبَةَ، وبرزن لِكَنَائِسِهِنَّ أَو كُنُسِهِنَّ، حاملاتٍ جميعَ زينةِ نساءِ المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر). فتذكرنا على جهة الدعابة الأَدبية قول الشاعر :

إن مَنْ يَدْخُلِ الْكَنِيسَةَ يَوْماً   يَلْقَ فِيهَا جَآذِراً وظِباءَ (٣٥)

إظلام فى الحاضر والمستقبل :

وقد تسيطر على ابن جبير روح (السياسة الإِسلامية) الثائرة على الاحتلال الأَجنبى لديار الإِسلام فيمعن فى النكير على الاحتلال الأَجنبى لديار الإِسلام. كما يمعن فى نقل صورٍ من جوانب المأْساة الماثلة أَمامه كَغُولٍ فاغرٍ فاه الأَهْرَتَ لابتلاع مكاسب حضارة الإِسلام فى الربوع المبتلاة بهذا الدخيلِ الواغل. يتمثل ذلك فى نقله لنا هذه القصة المشبعة بأَلوانٍ قاتمةٍ من الأَسى والكَرْب العظيمِ للمسلمين فى صقلية فى حاضرهم البائس وفى مستقبلهم اليائس، يقول :

(ومن أَعجب ما شاهدناه من أَحوالهم - أَى مسلمى جزيرة صقلية - أَن أَحد أَعيان هذه البلدة : (أَطْرَابِنِش) وجه ابنه إلى أَحد أَصحابنا

---

(٣٥) الرحلة ص ٣٠٧ .

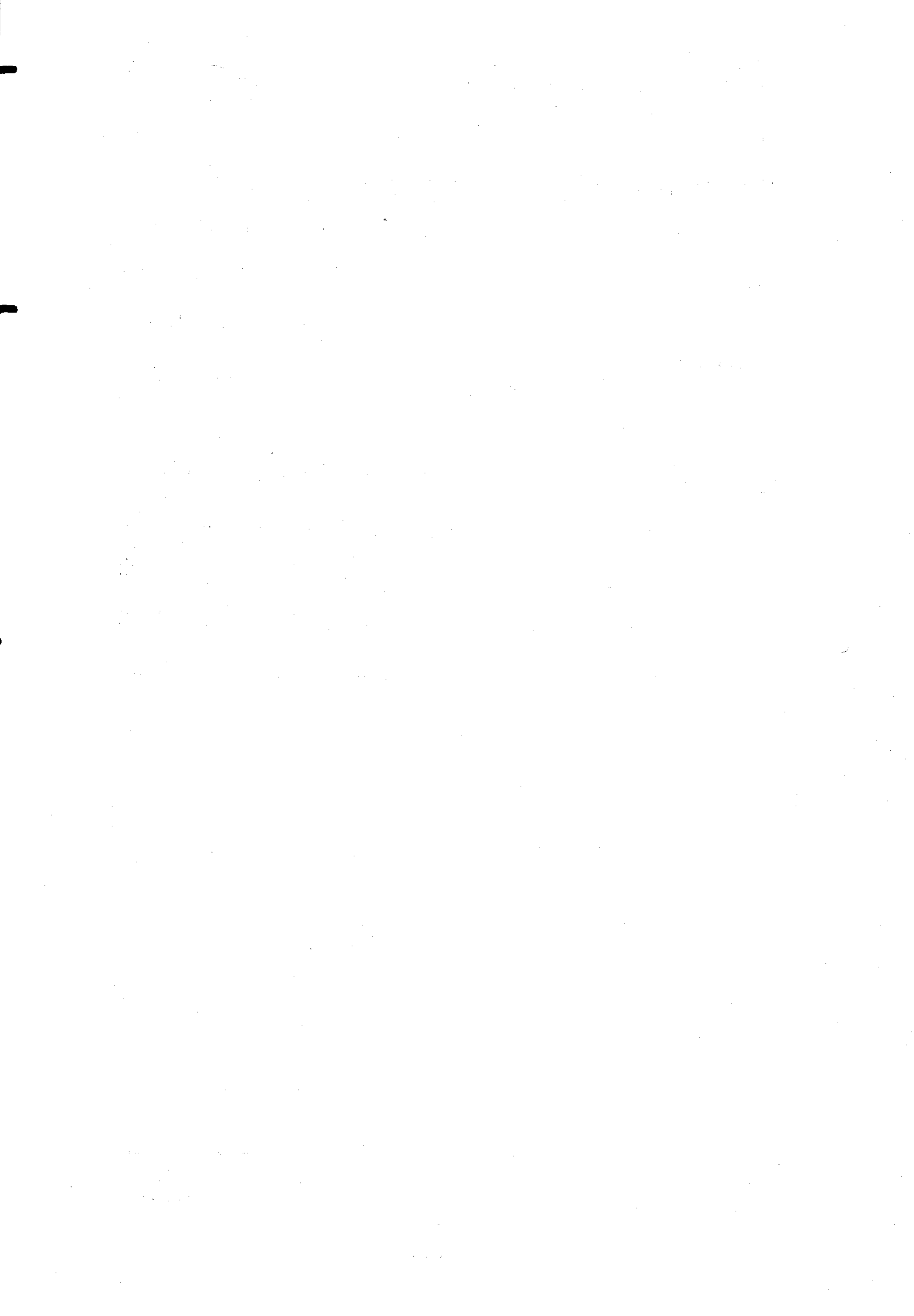
الحجاج ، راغباً فى أن يقبلَ منه بنتاً بكراً صغيرة السن ، قد زاهقت (قاربت) الإدراك ، فإن رضيها تزوجها ، وإن لم يرضها زَوَّجَها ممن رضى لها ، من أَهل بلده ويخرجها مع نفسه راضيةً بفراقِ أَبيها وإخوتها طمعاً فى التخلص من هذه الفتنة ، ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين . . فطاب الأَب والإخوة نفساً لذلك ، لعلهم يجدون السبيلَ للتخلص إلى بلاد المسلمين بأَنفسهم ، إذا زالت هذه الْعُقْلَةُ الْمُقَيِّدة ، عنهم ، فَتَأَجَّر – أى طلب الأَجر من الله – هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك)[36] .

* * *

هذا وليست هذه (النماذج) المقتبسةُ من رحلة ابن جبير فى مواطن متفرقة ومجتمعة – ليست هى كل ما حواه كتاب رحلته هذا من عيون الأَدب الرفيع ومحاسنه الفائقة الرائقة التى انفرد بها دون كثير من الرحلات العربية الإسلامية المعاصرة وغير المعاصرة ، وقد قيل فى القديم : (ما لا يدرك كله لا يترك قله) .

---

(٣٦) الرحلة ص ٣١٦ .



الفصل الثاني والعشرون :

مصطلحات ابن جُبير

أثناءَ دراستى لرحلة ابن جبير استرعى نظرى وجودُ مصطلحات خاصة قد تغمض على بعض أذهان القراء .. وبعض هذه المصطلحات عربىٌّ الأَصل والسِّمات . وقد يكون مهجوراً ، وبعضها أَجنبى دخيل التقطتْهُ ذاكرةُ ابن جبير . إما من وطنه أَو من رحلته . وبعضها عامىٌّ ذو علاقة باللغة العربية الفصحى وقد داخَلَهُ التحريفُ أَو التشويه من الأَقطار والأَقوام الذين يستعملونه .. وقد بلغ مجموع تلك الكلمات (٢١٣) كلمة . وقد أَثْبَتُّ شرح كل كلمة بانفراد . واسْتَعَنْتُ فى هذا الأَمر بثلاثةِ مراجعَ : (أَولها : المصادر اللغوية المعتبرة . وثانيها : القائمة التى وضعها ، فى آخر طبعة دار مصر للطباعة ، الدكتورُ حسين نصار . وثالثها : الشروح والهوامش المذيلة بها طبعة الرحلة بدار صادر – دار بيروت ، ببيروت . وقد ذكر لى الأُستاذ منصور مِهْرَان كمال الدين المقيم بالقاهرة أَن الذى أَثبت هذه الحواشى ووضع فى مقدمة الرحلة المطبوعة ترجمة موجزة لابن جبير هو كرم البستانى . وقد تبدى لى من دراسة قائمة حسين نصار وشروح كرم البستانى أَن هذه الشروح ربما تكون قد اقْتُبِسَ كُلُّها أَو جُلُّها من قائمة حسين نصار .. وأَيدت لى هذه النظريةَ المقارنةُ بين التاريخ المدون فى ذيل مقدمة حسين نصار لطبعة دار مصر للطباعة والتاريخ المدون بطبعة دار صادر – دار بيروت . . فتاريخ الأُولى هو ٢٧ رمضان ١٣٧٤ هـ – ١٩ مايو سنة ١٩٥٥ م . وتاريخ الثانية ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ م . ولا أَكتمُ القارىءَ أَنى خالفت فى شروح بعض الكلمات كلا الرجُلَيْن لأَسبابٍ لغوية أَو علمية أَو أَدبية مُوجِبة . وكان حسين نصار قد رتب الكلمات التى قيد شروحها حسب الحروف الهجائية .

وهو ترتيب قيم مفيد لقارئ طبعة الرحلة التى حققها . وأما كتابنا هذا فلم أُراع فيه هذا الترتيبَ لأَن الرحلة ليست مطبوعةً معه – حتى يكون مفيداً فى مراجعة شروح تلك الكلمات فى صفحاتها المطبوعة على ما فى فصل المصطلحات . . وقديماً قيل : لكل مقام مقال ولكل مقال مقام .

وهذه هِى الكلمات وشروحها المدونة فى هذا البيان الخاص بهذا الكتاب .

الكلمات	تفسيرها
التَقْيِيد، المُقَيِّد :	التقييد : التدوين . المُقَيِّد : المُدَوِّن يعنى بها ابن جبير نفسه (راجع الصفحة ٧ من رحلة ابن جبير طبعة دار صادر ، وعن المقيِّد راجع الصفحة ٢٢ من نفس الطبعة.
مُلَجِّجُون :	خائضون لِلُّجَّة ، ويبدو لى أَن هذه الصيغة بذاتها ومعناها موجودة أَيضاً فى رحلة القاسم التُّجيبى السِّبْتى . (مستفاد الرحلة والاغتراب) وحُرِّفَتْ فى الطبعة التونسية سهواً إِلى صيغة أُخرى هى (ملحجون) بحاءٍ فجيم ، وفسرت فى الهامش بمعنى الضيق صفحة ٢١٣ . ومن دلائلنا على تحريفها أَولًا ورود صيغة لَجَّجَ فى نصوص هذه الرحلة (ثم لججنا من الجدير المذكور فى عشىّ يوم الأَربعاءِ) صفحة ٢١٢ . ثانياً بمقارنتنا بين النصين المثبتين فى

الكلمات	تفسيرها
	رحلتى ابن جبير وابن يوسف ، وهما فى رحلة ابن جبير : (فأَخذنا مُلَجِّجِين . وأَقرب ما نؤمله من الْبَرِّ إلينا جزيرة إقريطش) صفحة (١١) طبعة دار صادر . ثم قول ابن يوسف فى رحلته : (ثم أَقلعنا منه ملججين – لا ملححين – فلما توسّطنا الطريق مال علينا البحر أَشد) صفحة ٣١٣ طبعة تونس– وليبيا – بمقارنتنا بين النصّين اتضح أَنهما من مادة واحدة هى (لَجَّ) أَو (لَجَّجَ) هذا من جهة ، ومن جهة أُخرى ليس معنى (مُلَجِّجِينَ) بجيمين كما فسرها مُهَمِّشا رحلة ابن جبير : حسين نصار ص٦ ، وبعده مُهَمِّشُ طبعة دار صادر ببيروت بـ (جَادِّينَ) صفحة ٦ و ١١ بل إن معناها اللغوىَّ ، المراد منها فى كلتا الرحلتين هو : « خائضين لجة البحر » فلقد نصّ القاموس المحيط على ذلك ، حيث قال : (مادة « لجّ » : (ولَجَّجَ تلجيجاً – خاض اللُّجَّة). وتوافق الشرحين يدل على أَن مُهمِّش ط دار صادر أَخذ المعنى وغيره من حسين نصار .
النَّاضُّ :	الدرهم والدينار .
الْمُرَقَّب :	المحروس (من الرقابة) .

الكلمات	تفسيرها
اسْتُوْدُوا :	أُعيدت لهم الزكاة .
الاحتفال :	الازدحام .
المعارج :	السَّلالم .
المحارس : جمع مَحْرَسٍ :	الأَماكن المخصصة للدارسين والزهاد والمسافرين والفقراءِ .
الإِجْرَاءُ :	الراتب .
يتنزهون :	يترفعون (من « نزه » بمعنى : تباعد عن كل مكروه) .
الوظيف :	(الرزق الْمُجْرَى للعامل مقابل عمله من « وظف » بمعنى ما يقدر لك فى اليوم من طعام أَو رزق أَو نحوه) .
رسومهم :	أَجسامهم .
مساجد مُرَكَّبَةٌ :	مزدوجة : فيها مسجد للعبادة ومدرسة للقراءَة .
يُطَفِّفُ :	لا يَعْدِل .
أَتْوَارٌ :	آنية من الصُّفْر ، ويَقْصِدُ بها الشمعدانات (وهى الآنية التى تحمل الشموع الكبيرة فى المساجد) .
المصنع :	المبنى سواءٌ أَكان قصراً أَم حصناً . واستعمله مرة أُخرى فى معنى : (ما يجتمع فيه ماء المطر) كالحوض .
يصف الأَشخاص :	يعكس صورها .

الكلمات	تفسيرها
الأَسنمة :	جمع سنام : ما يُرفع ، أو يُبنى فوق القبر.
شرب :	نوع من الحرير .
يُحَلِّقُونَ :	يعقدون حلقات الدروس .
التَّأَجُّرُ :	طلب الأَجر من الله تعالى .
المارستان :	المستشفى ، وهى كلمة فارسية الأَصل .
المحضرة والمحاضر :	المدرسة والمدارس .
الْحَدَثَانِيَّةُ :	نسبة إلى حدثان الدهر : حوادثه وتقلباته.
الْبِيلَةُ :	حوض النافورة . واستعمله مرة أُخرى فى معنى : (الحوض) .
المزلفة :	الْمُقَرَّبَةُ .
عُمِّرَتْ :	جهِّزت .
الْبَرْبَا :	معبد أَو مقبرة مصرية قديمة ، وهى من الكلمات المصرية القديمة وتجمع على بَرَابِى .
مُرَكَّنَة :	ذات أَركان .
اللازوردية :	الزرقاءُ فى خضرة.
الْإِشْفَى :	المثقب أَو المخرز .
خَطٌّ بالمسند لا يفهم :	ظَنَّ ابن جبير أَن الخط الذى على الْبَرْبَا – المقبرةِ المصريةِ القديمةِ فى مدينة إخميم – من خطّ المسند اليمنىّ ، لأَنه لم يسمع بالخط الهيروغليفى ، إذ لم يُسْتَكْشَفْ بَعْدُ ، فسماه باسم (المسند) الذى لا يفهم . ووهم

الكلمات	تفسيرها
	كاتب الهوامش فى طبعة رحلة ابن جبير بدار صادر حيث فسر قوله : (الخط المسند) بأنه أراد به الخطَّ الهيروغليفىّ. وهكذا اشترك فى الوهم كل من ابنِ جبير ومُهَمشِ كتابه : صفحة ٣٧ .
الْعَكْمُ :	ما يجمع فيه الثياب أو غيرها . ويسمى فى عامية الحجازيين المنقولة من لغة أجنبية : (البقجة) أو (البقشة) ، أو (البكشة) — بضمّ الباءِ ، وسكون ما بعدها فى الكلمات الثلاث .
الْأَتِيُّ :	السيل المفاجئُ .
الْمَخْطَر والمَخَاطِرُ :	المجتمع والمجتمعات ، وموضع الاجتماع ، ومركز البيع والشراء .
فَوَّزَ :	اخترق المفازة التى هى الصحراء لا ماءَ فيها .
الرَّبَضُ :	ما هو حول المدينة ، من بيوت ومساكن ، وجمعها : أرباض وهو ما يعرف باسم : الضاحية .
هَدْءٌ من الليل :	طائفة منه .
قال :	ارتاح (من القيلولة) .
الْمَعِينَةُ :	الماءُ الجارى الْعَذْبُ (من الْمَعِين) بفتح الميم .
الأشاكيز :	جمع أشكز : شيءٌ يشبه الأَديم ، تُوثَّقُ به السروج .

الكلمات	تفسيرها
الْأَغْزَازُ :	جمع غُزٍّ : جنس من الترك ، ويعنى بهم قوم صلاح الدين .
الزُّعاق :	الماءُ الشديد الحرارة لا يطاق شربه .
الْوَضَحُ :	وسط الطَّريق ومحجته .
تَعَسَّفَ الصحراءَ :	تخبط فى السير فيها على غير هُدًى .
الْمُسْتَحِيلَةُ :	المتغيرة .
الدَّرْس :	الدَّوْس .
التحليق :	التطواف . والسير فى طريق دائرىّ .
حَلَقٌ فى وسطه قبة :	جدار دائرىٌّ .
مُسْتَنَابُه :	يرى الدكتور حسين نصار أَن معناها : محل إقامته الرسمِى مع الوالى فى البلد . وربما يكون معناها : محل اسْتنابته مع الوالى فى البلد كما رآه شارح هذه الكلمة فى هامش ص ٤٨ من طبعة دار صادر لرحلة ابن اجبير . وهذا التفسير يوافقه سياق الكلام ، ويؤيده واقع الحال ، فقد نَصَّ كتاب (مستفاد الرحلة والاغتراب) على أنه بِعَيْذَابَ كان يقيم عاملان أَحدهما من قبل السلطان ، والثانى من قبل ملك الْبُجَّةِ . . صفحة ٢٠٦طبعة تونس .
بَحْرُ فِرْعَوْنَ :	هو البحر الأَحمر . وقد وردت إشارة فى

الكلمات	تفسيرها
	كتاب (مستفاد الرحلة والاغتراب) للقاسم التُّجيبيّ السِّبْتِيّ – إلى هذا البحر ، فنسبه إلى فرعون أيضاً ، وذلك فى قوله : (وأرانا أهواله الفرعونية سلط الله عليه اليبس) ص ٢١٢ طبعة تونس .
طَنْتَدَدة :	هى طنطا : البلد المعروف بمصر . وكان اسمها هو ما ورد فى رحلة ابن جبير ، ثم خفَّف إلى طنطا على ما يعرف به اسمه اليوم .
المجهلة :	الأَرض التى لا يُهْتَدَى فيها .
يَضْحَلُ :	فسرها صاحب هوامش طبعة دار صادر بمعنى : (يرق) ولا يصح هذا ، لأَن سياق الكلام يمنعه . فإن ابن جبير يقول : (يكثر فيها الماءُ ، ويضحل علينا) فسياق الكلام يقتضى أَن يكون معنى (يضحل): يقلّ . لأَنه يقابل كلمة (يكثر) قبله . وقد وقد ورد فى القاموس قوله : (الضحل : الماءُ القليل على الأَرض لا عمق له) .
مُكِنَّةٌ :	ساترة . من صيغة : (أَكَنَّ) الرباعية : أى سَتَرَ . وفسّرها صاحب هوامش رحلة ابن جبير ، فى طبعة دار صادر بقوله : (مَسْتُورة) . وقد يصح هذا المعنى . لأَنها

الكلمات	تفسيرها
	إذا كانت مستورة من الرياح فإنها ـ أى الرياح ـ لا تزعجهم. ولكن بشرط فتح الكاف.
سَنَحَت الْجَلْبَةُ :	فسر صاحب هوامش رحلة ابن جبير (سنح) بمعنى (لصق) بالأَرض . وهو المتبادر من سياق الكلام . والجابة : السفينة فى كتاب الرحلة .
يُسَنِّيهِ :	يسهله ويفتحه . وفسّرها صاحب هوامش الرحلة بقوله : (يسهله وييسره) والسياق واللغة يقضيان ، أَن يكون تفسيره ، كما أَوضحناه .
الزِّمام والأَزِمّةُ وزمامُ الدار :	لعله يريد السجل ، والسجلات . وزمام الدار هو الخادم المكلف بالإشراف على الدخل والخرج .
الْمُبَوَّأُ :	المنزل .
الْمَضَاوِئُ :	مواضع الإضاءة .
التكفيف :	تحشية الموضع بالحجارة أَو غيرها (من كفَّة القميص) وهو ما استدار حول الذيل . ووهم صاحب هوامش (طبعة دار صادر) على رحلة ابن جبير فقال : التكفيف لفظة عامية يراد بها ما يكف من الثوب ، أَى حاشيته ص ٦٢ .
يُحْجَرُ :	يجعل عليه سور أَو حاجز . من احتجر

الكلمات	تفسيرها
	الأَرض : ضرب عليها مناراً على ما ورد فى القاموس المحيط – (مادة حجر) .
التَّوريق :	نَحْتُ صُوَرِ الأَوراق .
التقضيب :	نَحْتُ صور القضبان .
التشجير :	نحت صور الأَشجار .
الْجَلَمَانِ :	الْمقَصُّ .
الْبَيْدَق :	البوتقة .
تَشِفُّ ، وأَشفّ :	تزيد ، وأَزيد .
الشارة :	الهيئة واللباس .
يَفْتَخُ :	يثنى ويليّن .
الكرزيّة :	نوع من العمائم .
وحلبته تحفّ به :	الحلبة هنا : الجماعة .
الصفح :	الجانب والسَّفح .
العمود الفحل :	الفحل : بمعنى الْكُرَةِ التى هى فى أَعلى العمود . . وفى مكان آخر بمعنى القبة .
قَرْنَصَةُ الخشب ، وبديعة القرنصة :	قرنصة الخشب : نحته . وبديعة القرنصة : جميلة الحلية ، بارزتها .
مُشَرْجَبٌ ، والشَّراجيب :	مُشَبَّكٌ على هيئة مربعات صغيرة . والشَّراجيبُ : الشُّرُفُ .
التَّأْرِيج :	فوح الرائحة الطيبة .
يُجَمِّعُون :	يُصلون الجمعة .
المرجع – والمراجع :	المرجع : مقياس للأَراضى ، كان يستعمل فى المغرب . والمراجع : مقاييس منه .

الكلمات	تفسيرها
الْمَرَاكِزُ :	آنية لغسل الثياب .
مُسْتَافُ أَخْلَاقِ الطريق :	المستاف : الشَّامُّ . أَخلاق الطريق ، جمع خَلِقٍ : القديمُ .
القضافة :	النحافة .
يَعَضُّهُ :	يمسك به .
يَنْشَبُ :	يعلق .
ليس لِرِشْدَةٍ :	أى ابن زنا .
جَلْبُ الهند :	ما يجلب منها من البضائع .
السَّلْجَمُ :	اللِّفْتُ .
الزَّحْمُ :	التخمة من الدسم .
البصارة :	المعرفة .
الْحَرَّابَة :	حاملو الحراب : حرس أمير البلد .
أَحَذُّ يَدِ القميص :	سارق .
زاد عذوبة ولم يكن قَبْل بصادقها :	صَادِقُها هنا : بمعنى شديدِها ، أى العذوبة
الطوامير :	جمع طامور ـ الطامور، والطومار : الصحيفة (القاموس المحيط مادة طمر) .
الأَصْدَرَانِ :	عِرْقَانِ تحت الصّدغين .
مُنْصِلُ الأَسنَّة :	مزيل نصالها وسُمِّىَ شهر رجب باسم (منصل الأَسنة) لأَن القتال كان محرماً فيه .
شهر الله الأَصمّ :	هو رجب أَيضاً . وسمى بالأَصم لأَنه كان لا يسمع فيه صوت السلاح ، لأَنه شهر حرام فيه القتال .

الكلمات	تفسيرها
الدَّبَادِبُ :	نوع من الطبول ، مفرده : دبداب .
المثاقفة :	المغالبة بالسلاح .
الْحَجَفُ :	جمع حَجَفَة : التُّرس من جلد .
يَسْتَجِنُّونَ بها :	يجتمعون بها .
اللَّقْفُ :	التناول بسرعة .
انْجَفَلَ النَّاس :	انقلعوا فمضوا .
فَتَصُوبُ :	تصوب : مضارع (صاب) المطر : انصبّ .
ينقرون بالسجود نقرا :	يسرعون بالسجود كنقر الدِّيَكَةِ .
القطَّانون :	الصُّنَّاعُ الذين يندفون القطن ، ووهم صاحب الحواشي على طبعة دار صادر من رحلة ابن جبير فقال فى تفسير (القطانين) : هم بائعو القطن . وابن جبير هنا يشبه القسيَّ العربية الكبار بقسيِّ القطانين الذين يقومون بِنَدْفِ القطن بها . ويُسَمِّى أَهلُ المدينة (نَدْفَ القطن) : نَتْفَ القطن . يقلبون الدال تاءًا ، لقرب مخرجيهما مثل (الفنادق) تقلب دالها تاءًا فيقال فيها : (الفناتق) كما ورد فى المراجع اللغوية .
المرقبة :	المكان المرتفع يعلوه الرقيب .
ربما دخل معهم فى عرض العامة :	عرض العامة : معظمهم .
السِّبَالُ :	جمع سَبَلَةٍ : مقدِّم اللحية .

الكلمات	تفسيرها
الَّا كلا ولا :	أَى مدة وجيزة من الزمن .
الوجبة :	السقطة .
الخنانيص :	جمع : خِنَّوصٍ : أَولاد الخنازير .
تلوّم أَهل القافلة بهما :	تلوّم : انتظر وتمهل .
الخانقة :	الزاوية ، التَّكيّة .
جوائز الخشب :	الأَخشاب المعترضة بين حائطين .
الْقِصَابُ المشرفة :	لعله يريد : بيوت القصب الذى هو الخوص الذى ذكر ابن جبير فى محل آخر أَن أَهل جُدَّة يبنونها بجانب سطوحهم من الخُوص . وواضع الهوامش على طبعة رحلة ابن جبير بدار صادر يقول : (لم نجد معنى للقصاب يوافق الكلام ، ولكن قوله فيما بعد « تفتحت طيقانا » ، يدل على أَنه أَراد بها غرفاً) وأَقول تعليقاً على ما ذكر : إنه أَراد بها غرفاً عالية متخذة من القصب ، على غرار ما شاهده ابن جبير ، وتحدث عنه فى رحلته عن مساكن مدينة جدة العلوية المتخذة من الخوص حسب ما مر بنا إيراده فى هذا الكتاب فى الحديث عن جدة . والخوص : ورق النخل ، والقصب : كل نبات ذى أَنابيب .

الكلمات	تفسيرها
	وإذا كان فى علالى بيوت جدة بيوت خوص ، فابن جبير هنا يحدثنا أن بأعلى قلعة حلب (العلالىَ المنيفةَ والقصابَ المشرفةَ قد تفتحت كلها طيقاناً)[1] والله أعلم .
حتى اتصل بسمك السقف :	السّمك هنا : الارتفاع .
الأَراقم :	الحيّات .
وَأُنْزِلَتْ جُدُرُهُ :	رُصِّعَتْ .
ثَوَّبَ :	رجَّعَ الأَذان .
الينبوع :	ينبع النخل .
غَاشِيَتُهُ :	الذين يغشون داره : يدخلون عليه من الأَتباع
الْكَهْلَاءُ :	الموقرة .
السَّلِيطُ :	الزيت .
عَقَدَ حَبْوَتَهُ :	جلس وجمع بين ظهره وساقيه بعمامة أَو ثوب .
جمد فى شؤونه الدمع :	الشؤون : مجارى الدمع .
ومَسْقط شِلْوِ الْحُسْنِ :	الشلو بالكسر :العضو والجسد من كل شىء .
على حَلَقٍ كبير :	الحلق : الحظيرة ، أَو الحائط الدائر .
الأَحوال :	أَراد بها الثَّرَوَاتِ .
الدَّرَقُ اللَّمطيّة :	تروس منسوبة إلى لمطة ، من بلاد البربر .
وكل ذلك واسع :	جائز .
الطبول تَهِرُّ وراءه :	تصخب وتُدَوِّى .
إلى هؤلاءِ الأَعاجم الأَغْتَام :	الأَغْتَامُ جمع أَغتم : من لا يفصح شيئاً فى

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٢٦ طبعة دار صادر ببيروت .

الكلمات	تفسيرها
	كلامه، والجمع غُتْمٌ (القاموس المحيط مادة غتم)
الْبَرِيجُ :	الإعلان والدعاية : (كلمة عامية) .
الْمُرْمِلُون :	الذين نفد زادهم .
فمشت الجمال فيها دون مُقَطّرة :	مقطّرة : مصفوفة فى قطار بعضها وراء بعض .
وتُكْسَى بغلالةِ جَيَّار :	يريد بالجيَّار : الكلس قبل إطفائه . وهو الجير ، أو صانع الجير ، أو الداهن به . (وإذا خلط الرماد بالجير فهو الجيَّار) (لسان العرب) مادة (جير) .
موضوع إزاراً على إزار :	الإزار هُنا حائط يغطى آخر من أجل دعمه وتقويته .
الْقُعْدَد :	قريب الإباءِ من الجد الأكبر .
الْكُدْيَةُ :	الشَّحاذة .
الإرمال من الزاد :	نفاد الزاد .
الاستطاع :	الاستطاعة . وربما كانت هذه الصيغة عامية أندلسية بمعنى (الاستطاعة) أو اصطلاحاً خاصًّا استعملهُ ابن جبير فى المعنى المذكور .
الشَّيْهَم :	ذكر القنافذ، أو ما عظم شوكه من ذُكْرَانِها .
ثمانين وما أشبه :	يعنى سنة ٥٨٠ هـ الموافقة لسنة ١١٨٤ م بحذف رقم الخمسمائة اختصاراً للعلم به ، لسبقه فى الذكر والاكتفاء بالرقم الذى قبله كما يفعله بعض المعاصرين أيضاً فى حساب تواريخ السنين والقرون .

الكلمات	تفسيرها
وحسبك من شرف موضوعها :	يعنى موضعها .
إنحاء الحوادث عليها :	معاودتها إياها .
المستوفز :	يقصد بالمستوفز : الماضىَ المستعجل .
ويعلّل حسن المسموع :	يضعف .
ونغمات محرجة مطربة :	أرد بمحرجة : مُشْجِيَة .
ودخل المدرسة النظامية بهزٍّ عظيم وتطريف آماق :	الهزُّ : التنشيط بالحداء – تطريف الآماق : إصابتها بشىءٍ فتدمع . ولعله يشير إلى أن موكبه كان نشيط الحركة حتى إن العيون تطرف إعجاباً به .
رضىّ الطباع مهيارىّ الانطباع :	أى شبيه بالشريف الرضىّ الشاعر المعروف ، فى طباعه . مهيارىّ الانطباع : شبيه بمهيار الدَّيلمى الشاعر ، فى انطباعاته .
فتمادى على هذا السِّينِ :	تمادى فى الكلام ذى السجع ، بحرف السين .
المجابيب :	جمع مجبوب : الخصيان من الناس .
اجتمع بها وجهه :	أراد بها : ملأَت لحيته وجهه .
أَسْأَدْنَا :	أَسْرَعْنَا فى السير ، أَو سرنا الليل بدون توقف أَو سرنا فى الليل والنهار معاً .
وفى أَعلاها خصّة رخام :	أَراد بالخصّة : الحوض .
على أَن القدر المحمود لم يسبّب لنا إلا صحبة الأَشْبَهِ منهم :	الأَشبه هنا بمعنى الأَحسن .
الشمسيَّة :	النافذة : نسبة إلى الشمس التى تدخل منها فى الغالب .

الكلمات	تفسيرها
وثمانى أَرجل جِصِّيَّة :	الأَرجل هنا الْعُمُد جمع عمود .
الصّفَّارون :	النحَّاسون الذين يصنعون الصفر أَو يجلونه . والصفر هو النحاس .
الكمَّادون :	صابغو الثياب . من الكمدة التى معناها اللغوى تغيير اللون .
النطَّافون :	صانعو أَو بائعو الحلوى المعروفة لديهم باسم (الناطف) .
الخرزيون :	بائعو الخرز .
المقصورة الصحابية :	المقصورة التى وضعها معاوية بن أَبى سفيان بجامع دمشق وهى أَول مقصورة وضعت فى الإِسلام .
الْمَسُّوفيّون :	نسبة إلى مدينة (مسّوف) فى بادية التكرور .
حفيلة البناءِ :	بناؤها كثير ، مبالغ فيه .
أَحفلهما :	أَملؤهما .
وهى سرارة أَرض فلسطين :	سرارة الشىءِ أَطْيَبُهُ .
الضَّبَّة :	حديدة عريضة يقفل بها الباب ، ويسمى الحجازيون بالضبة نوعاً خشبياً من الأَقفال ، له مفتاح خشبي طويل فيه مسامير كالأَسنان يفتح به القفل الخشبىُّ الطويل بإِدخاله فيه مع رفع أَسنانه إلى فوق حتى تصل إلى محل الْقَفْل والفتح فيجرّ المفتاح إليه

تفسيرها	الكلمات
فينفتح القفل المعروف باسم الضبة لديهم إلى عهد غير بعيد .	
معناها : لا تقدَّر بثمن لغلائها وارتفاع مقدارها .	ذخائر لا قيمة لها :
الْمُيَّدَ جمع مائد ، والمائد مِنْ : مَادَ ، بمعنى تَمَايَلَ واهتز . قال الله تعالى : (وألقى فى الأَرض رواسى أن تميد بكم) .	وريح الْمُيَّدِ تكاد تطير بنا :
عادة من الاحتفال .	رتبة عجيبة :
أراد بالخطط ألقاب الشرف كصدر الدين وشمس الدين .	ويُحَلُّونَهُمْ بِخِطَطِهِمْ :
ما بين الأُذنين من مؤخرة الرأس .	القذال :
يقصد بها قول الناس لبعضهم يومئذ : (يا مولا ى) . وشتان بين معنى التمويل هذا ، وقول الناس فى عصرنا : التمويل وهم يريدون به : الرِّفد بالمال .	التَّمويل :
يقصد بها قول الناس لبعضهم : (ياسيدى) .	التسويد :
مفردها (سويرية) تصغير (سارية) .	سويريات :
يقصد بهم (الأَسْرَى) جمع عَانٍ .	العُنَاةُ :
يقصد به النسبة إلى هارون الرشيد، الخليفة العباسىّ .	مذهب رشيدىّ :
يقصد به النسبة إلى جعفر المتوكل أو جعفر البرمكىّ .	مذهب جعفرىّ :

الكلمات	تفسيرها
صرف عليه :	يعنى بهذه الجملة : باعه .
على قدم الرحلة :	أى متأهبون للرحيل .
إلى ما اكْتُفِتَ من الأَمتعة :	أى أُخِذَ من الأَمتعة . وفى القاموس : واكْتَفَتَ المال : اسْتَوْعبَهُ أَجمع .
شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التدويح :	التدويح صيغةمشتقة من الدَّوْحَةِ : الشجرةُ العظيمةُ المتسعة .
الحراميّة :	اللصوص . وهى لفظة عامية شائعة قديماً ، وقد استخدمها ابن جبير ويظهر من كلامه أَنها كانت مستعملة فى الأَندلس استعمالها فى المشرق لهذا المعنى وهى باقية حتى الآن . اللَّهم الَّا أَن تكون من جملة ملتقطات حافظته من بلاد المشرق التى مرّ بها أثناءَ . رحلته وبخاصة فى الحرمين أَو مصر .
الْحَوَّاسة :	لعلها جمع حَوُوسٍ بمعنى الشجاع الكثير القتل .
أَسْجَحُ :	أَلْطَفُ وأَحسنُ . . وفى القاموس : الأَسجح : الأَحسن المعتدل .
كلها فى ستائر مشيدة :	يريد بالستائر : الحيطان .
قد بُطِسَ ورُجِسَ :	بُطِسَ : معربة عن الإسبانية بمعنى : عُمِّدَ ، ورُجِسَ من الرجس هى فى الإسبانية
الْقَوْمُسُ :	(قوميز) ، فهى ماخوذة منها . والقومس هو الكونت .
البلغريّون :	فسرها ابن جبير نفسه بأَنهم حجاج بيت

الكلمات	تفسيرها
	المقدس من النَّصارى وهى صيغة إسبانية معربة .
الفنك :	حيوان ذو فروة تعد أَفضل أنواع الفراءِ .
الْقُرَيَّة :	عود الشراع الذى يُجعل فى عرضه من أعلاه.
الأَرْدَمُون :	هو نفس الْقُرَيَّةِ السابقِ تفسيرُها وهى ليست عربية .
العشارى :	زورق النَّجاة .
الدَّلُّون :	شراع صغير .
الغلَّينىّ :	هواءٌ ساكن وهى معربة .
فَذَئِرَتْ وعصفت :	ذَئِرَتْ : غضبت وهاجت .
مُصَلَّبَة :	موضوعة على شكل صليب . وبذلك تمتلئُ بالريح .
الرائس :	رُبَّانُ المركب .
غُلْيَام :	غليوم الثانى ملك صقلية ، من سنة ١١٦٦م إلى ١١٨٩ م .
المطبخة :	المطبخ .
المرتسمون بخاصته :	أَهل بطانته .
نَفَسٌ نارىٌّ :	تعبير عربى مستحدث للغاز المستعمل اليوم فى الاستصباح ، وهو كثير فى البراكين ، لاختلاط الهيدروجين بالكربون .
الكوس :	نوع من الطبل .
حَمَّةٌ :	الْحَمَّةُ : كل عين ، ماؤها حار ، ينبع يَسْتَشْفِى منها الْأَعِلَّاءُ جمع عليل كخليل

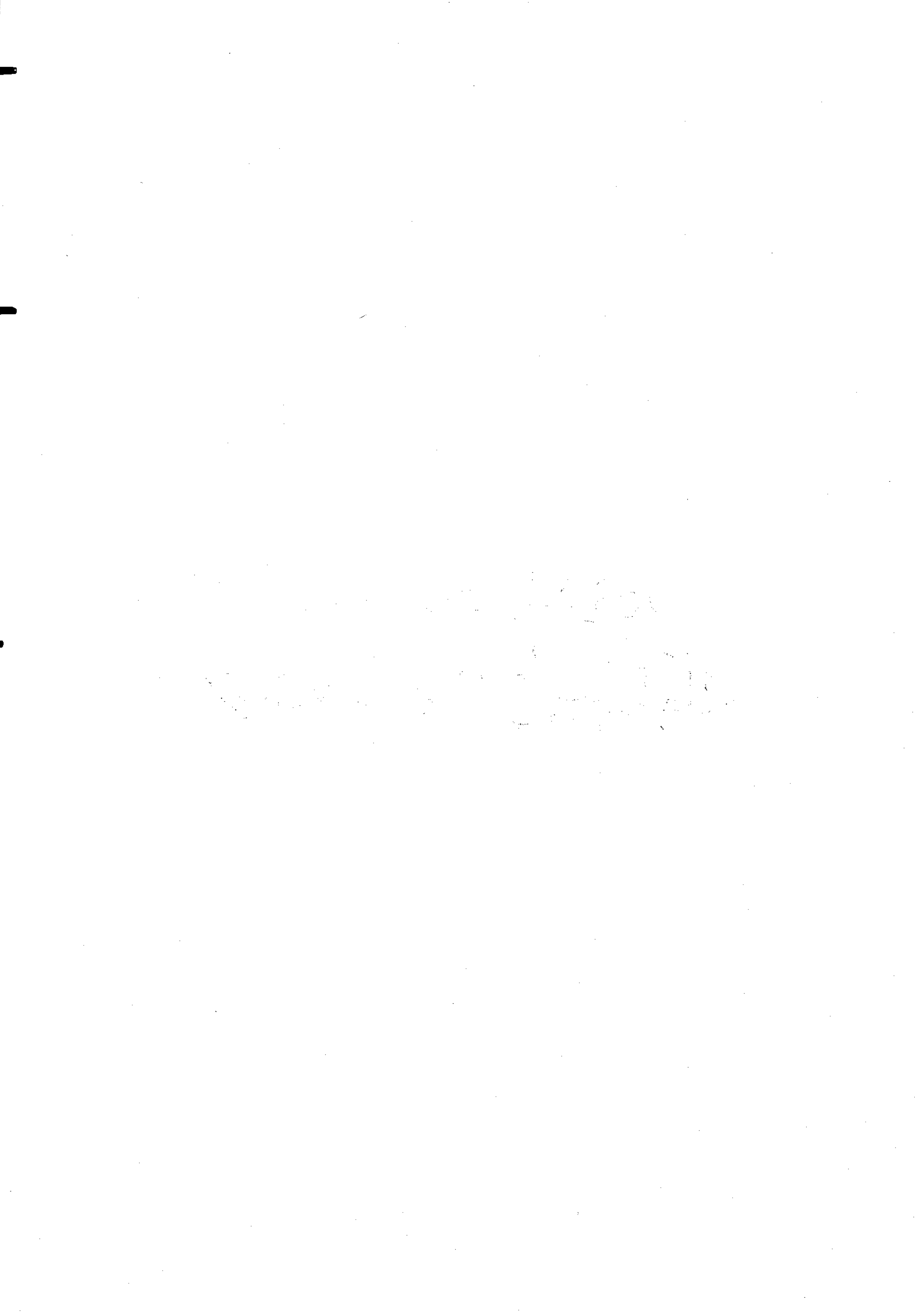
الكلمات	تفسيرها
	وأَخلاء ـ (القاموس المحيط مادة حَمّ) والحمة فى الشام هى اسم علم مأْخوذ من هذا الوصف لأَنه ينطبق عليها .
الكذان :	الحجارة الرخوة .
المراتب :	حُجَرٌ خلفية تُتخذ للخدم .
الإِقطاعات :	ربما أَراد بها الأَموال الموقوفة على الكنائس.
وَقِيدُه :	الشموع التى يوقدونها .
شريب :	يصلح للشرب .
جبر الله كل غريب إلى وطنه :	(جبر) هنا بمعنى (أَعاد) أَى جبر الله خاطره بإِعادته سالماً إِلى وطنه .
وعدد أَجفانه :	الأَجفان هنا بمعنى (المراكب البحرية) الحربية[٢] .
وثقف الابن المذكور :	(ثقف) هنا بمعنى (اعتقل) .
الحصاة :	العقل .
قد زاهقت الإِدراك :	زاهقت هنا بمعنى (قاربت) . وربما كانت صحة الكلمة : (راهقت الإِدراك) لأَن معنى (راهق الغلام : قارب الحلم) (القاموس مادة رهق) .
صَقَعَ :	انحنى انحناءًا كبيراً (عامية لعلها أَندلسية) .
ريح شديدة خرق لها المركب :	خرق هنا بمعنى (أَسرع) .
الجِلَاب والْجَلْبَةُ :	الجِلاب بكسر الجيم وفتح اللام وتخفيفها بعدها أَلف فباءٌ موحدة ، هى فى رحلة ابن جبير : جمع (جَلْبة) ، على وزن (ظبية)

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣١٠ طبعة دار صادر .

الكلمات	تفسيرها
	والجلبة عنده السفينة البحرية التى تحمل الناس والسلع معاً .. ولم أَر هذه الصيغة لغيره من الرَّحَّالة المغاربة الأَندلسيين الذين اطلعت على رحلاتهم ، فهم لا يكتبون فى كتب رحلاتهم ، لا صيغة الجلبة ، ولا صيغة الجلاب . مع أَن بعضهم – وهو الرحالة القاسم ابن يوسف التُّجيبيّ السبتىّ حج فى سنة ٦٩٦ ﻫ بعد حج ابن جبير بـ ١٢٦ عام ، وابن بطوطة كذلك لم يذكر اسم الجلبة ولا الجلاب فى رحلته . ولربما كان ابن جبير قد التقطت ذاكرته المرهفة هذه الصيغة عن أَهل مدينة عيذاب ، إِحدى موانىء البحر الأَحمر ، وقد اقتصر ذكره لها على حديثه عن رحلته فيما بين عيذاب وجُدَّة . وكان ذكره لهذه الصيغة ومشتقاتها اثنتى عشرة مرَّة ، تارة يذكرها بالمفرد (جَلْبَةَ) وأُخرى بالمثنى (جلبتان) أَو (جلبتين) . وطوراً بالجمع (جِلَاب) و (جُلُب) . وبعد انتهائه من الحديث عن رحلته البحرية من عيذاب ، حتى جُدَّة لم يعد إِلى ذكر صيغة الجلبة ومشتقاتها المذكورة آنفاً حتى آخر كلمة من كتاب رحلته .

الفصل الثالث والعشرون

ترجمات كتاب رحلة ابن جُبير وطبعاته



عقدنا هذا الفصل ، إتماماً للفائدة ، واستكمالًا لحلقات البحث فى رحلة ابن جبير من جميع جوانبها .

لقد ترجمت الرحلة إلى لغتين هما: اللغة الفرنسية واللغة الإيطالية فكان أول ما ترجم منها إلى الفرنسية القسم المختص بجزيرة صقلية : ذلك القسم الذى كان تحقيقُه للأحوال السائدة فى هذه الجزيرة إبَّانَ قدوم ابن جبير إليها – أمراً انفردت به الرحلة عن سواها من الأسفار . وقد قدره كل التقدير علماءُ الغرب وأثنوا عليه ثناءًا عاطراً حيث لم يكن هنالك فى كتب تاريخهم ما يضاهى هذا التحقيق الذى وضعه ابن جبير ، مما جعله وثيقة خالدة وقد طبع هذا القسم المترجم إلى اللغة الفرنسية فى باريس سنة ١٨٤٦ م .

وتُرْجِمَت الرحلة بكاملها إلى اللغة الإيطالية سنة ١٨٩٦ م .. وكان طبع الرحلة لأول مرة فى التاريخ سنة ١٨٥٢ م مع مقدمة باللغة الإنكليزية للأُستاذ وليم رايت فى مطبعة ليدن بهولندة . وأُعيد طبعها هنالك أيضاً فى سنة ١٩٠٧ م . على نفقة لجنة تذكار جيب[١] .

هذا ، وفى خزانة مكتبتى الآن بجدة خمس طبعات للرحلة فى بلاد الشرق العربى بشمال إفريقية وآسية .

وأول هذه الطبعات طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ – ١٩٠٨م . وقد ذكر فى صفحة عنوانها أنها « طبعت على النسخة المطبوعة بمطبعة بريل بليدن » وأنها هى « الطبعة الأُولى على نفقة الحاج محمد أمين دربال الكتبى بشارع الحوش بمصر قريباً من الجامع الأَزهر » وإذن فهذه الطبعة هى الطبعة العربية الأُم لسائر الطبعات العربية، ونلاحظ أنها

(١) معجم المطبوعات لسركيس .

طبعت بعد سنة واحدة فقط من طبعة بريل ، وهذه النسخة المطبوعة على ورق أصفر هى صغيرة الحجم وتقع مع ترجمات ابن جبير التى نُقِلَتْ من عدةِ مراجعَ عربية ومع فهرست موضوعاتها فى ٣٣٦ صفحة ، وهى قليلة الأَخطاءِ المطبعية .. وكل صفحة محاطة بإطار مستطيل على ترتيب طبع الكتب العربية القديمة فى ديار الشرق العربى والإسلامى .

وتَلى تلك الطبعةَ ، الطبعةُ التى قدمتها مكتبة نعمان الأَعظمى ببغداد سنة ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م وهى نسخة ضئيلة الحجم تقارب فى مقياس طولها وعرضها وفى شكلها العام طبعة دار السعادة - وقد طبعت هى أيضاً على ورق أصفر بإِطار يحيط بصفحاتها أيضاً . وذُكِرَت بها ترجماتُ ابنِ جبير المسطورة فى كتب المصادر السابقة . فلعلها إذن قد اعتمدت على طبعة مطبعة السعادة التى اعتمدت على طبعة بريل فى ليدن بهولندة.

وثالثة الطبعات الطبعة المحققة المنقحة التى أَشرف على تحقيقها الدكتور حسين نصار ، وقدم لها بمقدمة من عنده عن الرحلة وصاحبها وشرح مصطلحاتِها ووضع لها كشافاً للأَعلام والجماعات والأَماكن لأَول مرة ، وزينها بخريطة لمسيرة ابن جبير فى رحلته إلى الشرق الإسلامى وإيابه منها إلى بلده غَرْنَاطَةَ « بالأَندلس » ولم يزينها بصور ما . ويبدو أن سنة إخراج هذه الطبعة كانت سنة ١٣٧٤ هـ - سنة ١٩٥٥ م أَو ما حولها .. حيث ورد هذا التاريخُ فى ختام مقدمة الرحلة .. كما وضع فى أَواخرها لأَول مرة أَيضاً « قائمة بالأَلفاظ العامية أَو الدخيلة أَو التى يستعملها المؤلف استعمالاً خاصاً أَو يكثر من استعمالها » .. وهو ما أَطلقنا عليه اسم « مصطلحات ابن جبير فى رحلته » وأُخْلِيَتْ هذه الطبعةُ من الإِطار الذى كان على صفحاتها فى الطبعتين السابقتين وأُبْقِيَ الإِطارُ على

صفحة عنوان الكتاب فقط وجعل ملوناً برواسم خطية رائعة . وقد أُخْرِجَتْ هذه الطبعةُ على ورق أَصفر ٦٠ جراماً . وكان الأَجدر بها أن تخرج على ورق أَبيض صقيل ثخين لتقارن مستواها العلميّ المرموق ، وعدد صفحاتها مع متعلقاتها المشار إليها آنفاً هو ٣٦٥ صفحة من الحجم دون المتوسط ، وكان طبعها بدار مصر للطباعة وكتب ثمنها على صفحة غلافها الأَخيرة . وتمتاز هذه الطبعة فيما تمتاز به بتشكيل المُشْكِل من كلماتها ، وبمراعاة قواعد الخط الحديث فى نشرها من فواصل وبدايات الكلام . وبوضع عناوين داخلية صغيرة من قِبَل المحقق اقتضاها المقام ، إضافة للعناوين الداخلية القديمة .

وتلى طبعةَ حسين نصار – ولنسمها بهذا الاسم – طبعة دار صادر – دار بيروت ، فى بيروت التى صدرت فى سنة ١٣٧٩ هـ – ١٩٥٩ م أَنيقة مضبوطة مبوبة موضوعاً لها فهارس عامة للأَعلام والمواضع . إضافة إلى فهرس الموضوعات ولم يذكر فى هذه الطبعة اسم محققها أَو كاتب مقدمتها عن تاريخ مؤلف الرحلة . .

وقد ذكر لى الأُستاذ منصور مِهران كمال الدين أَن الذى حققها وفَهْرَسَهَا هو « كَرَمُ البُستانى » اللبنانى .

تقع هذه الطبعة على ورق ثخين أَبيض بياضاً دون الناصع الْيَقِقِ فحازت التقدم الطباعى من هذه الناحية على سابقاتها ... وقد كُبِّر مقياسها عن ذى قبل طولًا وعرضاً . وجاءت مع مقدمتها وفهارسها فى ٣١٠ صفحة .

وقد عُنِى محققها بوضع هوامش بذيل كل صفحة تشرح غوامض

كلماتها مكتفياً بذلك عن القائمة التى وضعها الدكتور حسين نصار فى ذيل الكتاب .. وليس فى هذه الطبعة خريطة ولا صورة ما ، اللهم سوى صورة العلاف التى ربما تخيلها المحقق أَو الناشر ، لمؤلف الرحلة .. وقد لاح لى من تفسيراتها لمصطلحات ابن جبير أَن الرجل واضعها عالم لغوىٌّ ولكنه اعتمد فى أَغلب الشروح على ما كتبه حسين نصار قبله حتى إنه شارك حسين نصار فى التفسير الذى أَخطأَ فيه ، وقد أَشرنا إلى ذلك فى مكانه .. وأَكاد أَجزم بأَن هذه النسخة شبيهةٌ بأَن تكون « طبق ذلك الأَصل » مع بعض تعديلات قام بها محققها الذى لم يشأْ أَن يضع اسمه على الكتاب . ولعل مما حملنى على هذا الرأْى أَن طبعة دار صادر قريبة العهد جداً بطبعة دار مصر للطباعة فقد صدرت بعدها بحوالى خمس سنوات . وكانت بيروت فى هذه الفترة من الزمن كثيراً ما تقتبس وتستفيد من مطبوعات مصر وتنشرها لحسابها هى . وقد امتازت طبعة دار صادر على طبعة حسين نصار بوجود فهرس الموضوعات فى ذيلها بخلاف طبعة حسين نصار فقد خلت من هذه المزية الضرورية فى عالم نشر الكتب قديماً وحديثاً .

أَما الطبعة الخامسة والأَخيرة مما فى خزانة مكتبتى بجدة – بالمملكة العربية السعودية – فهى مطبوعة بدار التراث ببيروت وقد صدرت فى حجم مماثل لحجم طبعة دار صادر طولًا وعرضاً غير أَنها طبعت على ورق أَصفر خَشن ردىء وإن كانت حروف طبعها جميلة جمال زميلتها المطبوعة فى دار صادر . وكان إخراج هذه الطبعة ببيروت سنة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م بعد صدور طبعة دار صادر بتسع سنوات . وقد صُدِّرَت النسخة بترجمة وجيزة لصاحب الرحلة تقع فى صفحة واحدة . فكأَنها اختصارٌ

لمقدمة طبعة دار صادر التى تقع فى صفحتين كاملتين .. وحُرُوف هذه الطبعة أدقُّ من زميلتها المشار إليها ولكنها جميلة على كل حال وهى كثيرة الأغلاط المطبعية ووضع على غلافها الملون إطار ملون وصورة مُتَخَيَّلَةٌ لابن جبير كأنه – فيها – أحد فلاسفة اليونان القُدَامى . وعجيب أن يوضعَ هذا الرسمُ بشكل آخر : بعمامة ووجه عريض ولحية كثة وملامح عربية فى طبعة دار صادر ، ونلاحظ أن اختلاف الرسمين فى الطبعتين يقرر أنهما كليهما من نسج الخيال ولا أصل لهما فى واقع الأمر ، وقد وضع ثمن النسخة الواحدة على صفحة الغلاف الرابعة بشكل غير فنى . واكتفى مُخْرِجُ هذه الطبعة بنشر فهرس الموضوعات وحده – وتقع هذه المطبوعة مع توابعها فى ٣٨٧ صفحة .

وتوجد طبعة سادسة لكتاب رحلة ابن جبير ، أصدرتها دار التحرير للطبع والنشر بمصر ، سنة ١٣٨٨ هـ – ١٩٦٨ م ، وتقع فى حجم كبير على ورق أصفر خشن غير جيد المستوى ، ولكن حروفها جميلة ، فى ستة أجزاءٍ كلها فى ٢٤٠ صفحة ، على شكل أعداد المجلات الكبيرة الحجم ولكل عدد غلاف مطبوع عليه اسم الرحلة واسم صاحبها .. الخ ، على غرار المجلات السيارة . وقد افتتحت هذه الطبعة بكلمة وجيزة ملأت فراغ صفحة كاملة ، وموضوعها هو تبيان مزايا هذه الطبعة الشعبية الرخيصة الثمن ، وتفيد تلك الكلمة – فيما تفيد به – بأن دار التحرير اعتمدت فى طبعتها هذه على الطبعة التى حققها ونشرها المستشرق الإنجليزى « وليم رايت » وراجعها وأعاد نشرها « دى جويى » عام ١٩٠٧ ضمن سلسلة « جيب التذكارية » .

وقالت دار التحرير أيضاً : إنها قدمت طبعتها هذه بدراسة قيمة

للدكتور مصطفى زيادة ، وهى التى وضعها عن الرحلة وقيمتها التاريخية . .
وهذه الدراسة - على ما تبين لنا نتيجة دراستها ومقارنتها بالدراسات الأُخرى التى سبقتها ، لا تختلف عنها ولا تمتاز بشىء جديد .

وأَتْبَعَتْ دار التحرير كلمتها التمهيدية بمقدمة الدراسة للدكتور محمد مصطفى زيادة موضع البحث وتقع فى ١٣ صفحة ، وأعقبتها بتراجم لابن جبير منقولة عن هذه المراجع : الإحاطة فى أخبار غَرْنَاطة - للسان الدين ابن الخطيب ، وتاريخ مصر الكبير المقفى - للمقريزى ، ونفح الطيب عن غصن الأندلس الرطيب - للمقرى .

ثم نشر كتاب الرحلة بعنوانين : عنوان كبير أول هو (رحلة ابن جبير) ، فعنوان الكتاب الأصلى (تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار) .

هذا ومن المؤكد أن طبعة دار التحرير هـذه قد اعتمدت - كما أوردت - على طبعة « جيب التذكارية » ، آية ذلك واضحة فى أنها وضعت فى أسفل كل صفحة رقم صفحة طبعة « جيب التذكارية » التى نقلت عنها ما ذكر . وعلى صفحة الغلاف الرابعة خريطة كاملة لمخطط رحلة ابن جبير ، وكدأب مطابع لبنان ، وإن تكن الطبعة المتحدث عنها غير لبنانية الطبع فقد ذكر بالصفحة الأخيرة قيمة النسخة ٦ قروش وبـ (٣) قروش لقراء جريدتى الجمهورية والمساء المصريتين المعاصرتين .

هذا وربما تكون هناك طبعات أُخرى لكتاب رحلة ابن جبير خلاف الطبعات السابق ذكرها .

الفصل الرابع والعشرون
ملاحظات وانتقادات على رحلة ابن جبير



لا يخلو كتاب من صنع البشر من وجود ما يستوجب الملاحظات والانتقادات فيه ، وقديماً قيل : من أَلَّفَ فقد استهدفَ . . وقد كُتِبَتْ ملاحظاتٌ وانتقادَاتٌ على كتاب رحلةِ ابن جبير . . ونحن موردون هنا كثيراً مما وقفنا عليه من ذلك :

فمن الملاحظات الموجهةِ إلى الرحلة قولُ نقولا زيادة عنها : « إنها ليس بها شيءٌ يدلنا على عدد السكان ، لأَيٍّ من البلدان التي زارها » . وهذه – كما قلنا في بحث ترجمة نقولا زيادة لابن جبير – ملاحظة في محلها لولا أن الرَّحَّالين العرب القدامى لم يعودونا القيام بهذه الإحصاءات البشرية لأَسباب واردة ومعقولة . وقل كذلك في الرحالين العرب المُحْدَثين أيضاً . فقد رأينا رحلاتٍ حديثةً قيمةً لهم ليس بها شيءٌ من الإحصاءات . خذ مثلًا رحلة الدكتور محمد حسين هيكل « في منزل الوحي » ورحلة الحجاز للمازني ، ورحلة الأَندلس لحسين مؤنس . ورحلة الربيع والصيف لطه حسين . والارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف ، لشكيب أَرسلان .

ولوحظ عليه قوله أَن ولادة الحسن والحسين رضي الله عنهما بمكة . ومعلوم أَنهما لم يولدا بمكة المكرمة وإنما ولدا بالمدينة المنورة . وهذا يحمل على السهو أَو على النقل المتيسر من ذوي الجهل المتعالمين .

ومما انتقد عليه سوق المبالغات الكبيرة في الأَوصاف التي يضفيها على بعض الأَفراد والأَشياءِ ، كقوله عن ابن الجوزيّ « ومن أَشهر آياته وأَكبر معجزاته » . . الخ . وذلك أَثناءَ وصفه لمجالس وعظه البليغة المؤثرة في بغداد التي حضر بعضها ابن جبير . وكقوله عن « قَيْسَارِيَّةِ

مدينة الموصل» : « قد جُلِّيَ ذلك فى أعظم صورة من البناء المزخرف الذى لا مثيل له »[1] وأمثال هذا القول مستفيض فى كتاب رحلته كوصفه لبعض أبنية جامع حلب بقوله : « فَتَجْتلى العيونُ منه أبدعَ منظر يكون فى الدنيا ، وحسن هذا الجامع المكرم أكثر من أن يوصف »[2] .

ومع أن هذا الإغراق فى المبالغة يعده علماءُ البلاغة خارجاً عن نطاق البلاغة ومنتقداً . فقد انْتُقِد على بعض الشعراء الفحول كالمتنبي وأمثاله. أما يجىء من المبالغات دون ذلك فى كتاب الرحلة وغيره فمرد استجادته أو نقده يعود إلى عرضه على محك علم البيان العربى فإن استحسنه فهو كذلك وإلا فلا . .

هذا ومن الممكن إرجاعُ ذلك إلى إغرام ابن جبير بهذا النوع من ضروب التهويل الجذاب للأنظار فيما يتخيل أنه يبرز للقارئ مدى إعجابِ كاتبه العميقِ البالغِ بالموصوف . .

وأرى أن كُتَبَ الرحلات هى أَوْلَى بأَن تتجنب جملة وتفصيلا هذه التهويلات وهذه المبالغاتِ غير المعقولة وغير المقبولة لتكون على مستوى المسئولية والموضوع ، وليطابق كل ما فيها أَوْ جُلُّه الحقائق بدون زيادة ولا نقص وذلك خير ألوان البيان .

ومن الملاحظات عليه استرسالُه فى استعمال الكلمات الدخيلة كالأَرْدَمُون والدَّلُّون والغِلِّينِى وبُطِس والقومس ، واستعمالُه للألفاظ العامية كالجَلْبَة والجِلَاب والأَشَاكيز وما أشبه . ويضاف إلى ذلك

---

(١) الرحلة ص ٢١٠ طبعة دار صادر .
(٢) نفس المصدر ص ٣٢٧ .

استعماله لكلماتٍ مهجورة تحتاج إلى شرحٍ وتفسير خاص . مثل (أَسأَدنا) و (الخنانيص) و (أَحَذُّ يد القميص) الخ .

ويبدو لى أَن تركيب الجهاز الأَدبى فى دماغ ابن جبير يقوم على شيء من هذا الاتـجاه .

على أَن الواقع أَن ابن جبير شاعر قدير وكاتب مُحَلِّق وهو يَرَى فى هذا « التنويع » وهذا « التجميع » أَسلوباً عالياً فى فن الأَدب وفَنّاً جديداً « نابعاً » من سعة اطلاعه وتفاعله مع عصره فى البيان والاجتماع .

والخلاصةُ أَنه قد يَرَى فى هذا الطراز من القول حدثاً طيباً من أَحداث « التجديد » المنشود وخروجاً من مأْلوف « الركود » الذى كان يجلل آفاق الأَدب العربى فى عصر المقامات فى نثره وشعره . وهذا يشبه ما رأَيناه ماثلًا فى كل من العقد الرابع والخامس والسادس من هذا القرن الهجرى – لدى كتابٍ مُحْدثين أَغرموا بحشو الكلمات الأَجنبية الدخيلة والعامية الوبيلة فيما يكتبون ظناً منهم أَن فى هذا الصنيع تجديداً مروماً واسترعاءًا لأَنظار القراء .. والتاريخ يعيد نفسه بأَشكال وأَلوان بل إن بعض الكتاب المعاصرين لا يزالون يسيرون على هذا الدرب الملتوى ، يعجبهم المقال الذى يقحم فيه كاتبه بعض الأَلفاظ الأَجنبية والعامية وبعض الأَسماء الأَجنبية وهم يخالون أَن هذا أَمر مستحسن ومجدد للأَدب.

ولوحظ عليه أَيضاً – إلى جانب المبالغات غير المعقولة ولاالمقبولة وإلى جانب إقحام الكلمات الشاذة والنابية والدخيلة والعامية فى رحلته – لوحظ عليه شىءٌ آخر هو استرساله فى تمجيد الأَشخاص الأَموات والأَحياء الذين يعتقد أَنهم أَولياء . ويشبهه فى هذا ابن بطوطة غير أَن ابن جبير أَخف منه فى هذا الشأْن .

ومع أن هذا واقع وملموس فى رحلة ابن جبير . فإنه مع ذلك ـ والحق يقال ـ نراه فى كثير من المواقف الصعبة الخطرة كتعرض المراكب التى تُقِله لخطر الغرق مثلًا بين أَثباج البحار الهائجة أَمواجها . نراه فى هذه المواقف يلتجئ بالدعاء المخلص الحار إلى المَوْلى جَلّ وعلا وَحْده ، ملتمساً من كرمه وفضله المنَّ عليه بالإنقاذ والسلامة وحسن الإياب إلى وطنه البعيد .

ولوحظ عليه كذلك إطلاق بعض الأَسماء على بعض الأُمور (من عندياته) مثل زعمه أَن النقوش التى على آثار الفراعنة بمصر هى من (الخط المسند) . مع أَن الخط المسند ، كما يعلم هو ، خط يمانىٌّ مذكور وصفه ومسجلة بعض خصائصه الكتابية فى كتب أُلِّفَتْ باللغة العربية ككتاب الإكليل للهمدانى مثلًا وأَما هذه النقوش التى هى على آثار الفراعنة فهى خط غير المسند بالتأْكيد وهى من الخط المستكشف بعد ابن جبير بقرون . وقد سُمِّىَ بالخط الهيروغليفى .. فكان من المناسب لابن جبير أَن لا يَجْزِم ـ كما فعل ـ بأَن هذا الخط المنقوش على آثار الفراعنة بمصر هو « خط المسند » وكان عليه أَن يستأْنى فى الحكم وأَن يتحفظ ولا يسترسل بالحكم الجازم الباتّ فى هذا الشأْن الذى يحف به كثير من الغموض يومئذ .

وسَمَّى « جبل ثَوْر » ـ فى مكة ـ بأَبى ثور . ولست أَدرى من أَين جاءت هذه « الأَبوة » لجبل ثور . . . ؟ ! [٣] .

ونقل حديثاً نبويًّا قاله الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهو يسير على جبل ثبير بمكة ومعه بعض أَصحابه الكرام . نقل هذا الحديث على أَن الرسول قاله وهو فوق جبل حراء .

---

(٣) رحلة ابن جبير ص ٩٣ طبعة دار صادر ببيروت .

مع أن الحديث مروى قوله له وهو على « ثبير »[٤] لا على « حراء » .

وجعل دار أبى أيوب الأنصارىّ جنوبىّ مسجد قباء الواقعة بضاحية المدينة الجنوبية[٥] بمسافة نحو ثلاثة أميال مع أن هذه الدار تكاد تلاصق المسجد النبوى فى داخل المدينة فى جنوبه الشرقىّ .

وزعم أن سورة الفتح نزلت بمسجد الفتح[٦] . وهذا سهو منه أو نقل غلط عن بعض الناس الذين يخلطون فى أمور التاريخ بدون علم أو روية أو مستند صحيح .

ومن المؤكد أن سورة الفتح لم يكن نزولها بمسجد الفتح مطلقاً .

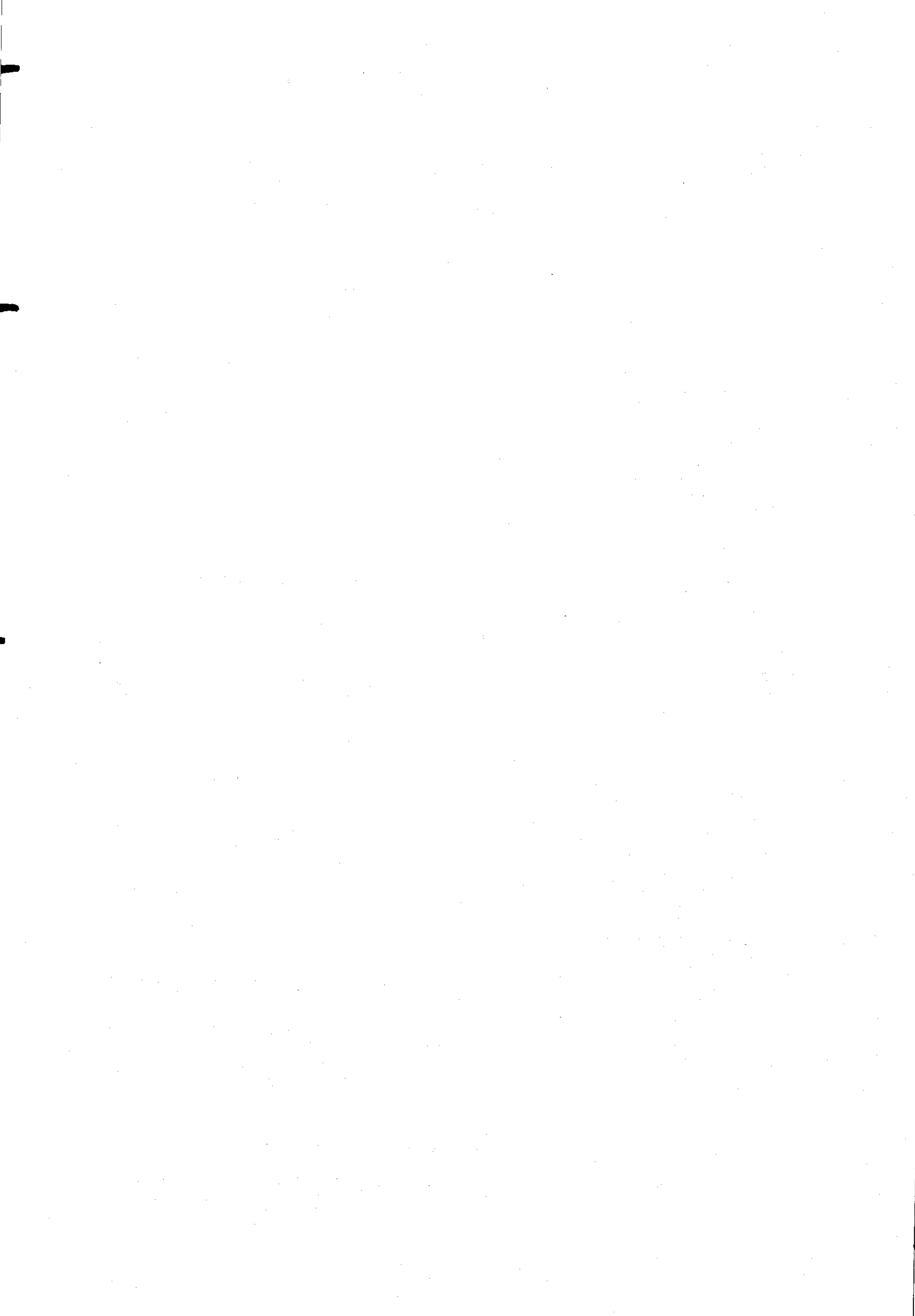
هذا ؛ وثمت ملاحظات ونقدات أخرى على رحلة ابن جبير . ووجود ذلك سواءٌ أصح منه شئ أم لم يصح يقوم دليلًا على مكانة الرحلة الممتازة فى عالم الرحلات العربية القديمة والحديثة أيضاً فلا يوجه الفحص والنقد الدقيق إلا للكتاب الثمين الممتاز . .

* * *

وإنصافاً لابن جبير نقول : مع ما نقدت به رحلته أو لوحظ عليها فمن الحق أن له مواقف رائعة فى عدم انطلاء الزيف عليه . . ومن شواهد ذلك أنه لم يقبل مطلقاً الرواية التى نقلت إليه والقائلة بأن « عتبات باب السلام » من أبواب المسجد الحرام هى أصنام قريش التى كانت تعبدها . كُبَّتْ على وجوهها ، وجعلت عتبات للمسجد الحرام تطؤها الأقدام إهانة لها . . فقد نفى هذه الشائعة نفياً باتاً وأورد الدليل على هذا النفى حسب ما سجلناه له فى « الفصل الرابع عشر » من هذا الكتاب .

---

(٤) راجع كتاب المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى ص ٣٣٢ ج ٦ طبع بريل .
(٥) ص ١٧٥ من الرحلة طبعة دار صادر .
(٦) ص ١٧٩ من نفس المصدر السابق .



مراجع الكتاب

١ – القرآن المجيد .

٢ – الحديث النبوى الشريف .

٣ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى .

٤ – رحلة ابن جبير .

٥ – الإحاطة فى أخبار غَرناطة ، للسان الدين ابن الخطيب .

٦ – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، لأحمد بن محمد المَقَّرىّ التلمسانىّ .

٧ – الفتح على أبى الفتح ، لابن فُورَّجَه . مقدمة عبد الكريم الدجيلى .

٨ – مستفاد الرحلة والاغتراب ، للقاسم بن يوسف التُّجِيبى السِّبتى .

٩ – رحلة العبدرى ، للعبدرى (وهى الرحلة المغربية) .

١٠ – رحلة ابن بطوطة .

١١ – يتيمة الدهر ، للثعالبى .

١٢ – صفة جزيرة العرب ، للهَمْدَانى .

١٣ – معجم البلدان ، لياقوت الحموى .

١٤ – الأعلام ، لخير الدين الزركلى .

١٥ – معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة .

١٦ – أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، لعبد الرحمٰن حميدة .

١٧ – الإسلام والحبشة ، لفتحى غيث .

١٨ – الموسوعة العربية الحديثة ، للدكتور أحمد عطية الله .

١٩ – كشف إفريقيا ، للدكتور زاهر رياض .

٢٠ ـ الجغرافية والرحلات عند العرب ، لنقولا زيادة .

٢١ ـ تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، لكراتشكوفسكى .

٢٢ ـ تاريخ آداب اللغة العربية ، لجورجى زيدان .

٢٣ ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، لزيغريد هونكه الألمانية .

٢٤ ـ كتاب تاج الإسلام ، لأبى سعد السمعانى وكتابه التحبير فى المعجم الكبير ، لمنيرة ناجى سالم .

٢٥ ـ رحلة الأندلس ، لحسين مؤنس .

٢٦ ـ العرب فى صقلية ، لإحسان عباس .

٢٧ ـ كتاب صيدا عبر حقب التاريخ ، لمنير الخورى .

٢٨ ـ الآثار الأندلسية الباقية فى الأندلس والبرتغال ، لمحمد عبد الله عنان .

٢٩ ـ الفاتنة ، لحسين فوزى .

٣٠ ـ أدب الرحلة عند العرب ، لحسنى محمود حسين .

٣١ ـ السيد عبيد مدنى (أورد أسماء بعض الرحلات الموجودة فى خزانة كتبه بالمدينة المنورة) .

٣٢ ـ محاضرة الدكتور محمد مصطفى زيادة عن رحلة ابن جبير .

٣٣ ـ الأستاذ منصور مِهْران كمال الدين فى الإفادة عن بعض المعلومات التاريخية .

٣٤ ـ مجلة دعوة الحق التى تصدر بالرباط بالمغرب العربى .

٣٥ ـ المقريزى فى كتابه عن خطط مصر .

٣٦ ـ مستقبل أبحر (للمؤلف) معد للطبع .

٣٧ ـ تعليقات الدكتور حسين نصار على طبعة الرحلة فى دار مصر للطباعة فى القاهرة .

٣٨ ـ تعليقات (كرم البستانى) على طبعة الرحلة فى دار صادر .

٣٩ ـ دائرة المعارف ، للبستانى .

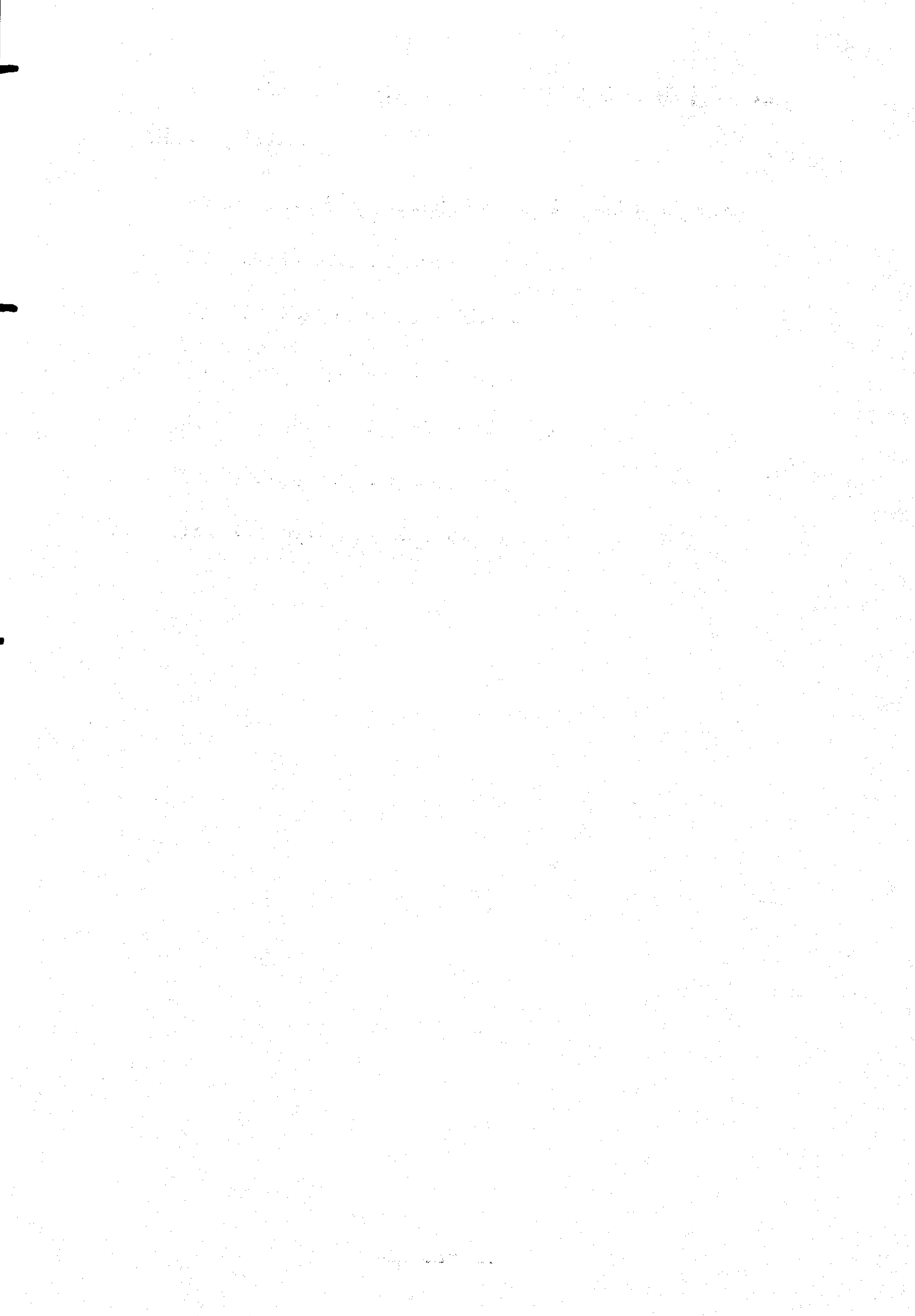
٤٠ ـ دائرة معارف الشعب . بالقاهرة .

٤١ ـ معجم المطبوعات ، لسركيس .

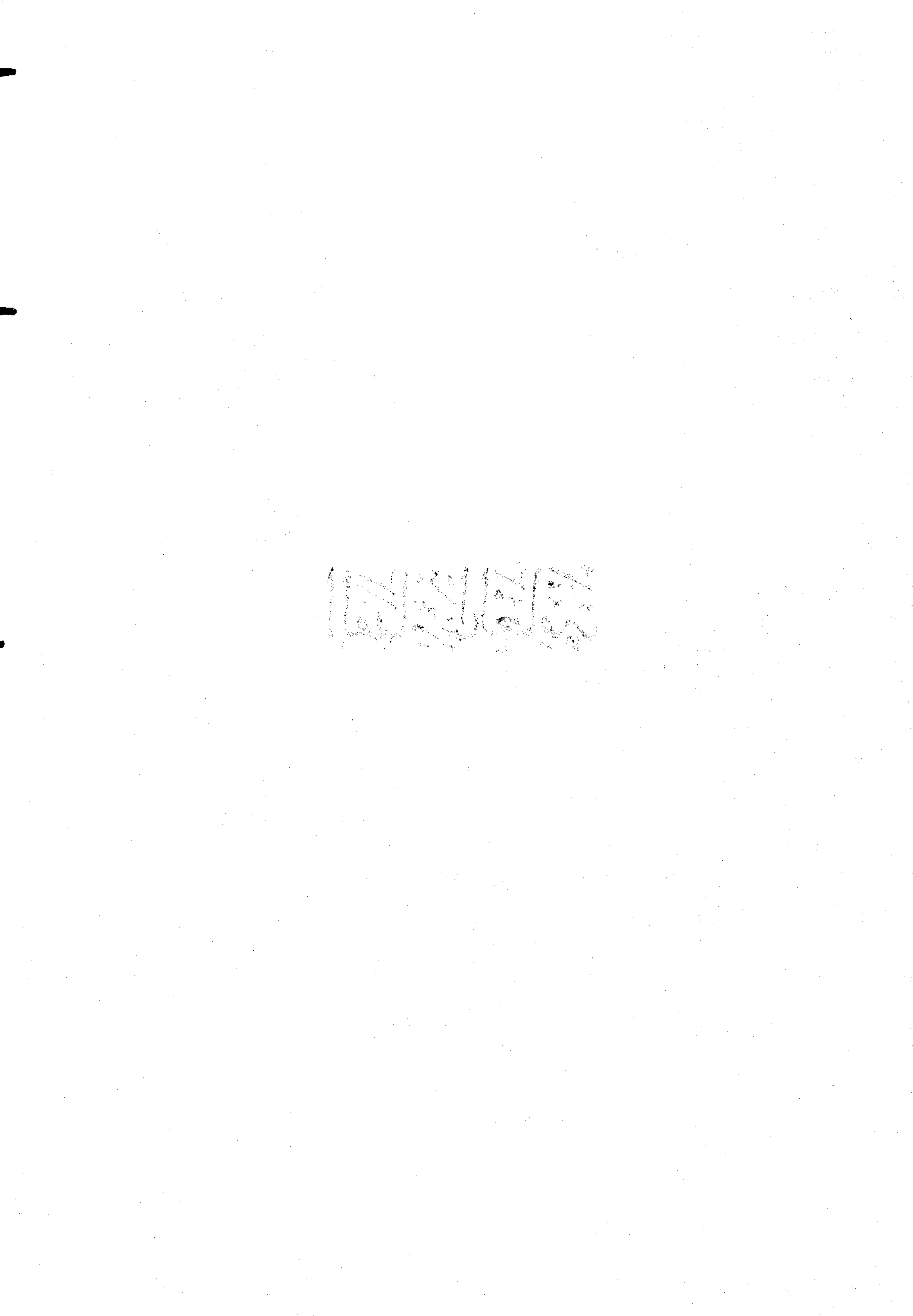
٤٢ ـ لسان العرب ، لابن منظور الأنصارىّ .

٤٣ ـ القاموس المحيط ، للفيرز ابادى .

٤٤ ـ تاج العروس ، لمرتضى الزبيدىّ .



الفهارس العامة



فهرس الأعلام

(خ)

(د)

(ر)

(ن)

فهرس الأماكن

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الصور

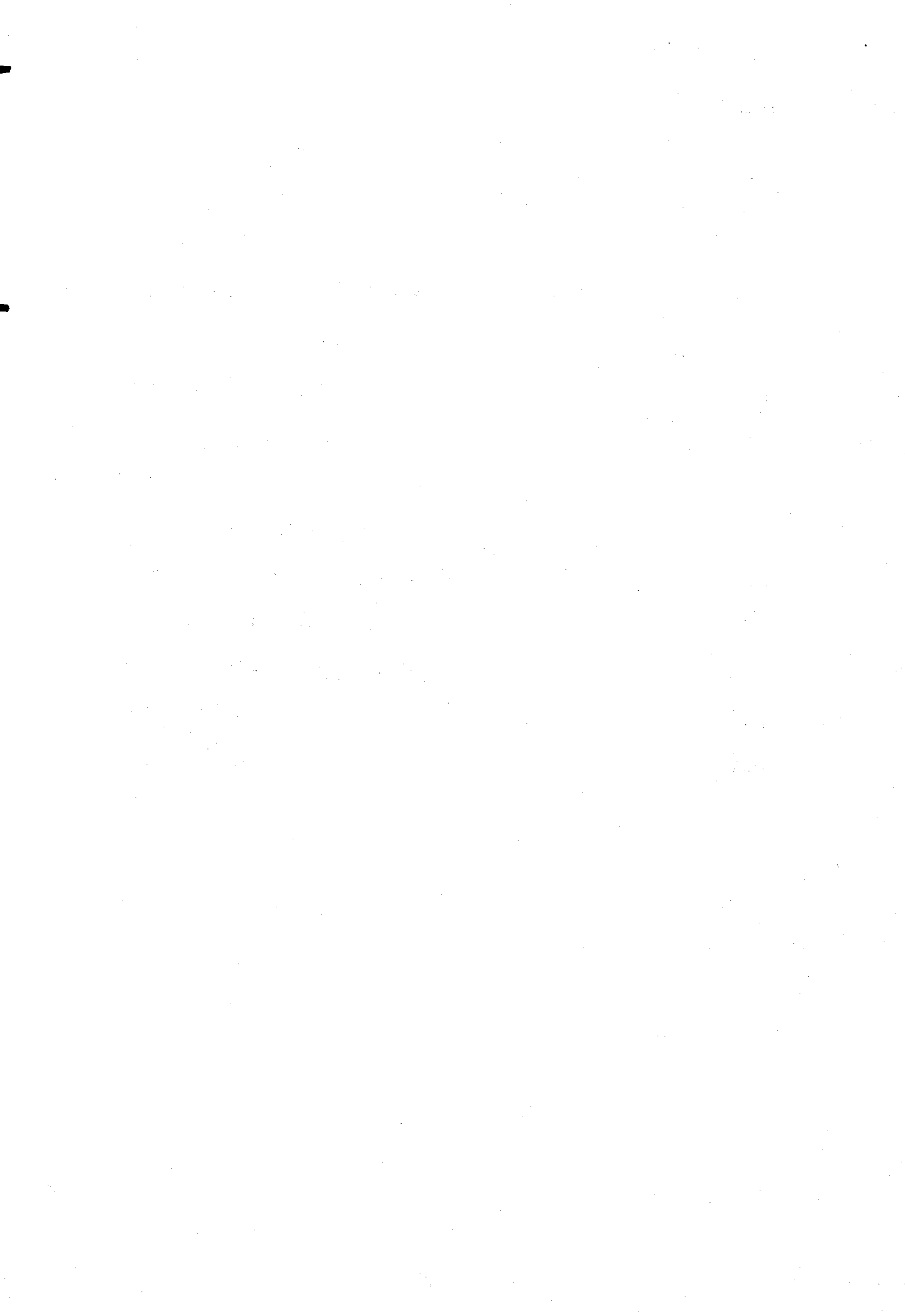
صفحة

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة

صفحة



بيان الأغلاط المطبعية الواردة فى هذا الكتاب وتصحيحاتها

الأغلاط المطبعية	تصحيحها	الصفحة	
الكبالى	الكيالى	١٤	
الثقاة	الثقات	١٥	
راجع ٦٧	راجع ص ٦٧	٢٢	بالهامش
كانت قيمة الدينار المومنية	كانت قيمة الدينار المؤمن	٢٧	بالهامش
التى تضمنها	التى تضمنتها	٦٧	
من غرب البحر الأحمر	من غرب البحر الأبيض المتوسط	١٠١	
إن صراحة	إن صرامة	١٠١	
والخضروات	والخضراوات	١١٧	
وفيها بنا	وفيها بناء	١٤٠	
عن سلطان مصر مع الوالى فى البلد	عن سلطان مصر فى البلد	١٥٢	
وأرإنى	وأرانى	١٧٧	
عند هن الأكبر	عيدهن الأكبر	١٨٦	
أخى صلاح الدين	أخو صلاح الدين	١٨٧	
ولذلك أخرجوا حرم الله	وبذلك أخرجوا حرم الله	١٩٤	
فقد بقيت	قد بقيت	١٩٧	
وسم الحج	موسم الحج	١٩٨	
بالسرة	بالسراة	١٩٩	
أى الأسيرتين	أى الأميرتين	٢٢٧	
فحصن الممشوق	فحصن المعشوق	٢٢٩	
ووصف تحسيناتها	ووصف تحصيناتها	٢٣٠	

الأغلاط المطبعية	تصحيحها	الصفحة	
بعودة الأسيرتين	بعودة الأميرتين	٢٣٠	
التابع للدولة	التابعة للدولة	٢٣٠	
أو جعلا فلاناً سيداً	أو جعل فلان سيد	٢٤٤	
السميساطى	السمياطى	٢٤٤	
الآلاف	بالآلاف	٢٤٦	
وقفوا على شوكة المسلمين	وقضوا على شوكة المسلمين	٢٥٠	
كل شى يضع أمامه	كل شيء يوضع أمامه	٢٥٠	
فقد كانا المقصودان	فقد كانا المقصودين	٢٥٤	
من قيام صلات	لقيام صلات	٢٥٤	
ورجس من الرجوس	ورجس : من الرجس	٢٥٥	بالهامش
فى يوم السبت	فى يوم السبت	٢٥٦	
الشرّع	الشرُع	٢٦٦	٥
ليدل على تصديقها	يدل على تصديقها	٢٨٣	٦
بلرموا	بلرمو	٢٨٤	١٨ بالهامش
(بسبب استعداده ظهارة فى حفظ الإنجيل)	(بسبب استعداده لاظهار فراق الإسلام ومهارته فى حفظ الإنجيل)	٢٨٤	٢٢ بالهامش
فأرسلوا	فأرسوْا	٢٨٨	١٨ بالهامش
التى عانى منه	التى عانى منها	٣٠٨	٧
طنتدده	طنتده	٣٢٢	١
قريب الإباء	قريب الآباء	٣٢٩	١١ بعد الخط الأفقى
وفى خزانة مكتبتى الآن خمس نسخ .	وفى خزانة مكتبتى الآن ست نسخ .	٣٣٩	١٥
وتوجد طبعة خامسة	وتوجد بمكتبتى طبعة سادسة	٣١٢	١١
أما يجنى من المبالغات	أما ما يجنى من المبالغات	٣٤٨	٧

المطبعة العربية الحديثة

٤٨ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية – القاهرة

رقم الإيداع ٥٢٦٦ / ١٩٧٦